أرواح وأشباح

صدرت الطبعة التاسعة في ١٩٨٧
وصدرت طبعاته التالية في: ١٩٨٨ ـ ١٩٩٠ ـ
١٩٩١ ـ ١٩٩٢ ـ ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥ ـ ١٩٩٦
الطبعة السابعة عشرة
١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م
الطبعة الثامنة عشرة
١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م
الطبعة التاسعة عشرة
١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م
الطبعة العشرون
١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى
رابعة العدوية ـ مدينة نصر ـ ص . ب : ٣٣ البانوراما
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com

أنيس منصور

أرواح وأشباح

دار الشروق

فى هذا الكتاب

أرواح وأشباح

ظهرت بنت نفرتيتى فى لندن ٧

وانعقدت المحكمة فى الظلام .. وكانت البراءة ... ! ١٥

سيدة بيضاء .. تحت وفوق أشجار الزيزفون ٢٣

جمعية الأدباء الصامتين حتى الموت .. ! ٣١

الذى كان يصرخ ألف يوم .. ! ٣٩

ولما رآها حارس نابليون هرب .. ؟! ٤٧

أقسى احتفال بعام جديد .. ! ٥٣

وانحنى على ملابس الملك يقبلها ثم اختفى .. ! ٥٩

لوحة بريشة فنان وقلم أديب .. ؟! ٦٧

بالضبط كما رآها فى النوم ٧٥

فقط هذا الكلب الأسود ٨٣

عاد ليقول ما الذى رآه بعد الموت ٩١

أصابع الديك الرومى على كتفيه ! ٩٩

بشرط واحد .. ألا تخاف . ! ١٠٩

فى رأس الملكة فى ذلك اليوم . ! ١١٧

ينمو الشجر فى كف الحجر ! ١٢٥

وكانت الدبلة الذهبية فى عنق عصفور ! ١٣٥
وفجأة سقطت كل ملابسه . . فحكم بالبراءة . . ! ١٤٣
يكفى جدًا : غرفة ومنضدة ومقعدان . ! ١٥١

أيها الإنسان أنت معجزة

نزيف من النور ١٦١
إذا ضربت الطفل بكت أمه . . ! ١٦٩
لم تعد تقرأ بأصابع قدميها . . ! ١٧٧
الفراعنة عرفوا هذه العصا السحرية ! ١٨٥
يظهر فى مكانين فى وقت واحد ١٩٣
نعم كنت هنا من قبل . . ! ٢٠٣
مصرى هبط من كوكب الزهرة ٢١١
حكمة الثعبان وحيوانات أخرى ! ٢١٩
« وردة المصرية » تصلى فى متحف القاهرة ٢٢٩
من أجله تتوقف الدماء . . ! ٢٣٧
وجاءت فتاة أخرى إلى القاهرة واختفت . ! ٢٤٩
نصب تذكارى لمجهول قتله مجهول لأسباب مجهولة . . ! ٢٥٧
دائمًا تختفى الصورة من البرواز . . ! ٢٦٧
من هو الذى يحرك التوابيت . . ! ٢٧٥
شىء مكتوب على بيض الدجاج ٢٨١
من فتحة فى قناع على وجه أعمى ٢٩١

ظهرت بنت نفرتيتى فى لندن
والتقطت يدها المقطوعة ثم هربت .. ؟!

نحن حديث العالم كله الآن ولكن لأسباب أخرى !

فبريطانيا تحتفل بمرور خمسين عامًا على اكتشاف أحد علمائها لمقبرة توت عنخ آمون .

وفرنسا تحتفل بمرور مائة وخمسين عامًا على اكتشاف أحد شبانها لحجر رشيد . .

وفى العام الماضى تحدث العالم عن كيفية عبور الفراعنة على أعواد البردى إلى أمريكا . .

وفى العام الأسبق تحدث العلماء السوفيت عن المسلات أو شبه المسلات ـ الفرعونية فوق القمر! « والتساؤلات هى : هل كان الفراعنة فوق ثم هبطوا الينا . . أو ارتفعوا من هنا إلى هناك . . أو أن كائنات أكثر عقلاً وتطورًا كانوا هنا وهناك ثم اختفوا فى الفضاء الساحق السحيق ؟ ! » .

ولا نهاية لما سوف يقوله العالم عن تابوت الملك الشاب توت عنخ آمون (١٨ سنة) . . فقد نجا هذا التابوت من أيدى اللصوص فى آخر لحظة . . وجاء الكهنة وأهالوا عليه رمال الصعيد . . حتى جاء عالم أثرى بريطانى ورفع عنه الظلام . . وأضاء به القرن العشرين . . وهذا الشاب توت عنخ آمون ليست له قيمة تاريخية . .

ولكنه استمد قيمته فقط من أنه صاحب أجمل وأكمل تابوت . . ثم إنه تزوج الابنة الثالثة للملك نبى هو أخناتون ، الذى كفر بعبادة « آمون » . . وأقام نفسه داعيا لعبادة الشمس « آتون »، عبادة قرص الشمس أو دائرة النور . . أو النور . . فكان بذلك أول من دعا للاله الواحد . . أو للتوحيد فى كل التاريخ فى كل العصور وانشغل بالدين الجديد عن الحكم وعن العرش . . وعن أهله . . وعن بناته الست . . وعن زوجته الجميلة نفرتيتى . .

وكانت حياته ومماته نموذجًا لكيف يكون النبى مضطهدًا فى أهله وفى بيته . . فلم تؤمن به زوجته . كانت أول من كفر وتبعتها بناتها . . أو أكثر بناتها . . ولذلك فقد وجدنا اسم الزوجة ممسوحًا أو مطموسًا فى أماكن مختلفة . .

وقد أدرك اخناتون أن العواصف التى هبت من البيت سوف تكتسح الوادى . . أو أنها هبت من الوادى والتقطها كل من فى البيت ، وأطلقوها عليه . . وضاعت سوريا منه . لقد كان هو أيضًا مشغولاً عنها بنفسه أو بمعبوده . . أو بلقاء ربه بعد الموت . فكل شىء فى حضارة مصر القديمة كان من أجل الموت . . فالناس ولدوا ليموتوا . . أو ولدوا ليستعدوا للموت . . فالموت مهرجان عظيم يجب أن يستقبله الإنسان فى أكمل جسم وأروع زينة . . ولذلك آمن الفراعنة بأن الجسم السليم هو وحده الذى يدخل الجنة فالإنسان عندما يموت يجب أن يكون طاهرًا مطهرًا . . . وأن يخلو جسمه من كل عيب ، وتصفو نفسه من كل شر . . فإذا دخل التابوت فكأنه قد وضع فى خزانة أمينة . . فإذا صحا ـ أى بعث من الموت ـ كان من الضرورى أن يجد إلى جواره كل ما يحتاجه من طعام وشراب وأدوات للطعام ، ونصائح للروح وارشادات فى عالمها الآخر . وبذلك لا تضل الروح إذا حلت فى الجسد . .

أما الكهنة فقد كتبوا اللعنات على كل من يلمس التابوت أو الجسد . . وهذه اللعنات مثل القذائف الموجهة عبر آلاف السنين إلى كل من يقترب من القبر أو من التابوت . .

وكانت للفراعنة قوة هائلة فى استخدام الكلمات . أو كانت لديهم معرفة غريبة

بأسرار الحروف . وكانوا يحبسون القوى الخفية فى رموز ، أو هكذا يقال . ويقال أيضًا أن أخناتون قد اختار توت عنخ آمون زوجًا لابنته لأنه كان يستمتع بقوة روحية خارقة ، وكان فى الثالثة عشرة من عمره .

ولكن هذا الملك الصغير لم يحفظ هذه الديانة . . لا هو ولا زوجته . .

بل إن واحدة من بنات اخناتون ثارت عليه ، فقتلها وفتح بطنها . . وسارع رجال الدين إلى يدها اليمنى فقطعوها . . ثم أخفوا هذه اليد فى مكان لا يعرفه أحد فى وادى الملوك . . وإذا قامت هذه الأميرة يوم القيامة ، فأنها تصبح محرومة من دخول الجنة . . لأن الجنة لا يدخلها إلا صاحب الجسم السليم !

وبذلك تظل هذه الأميرة التى كفرت بأبيها منبوذة إلى الأبد !

وظلت هذه الأميرة فى مكانها من العذاب حتى سنة ١٨٩٠ عندما جاء إلى مصر أحد تجار الآثار الفرنسيين . . الرجل اسمه الكونت لوى هامون . ذهب إلى الأقصر وقابل أحد التراجمة واسمه عباس . أعجب جدًا بعباس . . وقال له : أريد شيئًا نادرًا .

وذهب به عباس إلى الأقصر . . وظل الكونت فى انتظاره سبعة وعشرين يومًا . وفى اليوم الثامن والعشرين ظهر عم عباس وقد أخفى فى ملابسه كومة من القش . . وفى كومة القش وضع لفافة من الكتان . . واختلف الرجلان على الثمن . .

يقول الكونت لوى هامون فى مذكراته : لقد أراد الشيخ عباس أن يخيفنى . . ولكن رجلاً يرى الجثث لا يخاف . . ويتحدث مع الجن لا يمكن أن تفزعه هذه اللفافة :

وحاول الشيخ عباس أن يقنع الكونت بأن هذه اللفافة تضم أعظم شىء فى الأقصر كلها . . واتفقا على الثمن . .

وعاد الكونت هامون إلى فرنسا . . وراح يقلب فى اللفافة وتأكد لديه أنها يد لفتاة صغيرة . . أميرة . . أو ملكة . . فإلى جوار هذه اللفافة كانت توجد ورقة بردى وقطعة من الحجر عليها اسم هذه الأميرة ، وعليها اللعنة أيضًا لعنة الكهنة لها ،

ولكن الكهنة لا يلعنون من يكشف الرمال عن يد الأميرة الملعونة ابنة نفرتيتى . .

وفى سنة ١٩٢٠ سافر الكونت هامون إلى لندن . . وقرر أن يعرض هذه اليد على بعض علماء الآثار ، أو بيعها للمتحف البريطانى . . وفى احدى الليالى دعا إلى بيته عددًا من المشتغلين بالسحر . . وكانت الغرفة مظلمة إلا من نور أحمر كأنه جرح فى الليل والضوء خافت ينزف شعاعًا بعد شعاع . . أما الدخان فكان يتلوى فرعونيًا . . وجاء الكونت هامون ورفع اللفافة عن يد الأميرة . . وعرضها على كل الحاضرين . . وتلمسوها واحدًا واحدًا . . وكانت دهشتهم بالغة . . فقد كانت اليد لينة ناعمة ، دافئة ، ولاحظوا أيضًا أن الدماء تسرى فى عروقها . . وأن قطرات الدم تتساقط منها . . قال واحد منهم : إنها تتحرك . . قال ثان : أن أصبعًا تلتوى . . قال الكونت هامون : سوف تراها عندما يضاء النور العادى :

وأضيئت الغرفة . . وعادوا يقلبون اليد بين أيديهم . . أنها أكثر ليونة وأكثر حرارة !

وفى اليوم المشهور عند السحرة باسم يوم « حلت . . حلت » وهو يوم ٤ نوفمبر سنة ١٩٢٢ حدث شىء عجيب . .

ففى هذا اليوم قرر الكونت هامون بأعصاب حديدية أن يقوم بتجربة مثيرة فقد أغلق على نفسه الباب . . وطلب إلى زوجته أن تنقذه فى آخر لحظة إذا رأت شيئا غريبًا . . ولم تسأله زوجته عن حقيقة هذا الشىء الغريب . . فقد اعتادت على الأشياء الغريبة حتى لم يعد شيء يخيفها .

وراح يقول : حلت . . حلت . .

أى حلت الأرواح فى كل مكان .

ورأى يد الأميرة ترتفع فى الفضاء . . وتقترب من وجهه . . ولما حاولت الزوجة أن تتدخل أشار إليها ألا تفعل شيئا . . وفجأة هبطت اليد إلى ما فوق المنضدة التى اشتعلت نارًا ليس لها دخان . وانفتح باب الغرفة بعنف شديد . . والتفت وراءه ، وكذلك فعلت زوجته ، ورأى الاثنان أميرة فرعونية فى فستانها الأبيض الشفاف

ونظرتها الثابتة الهادئة . . واقتربت الأميرة من النار . . وانحنت على النار . . ورأى ذراعها اليمنى بوضوح مقطوعة اليد . . وانحنت الذراع اليمنى على اليد اليمنى . . ثم تراجعت الأميرة ومن ورائها الباب بعنف . . ولما نظر الكونت هامون إلى المنضدة وجدها محترقة ، أما اليد فقد اختفت !

وكان الكونت هامون يعرف قصة الأميرة . . وبسرعة راح يقلب فى « كتاب الموتى» ويقرأ بعض الصفحات وفجأة انفتح الباب ، ودخلت الأميرة فى ثوبها الأبيض . . واتجهت عينه إلى ذراعها اليمنى . . ورأى الذراع كاملة واختفت الأميرة لآخر مرة!

وفى اليوم التالى بعث الكونت هامون رسالة شخصية إلى اللورد كارنرفون الذى مول مشروع اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون . . وفى هذه الرسالة حذره من لعنة الفراعنة . . وقال إنه سمع من حراس المقابر فى مصر أن هناك أرواحًا شريرة تطارد كل من يلمس تابوتًا أو يفتح مقبرة أو يسرق قطعة من الذهب . .

وأصيب اللورد كارنرفون بالخوف الشديد . . فبعث إلى صديقه هوارد كارتر العالم الأثرى الذى اكتشف مقبرة توت عنخ آمون . . ولكن كارتر لم يعبأ بشىء من ذلك فهو عالم أثرى . . وقد نبش الأرض ودخل الكهوف وأكل تراب القبور مع طعامه وأقام ونام فى المقابر المهجورة . . ولكن اللورد كارنرفون لم يخف فزعه عن كل الناس . .

أما الليلة التى شاهد فيها السحرة هذه اليد وقد دبت فيها الحياة ، فهى نفس الليلة التى تأكد لدى العالم الأثرى كارتر أن المقبرة التى أمامه هى مقبرة توت عنخ آمون . .

وفى يوم ٢٢ فبراير سنة ١٩٢٣ دخل اللورد كارنرفون مقبرة توت عنخ آمون ومن بعده دخل العالم الأثرى كارتر . .

وقبل ذلك بوقت قصير أحس اللورد كارنرفون أمام مقبرة توت عنخ آمون بأن شيئًا لسعه . .

وفى يوم ٢٣ ابريل سنة ١٩٢٣ توفى اللورد كارنرفون فى القاهرة .

وبعد ذلك بسنوات انتحر زوج أخته . .

ولدغت حشرة زوجة أبيه فماتت . .

ولكن العالم الأثرى كارتر الذى يصف نفسه بأنه « نباش قبور محترف » لم يصب بشىء . . ومات عن ٦٦ عامًا سنة ١٩٣٩ ، عندما اشتعلت الحرب العالمية الثانية . . ويقال أن كارتر فى الأيام الأخيرة من حياته كان يرى أحلامًا مفزعة ، ويرى أشباحًا يضعونه فى النار ، ويدفنونه كالفراعنة ويحملونه فى الهواء . . ثم يلقون به فى الأرض فتلتهمه التماسيح . . ويقول إنه أحس مرة أن حشرة صغيرة جدًا ابتلعته وأنه لذلك يكاد يختنق !

* * *

ولكن هناك كاهنة عاشت وماتت سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد . . وكانت لها قوة أخطر من قوة توت عنخ آمون . . هذه الكاهنة عاشت فى مدينة طيبة . . وكان نفوذها قويًا ، وسحرها مخيفًا . . وقد استطاع العالم الأثرى دوجلاس موراى أن ينقلها من مصر إلى لندن . ولكن حدث أن ذهب هذا الرجل للصيد فانطلقت البندقية فيه وأصابت ذراعه . . وحاولوا أن ينقلوه إلى القاهرة . . فلم يفلحوا . وإنما هبت رياح غريبة عطلت سير السفينة وبعد عشرة أيام وصل إلى القاهرة وقطعوا ذراعه . . وأما الخادمان المصريان اللذان نقلا تابوت هذه الكاهنة ، فقد ماتا فجأة . . وأما الثلاثة الانجليز الذين حرسوا التابوت دون أن يعرفوا قوة اللعنة الفرعونية فقد ماتوا فى الطريق . . وعندما رست السفينة على الشاطئ الانجليزى ، نزلت أربع جثث ، جثث هؤلاء الانجليز وجثة الكاهنة !

وكان موراى يشكو من أن عينى الكاهنة تتحركان فى اتجاهه ، وتتبعانه أينما ذهب . . وتخلص موراى من التابوت . . وأعطاه لسيدة غنية . . انكسرت رجلها ، وانتحرت ابنتها . . وابنتها الأخرى هرب منها خطيبها !

وقررت السيدة أن تبيع التابوت للمتحف البريطانى . . واشتراه المتحف

البريطانى ووضعه فى أحد المخازن . . ويقال أن عددًا من الحراس الذين نقلوه قد ماتوا الواحد بعد الآخر وفى ظروف غامضة . . وحاول أحد العلماء أن يدرس التابوت أكثر . . ونقله إلى مكتبه . . هذا العالم كان يصرخ لا شعوريًا ، ووجدوه بعد ذلك ميتًا ! . .

وفى يوم ٤ ابريل سنة ١٩١٢ روعت الدنيا كلها بغرق السفينة « **تيتانيك** » عندما اصطدمت بأحد الجبال الجليدية وكان على ظهرها ألفان من الركاب وقد غرق منهم ١٥١٧ نسمة . . ولم يكن أحد يتصور أن هذه السفينة سوف تغرق لأى سبب . . ويقال أن القبطان والبحارة لم يستمعوا لكل التحذيرات التى أرسلتها لهم السفن الصغيرة .

وغرقت الباخرة ! . .

وبعد غرقها بعشرين عامًا أعلن أحد علماء الآثار أن المتحف البريطانى عندما قرر التخلص من تابوت هذه الكاهنة أرسله على ظهر السفينة « تيتانيك » هدية إلى المتحف الضخم الفخم بمدينة نيويورك .

وانعقدت المحكمة فى الظلام وكانت البراءة ..!

كان الليل باردًا ، وكانت السحب قماشًا أسود تمسكه العواصف وتكنس به الأرض والناس ، وكان الحارس فى ملابسه القاتمة يدور أمام الأبوب ، وفجاة توقف ، لقد سمع صوتًا غريبًا . ووضع يده على سلاحه واستدار ليجد سيدة تقترب . ملابسها بيضاء لا تحركها الريح ، هل هذا ممكن ؟ . . ولم يشأ الحارس أن يذهب للقاء السيدة ، لقد توقف فى مكانه وانتظرها حتى تجىء . وحذرها . وتنبه حارس آخر . وراح يرقب الموقف من بعيد . واقتربت السيدة أكثر ولم تعبأ بالسلاح المدبب الممدود ونفذ فيها السلاح ، ثم مرت . وتوارت ، ولكن الحارس سقط على الأرض ميتا ، وجاءت رياح يوم ٢٣ يناير سنة ١٨١٧ ودفعته إلى جوار الحائط . . وعند الكشف عليه . لم تظهر فى جسمه أية آثار . .

ولكن الحارس الآخر هو الذى قال أنها شبيهة تمامًا بالملكة أن يولين الزوجة الثانية للملك هنرى الثامن الذى توفى سنة ١٥٤٧ .

وسجلت الصحف والهيئات العلمية هذا الحادث الغريب على أنه الخوف

التقليدى المعروف فى العالم كله من أرواح الموتى . ومن الغريب أن الأرواح التى يقول الناس أنهم رأوها ليست أرواح المجرمين ، ولكنها أرواح الضحايا . وهذا غريب أيضًا . فالقاتل لا يرى الناس شبحًا له ، وإنما يرون فقط أو يتخيلون انهم رأوا ضحاياه فى أشكال مختلفة . وفى أماكن مختلفة . وفى فترات زمنية متباعدة !

فهذا الملك هنرى الثامن (١٤٩١ ـ ١٥٤٧) قد تزوج ست مرات ، وأعدم اثنتين من زوجاته .

كانت زوجته الأولى كاترين أرملة أخيه . وطلقها بعد ذلك . وجاء طلاقها مشكلة من مشاكل الكنيسة . . أو من مشاكل الكنيسة والعرش . . ولكن الملك لم يعبأ باعتراض البابا فى روما وكان حريصًا على أن ينفذ ما فى رأسه وساعده الوزراء على ذلك . . وانفصلت الكنيسة الإنجليزية عن الكنيسة الكاثوليكية .

وفى هذه الأثناء كان الملك هنرى الثامن مغرمًا بفتاة اسمها مارى . . كانت عشيقته . . وكانت مارى ككثير من النساء لا تخفى ما يدور بينها وبين الملك . . كانت تقول وتبالغ فى مزاياه وفى هيام الملك بها . . وكان الملك سعيدًا بهذا التكريم المستمر لجماله وذكائه وقوته . .

وفى احدى الليالى جاءته خادمة تقول :

ـ تعال اسمع !

ولو جاءت الخادمة فى أى وقت آخر أو لأى سبب آخر لقطع رقبتها . ولكن الملك سار على أطراف أصابعه . . ومشى وراء الخادمة .

ووقف وراء احدى الستائر وسمع مارى هذه تقول : أن يموت الإنسان بين ذراعى الملك هذه هى الجنة :

ثم تضحك مارى وتقول : ولكن أن يعيش بين ذراعيه هذا هو العذاب . . فإن جلالته لا يعرف أن الماء قد خلق للاستحمام !

ولم ينس لها الملك ذلك . . وجاءت الخادمة نفسها وروت ما حدث لفتاة أخرى اسمها «آن » وهى أخت مارى هذه . . وآن بولين وهذا هو اسمها ـ قد سافرت إلى

فرنسا . . وسمعت ورأت وجربت ، وقرأت وطبقت ما قرأت . وعندها خبرة طويلة عريقة فى معاملة الرجال . . وتقول آن بولين : كلهم متشابهون . . وكل واحد منهم يتصور أنه يجلس على عرش من الفتنة . . وأن واحدة لا تستطيع أن تقاومه . . وأنا يعجبنى الرجل المغرور . . إنه بالضبـط الرجل الضعيـف !

ولم تضع آن بولين وقتها . . وإذا كانت أختها قد رضيت أن تكون عشيقة للملك ، فهى سوف تذهب إلى أبعد من ذلك . . وليس صحيحًا أنها حاولت أن تضع السم للملكة كاترين زوجة الملك هنرى الثامن . . أن وضع السم أسلوب العاجزين ، وهى ليست عاجزة . فهى لا تريد غير الملك . . وأن يختارها بكامل قواه العقلية . . وأن يتحدى بها الدين والدنيا . . وليكن بعد ذلك ما يكون . .

ولأول مرة يشعر الملك أنه أمام فتاة ذكية . . وإنها تعرف بالضبط ماذا تريد وماذا يريد . . أما الذى يريده الملك فهو ولى للعرش . . وزوجته الأولى لم تحقق له هذا الحلم . . ثم أن زوجته الأولى لم تعد تشعر بشىء من الامتنان له . أنه لم يضف إليها شيئا . . كان عندها فلوس قبل الزواج منه . . والآن عندها فلوس . . كانت أميرة وكانت ملكة ، وهى ملكة . . ورضيت بسفالة الملك ثم إنها تشعر له بالاحتقار . . ولم يبدد الملك وقته أو طاقته فى الحزن على ما كان وراح يبعث بخطابات غرامية من نار إلى « آن بولين » . والخطابات معناها أن المسافة بينه وبينها بعيدة . . وأنه فى حاجة إلى أن يحدثها عن نفسه ، عن شوقه وعن حاجته إليها . . وعن ضيقه بزوجته كاترين . . ولكن الخطابات لا تكفى . . فما أكثر ما يقوله الملوك . وما أكثر ما كتبه الشعراء . إنها تريده زوجًا لا عشيقًا . وعندماطلق الملك زوجته كاترين قرر أن يتزوج آن بولين وهى بروتستانتية . وثارت الكنيسة الكاثوليكية . . ولكنه أصر . . وانفصلت الكنيستان . . وتزوجها سرًا . . ثمَ أعلن زواجهما يوم ٢٥ يناير سنة ١٥٢٣ ، وأدركت آن بولين أن الزواج من أى ملك أمر سهل ولكن الحياة معه ، وقبول هذه الحياة هو الصعب . . وان الملك الذى تحدى الكنيسة والشعب مرة ، لقادر على أن يفعل ذلك ألف مرة . . ولم يكن هذا الاستنتاج خطأ . . ولم تنجب له آن بولين الولد

الذى يريده . . بل إنها انجبت ولدًا ميتًا . وصادف ذلك مرور سنة على وفاة الملكة السابقة كاترين !

ومادامت لم تنجب الولد ، فمعروف أمرها . . فلن يصبر الملك عليها طويلاً إنه فى حالة حرب مع كل الناس . . ويريد أن يبقى العرش فى بيته أو فى دمه . . إذن . . نهايتها معروفة ، ولذلك كانت عصبية جدًا . . وكانت تصرخ فى الليل . . وكان إذا ذهب إليها الطبيب قابله الملك وهو يقول : هه . . طبعًا لم تمت . ويقول الطبيب : لا يامولاى !

وكان الملك يضحك قائلاً : الرجال فقط هم الذين يموتون . . أما النساء فيجب أن يقتلهن أحد . . لو تركن هكذا فلن يمتن !

ثم يقول : ليست هذه الحكمة موجودة فى كتب الطب . . ولكنها من صميم الدستور السرى لكل ملوك العالم يا دكتور !

ويبدو أن هذه الملكة آن بولين قد وثقت من نفسها أكثر مما يجب . . واستهانت بالملك أكثر مما يجب . . وهذه أكبر غلطة يقع فيها المغرور عادة . . أن يرى نفسه كل شىء ، ويرى غيره لا شىء . فهى شديدة الذكاء وعرفت نقطة الضعف عند الملك ونسيت نقطة الضعف عندها : إنها مغرورة .

ولذلك كانت تغار على الملك وتبعث الجواسيس وراءه . . وفوجئ الملك بأن عددًا من فتيات الحاشية ورجالها قد اختفوا . . أو ماتوا . . ان الملكة هى الأخرى أصبحت تفعل ما يفعله . .

ولما علمت آن بولين أن زوجها يخونها ـ وهذا طبيعى ـ راحت هى الأخرى تخونه . . فقد اعطت لنفسها نفس حقوق الملك . . هو خائن ، فهى خائنة . . هو يهينها . . هى تهينه فى نفسها وفى جسمها وفى فراشه وفى بيته ومع رجاله ، وكان هذا هو الخطأ الثانى الذى وقعت فيه . . لقد أعطت الملك كل حيثيات الحكم عليها : فهى لم تنجب الولد . . ثم إنها عصبية مغرورة معقدة خائنة .

وفى الليل جاءت نفس الخادمة . . وتسللت إلى سرير الملك ولمسته برفق .

فنهض مفزوعًا . ووجدها أمامه . فوجئ الملك بنفس الخادمة . وكانت مفاجأة أكبر عندما وجد الخادمة مرفوعة الرأس أمام الملك . وأدرك الملك أن فى الأمر شيئًا غير عادى . صرخ : ماذا جرى؟ قالت الخادمة : الآن يا مولاى تستطيع أن تدافع عن شرفك!

وقفز الملك من السرير . .

وسار وراء الخادمة . . ووضع أذنه على الباب . . إنه صوت آن بولين . . سعيدة للغاية . . وهذا صوت أحد الأمراء سعيد تمامًا . . واختفت الخادمة وقرر الملك هنرى الثامن إعدام زوجته آن بولين وكل عشاقها من الأمراء والضباط .

وفى هذا اليوم قال الملك هنرى الثامن لزوجته آن بولين : اطلبى شيئًا أحققه لك .

فطلبت رأس أحد القساوسة الذين هاجموها . . وقرر الملك إعدامه . . وطلبت رأسه على طبق . . وجاء رأس القسيس على طبق . . وأخرجت آن بولين لسانه ثم وضعت فيه خنجرًا من الفضة . . والخنجر جاءوا به على طبق من الذهب . . وقد اختارت الخنجر من الفضة لأن الدم يبدو عليه أكثر وضوحًا . . أما الذهب فلونه يخفى لون الدم !

وفى اليوم التالى سألها الملك إن كانت تريد شيئًا آخر ، فقالت وهى تضحك : بعد ذلك أستطيع أن أشعر كأننى فى السماء !

وقال لها الملك : بل ستكونين فى السماء!

وفى أحد أيام مايو الجميلة من سنة ١٥٣٦ صدر حكم الإعدام على الملكة آن بولين . . انتهى . . لا راد لقرار الملك . . ونقلوا إلى الملكة هذا القرار . وكانت الملكة تتناول طعامها . . فطلبت المزيد من الشراب والطعام وطلبت إلى إحدى خادماتها أن تردد أغنية معروفة كان الملك يحب أن يسمعها عند ذهابه إلى الفراش . . ولم تستطع الخادمة أن تغنى . . فراحت الملكة تغنى . . وبصوت مرتفع . . وأصيب كل رجال القصر بالفزع . . وكان صوت الملكة جميلاً . . وقال بعضهم : بل ليس صوتها . . إن هناك أصواتًا كثيرة . . بل إن بعضهم قال : سمعنا أصوات رجال يرددون وراءها!

ولم تمض ساعة واحدة حتى خرجت الملكة فى أجمل أزيائها . . كانت ترتدى

فستانًا ورديًا . . وكانت تضع فوق الفستان جوبًا فى لون الدم . . أما شعرها فأسود فاحم . . وكذلك عيناها سوداوان . . وعنقها طويل دقيق وعلى رأسها تضع بونيه مرصعًا باللؤلؤ وعندما تقدمت آن بولين من المقصلة كانت تضحك للحراس . . وكانت تداعب الجلاد وهى تقول له : لن استغرق وقتًا طويلاً . . أن الله قد خلق عنقى لمثل هذا اليوم . . ضربة واحدة وأكون هناك فى السماء . . كما وعدنى جلالة الملك !

أما كيف كانت آن بولين تبدو فى ذلك اليوم الرهيب، فإن حاكم برج لندن واسمه سير وليام كنجستون يقول فى مذكراته : رأيت رجالاً كثيرين يلقون نهايتهم فى هذا المكان . . ورأيت نساء أيضًا . . وكان الحزن بالغًا على الجميع . . ولكن لم أر امرأة فى شجاعة وجرأة آن بولين وهى تقترب من الموت . . لقد خفنا من شجاعتها . . لقد استطاعت أن تجعلنا نفزع ونرتجف كأنها هى السيف وكأنها جاءت لإعدامنا !

هذه الشجاعة هى التى أطلقت عليها الكثير من الحكايات والخرافات قالوا : إنها ساحرة . . لابد أن تكون ساحرة . . فالسحرة يرحبون بالموت . . لأن الموت سينقلهم إلى عالم الشياطين . . عالم امراء الظلام !

ثم إنها وهى طفلة كانت تخاف من رنين الأجراس . وكل الساحرات يكرهن أجراس الكنائس . . وكل الأجراس !

والملك هنرى الثامن قال أن لها ثلاث أثداء . . وفى يدها اليمنى أصبع سادسة ، وكلها علامات السحر !

والملك هنرى الثامن يقول أيضًا : إنها ليست جميلة مطلقًا . ولكن إذا جلس إليها فإنه يتحول إلى كلب ذليل . . كيف ؟ إنه السحر !

أما رجال الكنيسة الكاثوليكية فهم الذين قاموا بحملة تشوية وتشهير لها فهى التى أدت إلى غضب الملك من البابا . . وانفصال كنيسة انجلترا البروتستانتية عن كنيسة روما الكاثوليكية !

وقالوا أيضًا أن تلميذتها وحبيبتها هى الأميرة مرجريت . . التى أصدر الملك

هنرى الثامن حكماً بإعدامها . . ولما ذهبت هى الأخرى إلى مكان الإعدام طلبوا إليها أن تحنى عنقها فرفضت فراحوا يضربون عنقها يميناً وشمالاً ، والدماء تسيل منها . . وكانت هذه الأميرة تقول وهى تنزف واقفة : أن الله خلق عنقى لكى تكسروه ، ولكنه لا ينحنى لاحد . بارك اللهم كل من يموت من أجل الشرف !

وماتت الأميرة مرجريت (٦٨ عامًا) ويقولون : إن ضحكتها كانت عالية . واحتفظ لها جسمها بابتسامة عريضة افزعت الحراس والملك بعد ذلك . . وكان ذلك سنة ١٥٤١ .

وأعدم الملك هنرى الثامن زوجة أخرى بعد ذلك بتهمة الخيانة . . وأعدم وراءها عددًا من الرجال بتهمة الخيانة العظمى ، فقد كانوا جميعًا عشاقها !

ويحاول بعض المؤرخين أن يوقظوا ضمير الملك ، أو أن يتصوروا أنه قد صحا . . ولذلك يتحدثون عن الأحلام المزعجة التى كانت تلقى بالملك من فراشة إلى الأرض. . ثم ادمانه الشراب بعد ذلك . . ولكن الذين عرفوا الملك جيدًا يقولون كانت أعصابه من حديد وأنه ممثل قدير . . وأنه حاول أن يوهم كل الذين حوله انه اضطر إلى ذلك اضطرارًا . . وانه بطبعه غفور رُحيم . . ولكن الملك يجب أن يكون مثلاً أعلى فى التشدد فى الدفاع عن الأرض والعرض والمبادئ . . وقد فعل ذلك !

ويبدو أن روح الملك هنرى الثامن هذه قد تعبت بما فيه الكفاية فاستقرت هناك ، فوق أو تحت ، ولم يسمع بها أو يرها أحد . . ولكن ضحاياه كانت أرواحهم قلقه . . وكأنها بعد أن عجزت عن الانتقام من الملك تريد أن تعذب كل الناس ، أو كل من يقترب من موقع الجريمة . .

وفى سنة ١٨٦٤ حوكم أحد الضباط عسكريًا . . لأنهم وجدوه نائمًا على مكتبه مع إنه مكلف بالاشراف على حراسة برج لندن حيث دفن كثير من الملكات والأمراء والأميرات . . ولكن الضابط أعلن فى المحكمة ، إنه لم ينم وإنما هو سقط مغشيًا عليه . . فقد رأى وهو جالس إلى مكتبه صورة حية للملكة آن بولين . . وقد ارتدت كل الملابس التى سجلتها كتب التاريخ رآها بوضوح . . وجد إنها من غير رأس . .

وأن هذا حدث أكثر من مرة . . وإنه لم يشأ أن يقول هذا لأحد حتى يتأكد من ذلك بنفسه . . ولكن المحكمة لم تبرئ الضابط . . غير أن واحدًا من المحلفين طلب من القاضى أن تنعقد المحكمة فى غرفة هذا الضابط بصفة رسمية ، لعلها ترى ما رأى . . وبذلك يستريح ضمير الجميع . . وتردد القاضى وبقية المحلفين . . وأخيرًا وافقوا . . وجلس الجميع . . وفجأة رأوا ما رأى الضابط . . وانفضت المحكمة. وفى نفس اليوم حكمت المحكمة ببراءة الضابط . .

وفى سنة ١٩٣٣ رأى بعض الضباط عربات وأشباحًا بيضاء وفستانًا ورديًا . . إلى آخر صفات وملامح الملكة آن بولين . . ونشرت صحيفة « التايمس » أن مشهدًا عجيبًا غريبًا رآه عدد كبير من الضباط . . وإنه من الصعب عدم تصديق ما أجمعوا عليه !!

ولعل شيئًا واحدًا قد أرضى الأحياء والأموات ، إذا ما قرأوا قصة حياة الملك هنرى الثامن، ومأساة الذين أعدمهم . . أن هذا الملك كان ضخم الجثة . . يأكل كثيرًا ويشرب كثيرًا وينام كثيرًا وهو مستريح قبل ذلك وبعد ذلك . . ولكن هذا الملك عندما مات نقلوه بصعوبة شديدة إلى احدى القاعات . . ولكن حدث شىء مخيف بعد ذلك . . لقد تمزق الكفن الذى التف حول الملك . . وظهر من الكفن لحمه وشحمه ودمه . . وجاءت كلاب الملك تلعق دماءه . .

ويقال أن قلبه اختفى . . ويقال ذراعاه . . كأن أرواحًا غريبة جاءت على شكل كلاب تسوى حسابًا قديمًا بين الجميع !

سيدة بيضاء ..
تحت وفوق أشجار الزيزفون

كان فى برلين شارع اسمه « تحت أشجار الزيزفون » . وفى هذا الشارع كان قصر كبير جدًا اسمه « القصر العتيق». وفى هذا القصر كان برج اسمه « برج القبعة الخضراء » . وفى هذا البرج يوجد تمثال من الحديد . التمثال لفتاة جميلة . لها صدر بارز . ويبدو أن الفنان كان حريصًا على أن يؤكد هذا المعنى. وكانت لها ساقان طويلتان. مسحوبتان . وكانت كتفها دائرية . ولسبب غير معروف لنا الآن جعل كل كتف على شكل تفاحة . ومن الغريب أن أثر أسنان الفنان أو أى مجنون آخر ، ما يزال واضحًا عل الكتفين . .

هذا التمثال الحديد اسمه : « العذراء من حديد » . وكان هذا التمثال يقف فوق كهف ، وهذا الكهف ينفتح مرة كل أسبوع . وفى بعض أوقات السنة ينفتح كل يوم مرة أو مرتين . هذا التمثال كان يستخدم للتعذيب . فقد كان الملوك يحكمون على ضحاياهم بأن يحتضنوا هذا التمثال عراة . . أو كانوا يلقون بهذا التمثال فوقهم حتى الموت . . ومن أهم معالم التمثال أن المسامير تخرج من كل مكان فيه . فإذا ماتت الضحية ألقوا بها فى الكهف تحت التمثال . . ألوف ماتوا هكذا . .

وقد حاول الإمبراطور فريدريش الأكبر أن يجعل هذا القصر فى فخامة وأبهة قصر فرساى الذى بنى فى فرنسا فى نهاية القرن السابع ليكون مقرًا للملك لويس الرابع

عشر . وكان فريدريش حريصًا على أن يجعل له قاعة للمرايا كالتى فى قصر فرساى (وفى هذه القاعة توج الأمبراطور فلهلم الأول سنة ١٨٧١ بعد هزيمة فرنسا . وفى هذه القاعة أيضًا وقعت ألمانيا معاهدة الهزيمة ١٩١٩ ؟!) .

وفى هذا القصر عاشت أسرة هوهنسولرن الألمانية ، وكان شعارها : الحكم بالحق الإلهى . فالملك يقول عادة فى أول لقاء له مع شعبه : أنا الملك . أنا سيد البلاد أفعل ما أشاء ، القداسة له وحده ، وما عدا ذلك فلى أنا وحدى . وتحت هذا الشعار مات الألوف فى الظلام فى أحضان العذراء الحديدية أو بأى نوع آخر من العذاب الصامت .

ويقال أن هذه العذراء الحديدية هى تمثال لفتاة أخرى كانت تعيش فى ضواحى برلين ، وأحبها أحد النبلاء وفى إحدى الليالى وجدها تمشى بفستان أبيض شفاف فى حديقة قصر أحد النبلاء . وسار النبيل وراءها . وفجأة وجدها تعانق شجرة من أشجار القصر . وظل يرقبها وفجأة وجد أن جذع هذه الشجرة قد التف حوله عدد من الرجال عراة . . يقف الواحد إلى جوار الآخر ، والفتاة تتقلب عليهم . تقبلهم ويقبلونها حتى الصباح . . ويتساقطون واحدًا واحدًا . فإذا سقطوا راحوا يتقلبون عليها . . أو تنقلب هى عليهم . وكان قراره قاطعًا : اعدام الجميع .

ولكنه لم يستطع أن يقضى على حبه لها . ولذلك صنع هذا التمثال ، وجعله نهاية لكل حى . . أو لكل صورة حية للخيانة فى الحب أو فى السياسة !

ويقال أن هذه العذراء كان اسمها « أناسيدوف » وكانت جميلة . وأن محبها الولهان قدقتلها ظلمًا . فهو كان يحبها ، ولم يخبرها بذلك . ولما رآها مع رجل غيره قتلها . وراح يندم على ذلك . وقرر أن يموت وهو فى أحضانها . فصنع هذا التمثال القاتل ومات وهو يتقلب عليه . ثم ترك التمثال ليكون مذبحة لغيره من الناس !

ويقال أيضًا أن صاحبة التمثال هى أرملة جميلة . هذه الأرملة اسمها انييسى أولاموندە . وقدعاشت هذه الأرملة بعد وفاة زوجها حياة منعزلة حزينة . ثم قررت أن تنذر نفسها لله ولكن عدلت عن ذلك فى آخر لحظة . فقد أدركت إنها لو ذهبت إلى

الدير فسوف يموت ولداها التوأمان جوعًا . . سوف يعيشان مع جدتهما ، وجدتهما سيدة قاسية . وآمنت هذه الأرملة بأن الذهاب إلى الدير هرب من الحياة . . وهرب من أعز الناس عليها : من ولديها . ولذلك عدلت عن دخول الدير . وقررت أن تعمل أى شىء أو تكون أى شىء لأى أحد ، لأن الجوع أفضل من أن تمد يدها لأحد . وأن تبيع جسدها أهون من أن تتسول من أقاربها . وقد سمع أحد النبلاء بما يدور فى نفس هذه الأرملة الجميلة وقال : إننى أحب هذه الأرملة الجميلة ولا أرى أن الحياة بغيرها ممكنة !

هذا النبيل اسمه **مارجريف البرت** وسمعت الأرملة بما قاله الأمير . وسعدت . وتمنت لو يراها أو تراه . ولما سمع النبيل بذلك قال : بل إننى أتمناها لنفسى ولكن .

ولما قيل له : ولكن ماذا !

أجاب : ولكن هذه العيون الأربع . . لولا هذه العيون الأربع التى لا ترحم لتزوجتها فورًا !

وذهبوا يقولون للأرملة ما قاله النبيل . .

وبسرعة فكرت الأرملة الجميلة . ودبرت . وقررت . وأتت بابرة ذهبية وأمسكت ولديها التوأمين . وأنفذت الأبرة الذهبية فى رأس كل منهما . . حتى ماتا . . وبكت عليهما . وبعد يومين ذهبت للنبيل تقول له : لم تعد هناك عيون أربع ترقبك وأنت تقترب منى !

وكانت مفاجأة للنبيل . . فلم يكن النبيل يقصد عيون ولديها ، وإنما يقصد عيون والديه العجوزين !

وأصيبت الأرملة بالجنون . وراحت تمشى فى الحقول والغابات بفستان أبيض وقد حملت على صدرها ملابس ولديها . . حتى ماتت !

ويقال أن فنانًا كان يعاصر هذه المأساة فنقلها إلى الحديد . . وجعل هذا التمثال أداة لتعذيب كل خائن نذل وكل من يغرر بقلوب النساء!

وفى عصر الامبراطور **يوهان سجسيموند** كان أحد الحراس يدور حول أركان

القصر . وفجأة رأى شبحًا أبيض . إنه يشبه تمامًا ذلك التمثال الحديدى . واقترب الشبح منه . ولكن الحارس لم يصب بأى خوف . ووقف وفى يده سلاحه . وتقدم من الشبح الأبيض وهو يقول : سيدتى إلى أين ؟

وكانت السيدة البيضاء قد لفت ذراعيها على صدرها . . ومدت ذراعها ثم هوت بمفتاح كان فيها على رأس الحارس . وسقط ميتاً . ومضت السيدة البيضاء تفتح أبواب القصر وعددها ٦٠٠ باب . وكان ذلك سنة ١٦١٩.

وفى نفس اليوم قرر الإمبراطور أن يرى هذا الشبح الأبيض . ورآه . وآوى إلى فراشه لآخر مرة . ومات !

وكان من عادة الحراس إذا رأوا السيدة البيضاء أن يفسحوا لها الطريق . وألا ينطقوا بكلمة واحدة . حتى تعانق تمثالها الحديدى وتتلاشى فيه !

وأصبح من النادر ألا يراها أحد .

وفى أيام الامبراطور فريدريش فلهلم الثانى ، كان الحراس يرونها كثيرًا . وكانوا يلاحظون أنها شديدة القلق . وأنها تمشى بسرعة ، وأحيانًا تتلفت وراءها كأنها تخاف من الموت مرة أخرى . .

وعندما قرر الأمبراطور فريدريش فلهلم الثانى أن يغزو مقاطعة شمبانيا فى فرنسا ، أمر رجاله أن يعلنوا غزو فرنسا وسقوطها فى أية لحظة . وضرورة الاحتفال بذلك فى كل مكان . ولكن فى نفس الليلة شعر الأمبراطور بشىء من القلق . لأول مرة يحس أن الفراش جاف . وأن الجو حار . وإن ملابسه تضايقه ، وأن الهواء فى القصر لا يكفيه . . فأمر بفتح أكبر عدد ممكن من النوافذ . . ولكن الهواء الذى هب من كل مكان لم يسعفه ، إنما أحس كأن الهواء يهرب من كل مكان . . كأن هناك مؤامرة عليه : أن يموت مختنقًا . فسأل الذين حوله : هل هذا شعوركم أيضًا . قال أحد مستشاريه وهو كاذب : نعم يا صاحب الجلالة !

ولم يصدقه الامبراطور . .

ولذلك قرر أن يذهب إلى خط القتال . وفى مدينة فردون دخل احدى

الحانات . . وأخليت له الحانة تمامًا وجلس على مائدة فى أحد الأركان وطلب من جنوده بعض النبيذ الفرنسى وأتوا له بكأس . لم تعجبه . فقرر أن ينزل إلى القبو الذى تراكمت فيه زجاجات النبيذ . وراح ينتقى ما يعجبه منه . أما لماذا راح يتساند على الزجاجات ، فلأنه شعر بدوخة خفيفة ولم يكن قد شرب بعد . وفجأة لاحظ أن الزجاجات تتراقص وتتلوى ويتحول بعضها إلى كائنات بشرية . ومن بين هذه الزجاجات رأى واحدة تكبر وتتضخم وتستطيل وتستدير . إنها تشبه تمامًا **الامبراطور فريدريش الأكبر** ونظر وتأمل وملأ عينيه ، وتأكد إنه هو الامبراطور ، وسمع الامبراطور يقول له : اسحب قواتك من فرنسا . . وإلا حدث لك ما ليس فى حسابك .

وجلس الامبراطور فريدريش فلهلم الثانى ليستمع إلى عبارات أخرى مروعة : اسحب قواتك وإلا ظهرت لك السيدة البيضاء أن بينى وبينها ثأرًا قديمًا !

والذى لم يفهمه المؤرخون هو لماذا سحب الامبراطور قواته من فرنسا وذهب فورًا إلى برلين ؟ عشرات الأسباب قيلت فى تفسير ذلك . ولكن مؤرخ القصر قد اعترف بعد ذلك بما حدث . . فقد سمع هذه القصة من الامبراطور وهو على فراش الموت .

فقد قال له الامبراطور : سأقول لك شيئًا بصفة خاصة وأرجو ألا يعرف أحد ذلك حتى لا يظن الناس أننى كنت **مجنونًا** طول حياتى !

ثم روى له ما رآه فى القبو !

وبعد هذه الحادثة لم يعرف الامبراطور طعم النوم . ومات بعد ذلك بخمس سنوات . وإن كان هو يقول : بل مت هناك . . فأنا لم أخرج من هذا القبو حيًا . . مت . . ولكن تأخر فقط موعد الجنازة والدفن !

وفى سنة ١٨٠٦ قبل موقعة « يينا » الشهيرة بين نابليون والجيش الألمانى حدث شيء غريب . فقد قررت القيادة الألمانية استدراج نابليون وقصقصة جناحيه ، وضربه عند المؤخرة . واتفقت كل القيادات العسكرية على ذلك .

وكان الأمير لودفيج البروسى ضيفًا على احدى الأسر الألمانية . وأعجبته فتاة . وانفرد بها . وتركت لهما الأسرة البيت كله . وقال لها الأمير : أريد أن أسمع منك الحانًا بقدر عدد القتلى من الفرنسيين !

وظلت الفتاة الجميلة تعزف حتى الصباح !

ولكن الفتاة لاحظت أن الأمير لم يشرب كأسًا واحدة من النبيذ طول الليل . وسألت الأمير : ولكنك لم تشرب . لماذا ؟

ورد عليها الأمير : ولكنك تركتنى أنام . وذهبت إلى فراشك ، وغيرت ملابسك؟

وقالت الفتاة : بل لم أبرح مكانى لحظة واحدة .

ووقف الأمير يقول لها : إذن أنت غيرت ملابسك وأنت تعزفين . . وارتديت فستانًا أبيض شفافًا وأنت تعزفين . . ووضعت قدميك الجميلتين على البيانو ورحت تعزفين . . إننى مسحور . . إننى اتمنى أن يرى جنودى كل هذا السحر . . ولا داعى للقتال والدماء !

وأيقنت الفتاة أنه مخمور فعلاً . فهى لم تتحرك من مكانها . إذن حدث شىء سمع عنه ولم يره . . لقد ظهرت السيدة البيضاء وتلاشت فى هذه الفتاة . ولم يعد الأمير يرى سواها .

وفى اليوم التالى مات الأمير وعلى شفتيه هذه القصة الغريبة . .

ولم يفلح الألمان فى سحق نابليون الذى ذهب إلى « القصر العتيق » فى برلين ، ونزل به شهرين . وطلب من الحراس أن ينقلوا تمثال العذراء الحديدية إلى غرفة نومه !

وفرح الألمان لهذا القرار الأحمق الذى اتخذه نابليون . وقالوا إذن هذه نهايته !

ولم يقع لنابليون شىء . ولا أحد سمعه يتحدث عن هذا التمثال ، فقد كان نابليون مشغولاً بشيء آخر . وكان إذا نام ماتت الدنيا كلها حوله . ونابليون ينام قليلاً . ولكن القليل هذا يذهب به بعيدًا إلى أعماق الأرض فلا يدرى شيئًا حوله . أحيانًا كان ينام على حصانه ، وأحيانًا ينام جالسًا . وأحيانًا ينام بملابسه كلها . وأحيانًا وهو يستريح فى حوض من الماء الساخن . وفى احدى المرات تساند على

العذراء الحديدية ونام أكثر من عشر دقائق ، كالخيل ينام واقفًا وكان يفخر بذلك !

ولكن عندما ذهب نابليون إلى ضواحى موسكو روى لرجاله أنه يرى أحيانًا دخانًا أبيض وسط الجنود . . وسط جنوده هو . . وكان الرد على ذلك سريعًا : إنه دخان الحرائق . . أو هو الضباب أو هو الأرهاق . . ولكن بعض مؤرخيه تأكد أن هذه هى السيدة البيضاء ذات اللعنات السوداء !

بل إن واحدًا من المؤرخين قد نقل إلى نابليون أن « المتنبئ » الفرنسى الشهير الذى اسمه **نوستراداموس** (١٥٠٣ ـ ١٥٦٦) قد ذكر فى كتابه المنظوم الذى عنوانه « قرون» والذى صدر فى سنة ١٥٥٥ أن قائدًا فرنسيا يغزو الشرق والشمال والجنوب سوف يرى أشباحًا مفزعة . وسوف يصاب برعب ، ولكن كبرياءه تمنعه من أن يحكى ذلك لأحد!

وفى ١٣ يونيو سنة ١٩١٤ سمع **القيصر فلهلم الثانى** أن أحد حراسه قد رأى السيدة البيضاء فى القصر . واستدعاه وحقق معه . وأوقفه أمامه وأمره ألا يروى ذلك لأحد . وأدرك القيصر أن لابد أن نهايته قد اقتربت . . ولكن الذى اقتربت نهايته ومات هو صديقه ولى عهد النمسا **الارشيدوق فرنتس فريدريش** !

وبعد أربع سنوات ترك القيصر فلهلم القصر العتيق وانتهت الحرب العالمية الأولى . وزالت إلى الأبد أسرة هوهنسولرن التى حكمت أوربا خمسة قرون بالضبط . . .

وفى ٢٩ ابريل سنة ١٩٤٥ لم يبق فى هذا القصر شىء . . تحول إلى رماد واختفت أضواؤه فى ظلامه ومجده القديم فى عاره الحديث . . ولم تعد هناك تلك الحجرات الملكية ولا القاعات الفخمة . . ولم تعد شعاعات الشمس فى غروبها وشروقها تلقى ضوءاً على العذراء الحديدية . . ومنذ ذلك اليوم لم يعد أحد يسمع بها ، أو يسمع أن أحدا رآها . . أو يريد ذلك !

جمعية الأدباء الصامتين حتى الموت ..!

. . إلا هذا البيت !

هذا التحذير يردده عشرات من الزملاء فى جامعة كمبريدج . ولكن لهجة التحذير لا تدل على شىء مخيف . فمن عادة الطلبة أن يسخروا من كل شىء . وحتى لا يتهمهم أحد بالهدم فأنهم يكونون جمعيات لكل رغبة خاصة . ففى مدينة كمبريدج توجد جمعيات من كل نوع . . جمعية محبى الخمور . وجمعية الذين يكرهونها . وجمعية هواة طوابع البريد وجمعية الذين لا يؤمنون بالبريد . وجمعيات المشى والجرى والسباحة والنوم فى فراش الآخرين والنوم وحيدًا حتى الموت . وجمعية المعانى الأبدية و « جمعية المبادئ الهدامة إلا قليلاً » . . والذين يحبون الزجاجات الفارغة وأغطية الزجاجات وجمعية خطف الملابس الداخلية للفتيات « واحراقها فى احتفال مهيب » .

وهناك جمعية تقول : من السهل على أى إنسان أن يقف على قدميه . . ولكن من الصعب أن يقف على أكتاف الآخرين . فكيف يكون ذلك سهلاً إذا أردت ولفترة طويلة ؟ !

ومعروف فى مدينة كمبريدج هذه لكل الناس أين يجتمع هؤلاء الشبان وفى أى وقت من النهار أو الليل . وماذا يشربون وماذا يأكلون . ليس هناك سر . فالكل

يعرف ما يدور فى رءوس الكل . ومن شاء انضم إلى الجمعية أو النادى الذى يريد . فمن المهم جدًا أن يكون للإنسان ناد . وأن يكون هذا النادى أكثر قداسة من الكنيسة ، إن كانت لها قداسة فى هذه المدينة الجامعية !

. . إلا هذا البيت !

إنه التحذير الذى يتردد فى كل مكان . مع إن هذا البيت الذى يحذرون الناس منه ليس أقدم البيوت ولا أكثرها بعدًا عن المدينة . . إنه واحد من ألوف البيوت التى عمرها ٢٠٠ سنة . صحيح أن بابه ضيق وسلالمه مظلمة . ولكن أين هى البيوت القديمة ذات الأبواب الواسعة والمداخل المشرقة ؟ ولا حتى بيوت الأمراء ولا قصور النبلاء فى ذلك الوقت من القرن الثامن عشر ـ عصر الملك جورج الثانى ، ولم يكن هذا الملك يحب النكتة . وإذا حاول إنسان أن يكون ظريفًا فى حضوره فالعقوبة معروفة : يأمر الملك بإلقائه فى الماء البارد وهو يضحك . . الملك يضحك ومحكوم على هذا الشخص أن يضحك وإلا تركوه عاريًا فى الماء .

ولما قيل لهذا الملك إن (هذا) البيت قديم وأنه خانق . . كان رده : إننا جعلنا الأبواب ضيقة ليكون هناك فارق بين أبواب البيوت وأبواب السماوات !

وكان الذين يسمعون مثل هذه الردود السخيفة يهزون رءوسهم طربًا لفصاحة الملك . ولما قيل له : ولماذا لا تهدم (هذا) البيت مادام الناس يخافونه ؟ ويكون جواب الملك : ولماذا لا نشنق لهم الملوك ورجال الدين ما داموا يخافونهم ؟

وكان الناس يفزعون من مثل هذه الإجابات السريعة ويهنئون أنفسهم على أن السماء قد وهبتهم مثل هؤلاء الملوك ، ووهبت الملوك مثل هذه البديهة الحاضرة . ويتناقل الناس رأى الملك ويفسرونه ألف تفسير . فكلامه ليس ككل كلام . . وإنما إذا صدرت للملك عبارة ، قامت العبارات الأخرى وانحنت أمامها !

ومعنى ذلك أن الملك جورج الثانى ليس فى نيته أن يهدم هذا البيت . هذا واضح من كل ردوده على عقلاء البلاط وثرثارات القصر ، ولكن لماذا قرر الملك فجأة أن

يهدم هذا البيت وتمايل الناس حوله خوفًا عليه . . وخوفًا على أنفسهم . . ثم لماذا قرر فى آخر لحظة ألا يهدم البيت ؟!

إن سير كيلى كوش أستاذ الأدب الانجليزى المعروف عنده تفسير لذلك وقد جاء تفسيره فى كتاب صدر له سنة ١٩٣٧ عنوانه (خرافات مفيدة) خرافات هذا صحيح . ولكن مفيدة ؟ لابد أن يكون المقصود بالفائدة إنه نشرها فى كتاب وكسب منها . أى إنه استفاد من مخاوف الناس وأوهام الناس ، وهو فى ذلك مثل رجال الدين والسياسة يبيعون أوهام وأحلام الناس للناس وفى كل العصور ـ والناس آخر من يعلم !

وهو فى هذا الكتاب يروى كيف أنه ذهب إلى كمبريدج وارتفعت الأيدى والحواجب والأكتاف تحذره من (هذا) البيت . وذهب الأستاذ كوش إلى أرشيف الجامعة . حتى عثر على التاريخ القريب لهذا البيت . . وقبل أن نمشى وراء السير كوش نقرأ سطورًا عن هذا الأستاذ الجليل : أنه أستاذ الأدب الإنجليزى وحاصل على الدكتوراه فى الفلسفة من جامعات كمبريدج وأكسفورد وبريستول وابردين وأصدر ٥٣ كتابًا ورئيس تحرير مجلة (النشر) وله دراسات فى الفلك واجتهادات فى علم النفس . وفى آخر أيامه اتجه إلى دراسة الروح وما وراء الموت .

ذهب السير كوش إلى البيت . مشى وراء حارس كبير فى السن . الحارس يفتح له الباب . الباب له صوت غريب . أو ليس غريبًا من باب قديم لا يفتحه أحد إلا كل عشرات السنين . . فعندما انفتح الباب تساقط بعض التراب ونزلت أحجار صغيرة من السقف . وترامت عليه روائح كريهة . هذه الروائح مألوفة فى البيوت المهجورة . أما الحارس فقد ترك الباب مفتوحًا وهو يقول له : أنا قد رويت لك القصة وأنت ما تزال شابًا شجاعًا باحثًا عن الحقيقة . وأنت حر . . وقبل أن أتركك أريد أن أسالك يا ولدى : ما هو نوع الزهور التى تحب أن أضعها على قبرك !

وقال الأستاذ كوش وهو يضحك :

ـ أى نوع !

ومضى الحارس بسرعة كأنه يخاف أن تمتد إليه أذرع خفية وتسحبه إلى الداخل .

ودخل الأستاذ كوش . . صعد السلم . . اتجه إلى الغرفة التى تكسرت فيها المقاعد والزجاج والأطباق وتناثرت الشوك والسكاكين والزجاجات الفارغة . . والأقلام والأوراق . وبقيت فى مكانها هذا منذ أكثر من مائتى سنة !

أما الذى فعله الأستاذ كوش فهو ما لم يتصوره أحد - وإن كان الأستاذ كوش قد سجل ذلك فى كتابه . لقد أمضى ليلة فى الغرفة الرئيسية . . نام . . ونام . . وبعد أيام ألف كتابه هذا . وبعد صدور هذا الكتاب بسبعة أسابيع مات فى فراشه . وقد وجدوه جالسًا إلى مكتبه . كأنه تعب من القراءة والكتابة فقرر أن ينام فى مكانه !

نعود إلى عهد الملك جورج الثانى وزوجته التعيسة الملكة كارولين التى سمعت بقصة هذا البيت كاملة . ولم تشأ أن ترويها لأحد . وإنما أفضت بسرها إلى احدى وصيفاتها . وأوصت بكل شىء بعد أن تموت . ولكن الوصية لم تنفذ . فالوصيفة قد ماتت بعد وفاة الملكة ولم يعرف أحد بهذه الوصية إلا بعد ذلك بمائتى سنة . . وكان الأستاذ كوش هو الذى اكتشف سر الملكة وسر (هذا) البيت .

ففى سنة ١٧٣٠ تكونت جمعية من سبعة من الشبان . هذه الجمعية اسمها جمعية (السبعة الدائمين أحياء أو ميتين) . هذه الجمعية تضم سبعة من الشبان تتراوح أعمارهم بين الثانية والعشرين والثلاثين . هؤلاء الشبان اعتادوا أن يلتقوا فى هذا البيت فى اليوم الثانى من شهر نوفمبر من كل سنة . هذا اليوم هو (يوم جميع الأرواح) . وليس عندهم برنامج يناقشونه . وإنما يأكلون ويشربون ويرقصون ويغنون ويلعنون كل المقدسات من أولها إلى آخرها ومن كل دين ! وفى ساعة متأخرة من الليل يهدأ الجميع ويعودون إلى بيوتهم على أمل أن يستأنفوا اجتماعهم الأيام السبعة التالية . .

ومن الغريب أن هؤلاء الشبان كانوا يحتفظون بمحاضر لجلساتهم . والذى يقرأ المحاضر التى عثر عليها الأستاذ كوش يندهش كيف أن هؤلاء السكارى يكتبون كل

شيء بمنتهى الدقة والأناقة . . مثلاً فى أول اجتماعهم يدور مثل هذا الحوار بينهم : « إذن نحن قررنا أن نجتمع اليوم . ثم ماذا بعد ذلك . . يسأل واحد منهم : لابد أن تكون هناك حكمة . . لابد أن يكون لدى كل واحد منا سبب وجيه » .

ويقول آخر : ليس من الضرورى أن يكون هناك سبب وجيه لأى شيء . فليس هناك سبب وجيه لكى تكون أنت موجودًا . . ولا أنا ولا أى واحد . . أليس هذا صحيحاً ؟

ويقول آخر : إذن نحن اجتمعنا هنا دون أن يكون عندنا سبب !

ويرد عليه أحد الحاضرين : « ليس من الضرورى أن يكون لكل شيء سبب . . اجتمعنا . وجلسنا . . وتناقشنا . . لأننا إذا لم نتكلم متنا . . وواضح أننا لا نريد أن نموت . . فقد ارتدينا ملابس ثقيلة خوفًا من البرد . . وأكلنا خوفًا من الجوع . . وضحكنا حتى لا يقضى علينا اليأس . . وكل واحد منا روى قصة غرامه اعتزازاً برجولته . . وواضح أننا نريد كل الذى فعلناه وهذا يكفى » .

ثم يوقعون بأسمائهم على محضر الجلسة . .

أما اللائحة الداخلية لهذه الجمعية فتنص على أن الجمعية تتكون من سبعة أعضاء ، أحياء أو موتى فالذى يموت يظل عضوا فاذا مات الجميع انحلت الجمعية. أو لم يعد لها وجود !! وتنص أيضًا على أن مبادئ الجمعية غير قابلة للتغيير. وعلى أن الأعضاء دائمون ، لا يخرج منها أحد ولا يدخلها أحد . وأن الذى يتخلف عن الحضور لأى سبب لابد أن يوقع عليه الأعضاء العقوبات المنصوص عليها . . وهناك نص يقول : ويمكن فى حالة الغضب الشديد والجنون المطلق عند الجميع أن يتغير اسم الجمعية إلى اسم : جمعية الأدباء الصامتين فى الموت . وهناك تحفظ فى محضر الجلسات يقول : هذا فى حالة إيمان الأعضاء بأنه لا فائدة من الكلام الذى يقولونه ، أو عندما يفقد الأعضاء أية شهية للكلام فيما بينهم . هنا فقط يجب أن يسكتوا إلى الأبد !

وتوقفت نهائيًا محاضر الجلسات يوم ٢ نوفمبر سنة ١٧٦٦ . وجاءت توقيعات الأعضاء فى غاية الوضوح والأناقة .

واكتشف الأستاذ كوش شيئاً غريباً بتاريخ ٣٠ نوفمبر سنة ١٧٤٣ . ففى هذا اليوم بالذات ثبت من الدفاتر الرسمية أن رئيس الجمعية واسمه ألان ديرمو قد اشتبك فى معركة مع أحد خصومه الذى أصابه بالسيف فى بطنه وراح ينزف من فمه حتى مات فى باريس . هذه حقيقة مؤكدة . وفى نفس هذا اليوم انعقد اجتماع (جمعية السبعة) فى كمبريدج وجلسوا وتناقشوا ووقعوا بامضاءاتهم السبعة فى نهاية الجلسة . والجلسة قد رفعت بعد منتصف الليل بقليل . ومن المؤكد أن الرئيس ديرمو قد قتل قبل هذا الموعد بدقائق فى باريس ! أى أن هذا الشاب قد قتل فى باريس وحضر الاجتماع الذى استغرق أربع ساعات فى مدينة كمبريدج والمسافة بين المكانين تقدر بمئات الأميال فى عصر ليست به طائرة ولا أى اتصال سلكى أو لاسلكى . وفى محضر الجلسة قال الرئيس : اننا ملتزمون باللائحة الداخلية للجمعية . فالواحد هنا يظل عضوا فى الجمعية حيًا أو ميتًا .

ولما سأله أحد الأعضاء : وهل هذا معقول ؟

فقال الرئيس : طبعا معقول . . اعطنى شيئًا معقولا واحدا فى هذه الدنيا وأنا أجد فيه شيئا (لا معقولا) !

ثم أخرج من جيبه كتابا صغيرا أسود ووضعه على رأسه وهو يقول : خصوصا هذا الكتاب ـ ثم ألقاه على الأرض !

ولأول مرة فى تاريخ هذه الجمعية بعد أن يتم اقفال المحضر ، يعودون ويقررون أن الرئيس قد مات ! وأن واحداً منهم يجب أن يقوم بدور الرئيس ! كيف أنهم لم يشعروا بأنه مات ثم كيف عرفوا أنه مات بعد وفاته بدقائق؟ ثم كيف أنهم لم يدركوا أى تغير فى (الشخص) الذى كان معهم بعد أن مات ؟!

وفى اليوم التالى أعلن الرئيس ديرمو أنه أصبح عضوا ميتا ، وكتب بخط يده ذلك . ويقول الأستاذ كوش : إن خطه كان أنيقا جدا .

وفى ٢ نوفمبر من العام التالى انعقد الاجتماع فى نفس المكان . . وأعلن واحد من الأعضاء أنه أصبح عضوا ميتا . أما هذا العضو فهو من ضباط الحرس الملكى وقد كانت وفاته معروفة . فهو قد ركب أحد الخيول وعندما أراد أن يقفز به من أحد التلال سقط ميتا ، ومن الثابت فى دفاتر القصر أن هذا الضابط قد توفى قبل انعقادالجمعية بساعات قليلة . ولكن الأستاذ كوش عندما قارن بين امضاء هذا الضابط (ميتًا) وإمضائه (حيًا) لم يجد أدنى فارق !!

وأقام الأعضاء الخمسة الباقون حفلة العشاء التقليدية ولكنهم انزعجوا عندما اكتشفوا الحقيقة المخيفة إنهم يأكلون ويشربون مع اثنين من الموتى . وتفرقوا . بعد أن اتخذوا قرارًا الا يجتمعوا بعد ذلك . . وفى العام التالى ودون أن يوجهوا الدعوة للحضور ، التقوا فى نفس البيت وفى نفس الغرفة . . وأعلن واحد آخر أنه أصبح عضوًا ميتًا . وتحرر محضر بذلك ووقعوا بأسمائهم !

وبعد أسبوع توفى عضو رابع وبعد شهرين توفى عضو خامس .

وفى يوم ٢ نوفمبر سنة ١٧٦٦ ذهب إلى مكان الاجتماعات العضو الوحيد الباقى . وكان فى نيته أن يشرب وأن يرقص وحده وأن يغنى وأن يشعل النار فى المكان . . وأن يحرق دفتر الاجتماعات . وذهب ، وفتح الدفتر وكتب : « أنا العضو الوحيد الباقى قررت أن أنهى كل شىء . وأن أحرق الوثائق التى تدل على هذا العمل الجنونى . . الذى لا أعرف كيف حدث . . ولا كيف أجىء إلى هذا المكان رغم حرصى على ألا أجىء . . إننى أرى طريقًا فأمشى . . وأقف أمام باب ينفتح . . وأضع رجلى على عتبة الباب فيحملنى السلم إلى أعلى . . وأجلس على مقعد يندفع إلى الأمام وأسحب دفترًا مفتوحًا وأمد يدى إلى قلم يسبقنى إلى الورق . . وأكتب وأوقع باسمى . . وأفاجأ بأن ستة إمضاءات أخرى وقد تراصت الواحدة إلى جوار الأخرى . . ولكن سوف أحرق كل شىء » .

ولم يستطع أن يفعل أى شىء .

وإنما جاء فى المحضر أن العدد القانونى قد تكامل وأن على العضو الباقى أن

يعلن نفسه عضوا ميتًا . . ومن الثابت أن العضو السابع واسمه الأستاذ بلاسيس مدرس الأدب الإنجليزى قد عاد فى نفس الليلة إلى بيته ومات فى الساعة العاشرة مساء . . ولكن بالرجوع إلى محضر الجمعية نجد أن الاجتماع قد انتهى فى الساعة الحادية عشرة وأربعين دقيقة . وفى المحضر يعلنون أنهم أصبحوا جميعًا أعضاء موتى . . ويختمون اجتماعهم بتحطيم كل شىء فى البيت : النوافذ والأبواب ، والمقاعد والأكواب والأطباق . . ولكن بقى هذا الدفتر كما هو ليهتدى إليه الأستاذ كوش بعد قرنين فى إحدى مكتبات جامعة كمبريدج .

وفى ٢ نوفمبر من كل عام يسمع الناس ضوضاء وأصوتًا غريبةصارخة تنطلق من هذا البيت . فاذا دخل أحد لم يجد أى أثر لأى شىء . . ولم يجد اثرًا لهذه الأطباق أو المقاعد .

وفى آخر أيام الأستاذ كوش أعلن أنه بالرغم من كل ما كتب وما رأى وما سمع فى غرفة الاجتماعات التى نام فيها ليلة ، فانه لا يجد تفسيرًا لما سمع ورأى وقرأ ، وما يرويه الناس فى كل مكان . . إنه فى دهشة . . ولا يكذب ما يرى ، ولكن لا يعرف كيف يثبته بالفعل !

وفى يوم ٢ نوفمبر سنة ١٩٤٠ توفى هذا الأديب والمؤرخ الكبير ! .

.. الذى كان يصرخ ألف يوم !

لو كانت هى أيضًا تحبه ، لأحبت العذاب معه ومن أجله . . لو كانت تحبه لسارعت إلى الموت لتكون معه فى العالم الآخر . . ولكنه كان يتعجل كل شىء . يريدها أن تحبه من أول نظرة كما أحبها . . يريدها أن تكون له وهى لا تعرفه . وكان من الصعب عليها أن تجيبه إلى كل شىء . فقد نسى إنها لم تسترح إلى أسلوبه فى معاملتها : لم تعجب بالرجل الذى يكذب على نفسه وعلى غيره . فهى فقيرة ولا يخفى هذا على أحد . وهى ابنة غير شرعية . وترى فى ذلك نعمة كبرى لأنها ليست مرتبطة بأم أو أب . ولا يطالبها أحد بأن تكون « بنت ناس » فهى بنت وهذا يكفى .

وهى لا تتوقع أن يزورها عم أو خال أو ابن عم أو ابن خال . وإنما هى وحدها التى تختار من الناس من يعجبها . وهى سعيدة بأنها وحدها فى هذه الدنيا . . شجرة برية . . أو حيوان برى . . والناس يفضلون البنت الوحيدة الجريئة . فكل واحد يطمع فيها ، أو يطمع أن يقوم لها بدور ابن العم وابن الخال أو الأخ أو الأب . وهم جميعًا كاذبون وهى تعرف ذلك . وتعرف أيضًا أن الناس جميعًا ممثلون . بعضهم ردىء كالذين لا موهبة لهم . وبعضهم على درجة كبيرة من الموهبة ، ولكن ليس

عندهم صبر وجلد على الاستمرار . وهذا أفضل لأنهم يتساقطون فى الطريق إليها . . وتنشغل بغيرهم من الناس . وأحسن عذاب للغزاة أن يموتوا وهم يحترقون . وهذه هى لذتها الكبرى . .

وهذه الخبيرة بصنف الرجال اسمها مدموازيل لاكلايرون أشهر ممثلة فى فرنسا فى عصر الملك لويس الخامس عشر ، ومعشوقة البلاط وحلم النبلاء وهدف الأغنياء والأفاقين فى ذلك العصر . . وكانت شديدة الذكاء والغرور أيضًا . وتقول فى مذكراتها : أما إننى ذكية فقد تعلمت ذلك من أغبياء الرجال ، وأما أننى مغرورة فكل فنان كذلك . . فإنى واحدة كما أن باريس واحدة فى هذه الدنيا .

سألها الملك لويس الخامس عشر بعد أن فرغت من تمثيل إحدى رواياتها : ياآنسة لاكلايرون ألم يكن من المناسب أن تترفقى بعشاقك ليلة أمس ؟ !

وكان الملك يشير إلى أنه هو شخصيًا كان يريدها أن تبقى معه وقتًا أطول ، لولا أنها اعتذرت بأن صديقًا آخر ينتظرها بالباب .

فكان رد مدموازيل لاكلايرون : مولاى أنت تجلس على عرش فرنسا ، ماذا تفعل يا مولاى لو دق بابك كل رعاياك وطلبوا إليك أن تعطيهم يدك ليقبلوها ؟ !

فقال لها : لو طلبوا لفعلت .

قالت : إذن أعطنى يدك بالنيابة عن فرنسا .

ومدت يدها ثم قلب يدها وقبلها وهو يقول : بالأصالة عن نفسى !

ومدموازيل لاكلايرون هذه قد طال عمرها وعاشت بالطول والعرض . وقبل وفاتها بقليل كتبت مذكراتها بعنوان « مذكرات إيبوليت لاكلايرون » ولم تخف عن قرائها أى شىء . اعترفت بعشاقها وأسمائهم . وقد أدت هذه المذكرات إلى فضيحة الجميع . ولم تحاول أن تتستر على ضعف الرجال من النبلاء والأغنياء . ولم تكد تصدر هذه المذكرات حتى اختفت فى أيام . فقد أخفاها كل الذين وردت أسماؤهم فيها ، بل إن أحد النبلاء قد اشترى أكثر من ألف نسخة خوفًا على والدته التى لم تكن تشك مطلقًا فى إخلاص أبيه . ولكن تفاصيل هذه المذكرات قد تناقلها الناس .

بل إن هذه المذكرات قد أعيد طبعها وأضاف إليها الناشرون قصصًا كثيرة من عندهم. وراحوا يهددون بها الأسر النبيلة فى فرنسا . .

ولدت الآنسة لاكلايرون فى مدينة كوندية سنة ١٧٣٣ . والمدينة تقع على الحدود بين فرنسا وبلجيكا . وعرفت الآنسة إنها أبنة جاويش فى جيش الملك لويس الخامس عشر . واتجهت بنفسها إلى التمثيل . فهى التى ذهبت إلى فرقة (الكوميدى الإيطالية) وطلبت أن تكون بين أفرادها . وكانت فى الثالثة عشرة من عمرها .

وعندما قدمت نفسها لمدير الفرقة . سألها : هل تعرفين أن هذه المهنة صعبة جدًا، قالت : أعرف . قال لها : هل تعرفين مدى هذه الصعوبة .

قالت : سمعت عنها الكثير . ولكن أعتقد أننى لا أصلح لأى شىء آخر .

وأشار مدير الفرقة إلى غرفته وأقفل عليهما الباب . وخرجت الآنسة لتقول : مهنة صعبة . ولكن هذا الذى حدث هو أصعب ما فى هذه المهنة !

ولكنها اعتادت على هذه الصعوبات العنيفة فى سن صغيرة وساءت سمعتها . وعندما رشحوها سنة ١٧٤٣ لتقوم بدور البطولة فى مسرحية (فيدرا) للأديب العظيم راسين تردد الكثيرون . وقالوا : ولكن سمعتها ! وقال مدير الفرقة : الإنجيل يقول فليرمها بحجر من كان منكم بلا خطيئة .

إذن لقد تحول مدير الفرقة إلى مدافع عنها . وتعودت على كذب الرجال الكبار – وكان مدير الفرقة يكبرها بأربعين عامًا – وركبت أعناق الذين هم أكبر سنًا وأضعف خلقًا وأعمق سفالة، ارتفعت إلى قمة المسرح الكوميدى . ولكنها كانت موهوبة . وكانت أجمل نساء عصر الملك لويس الخامس عشر . هذه حقيقة لا شك فيها . وقد تحدث كثيرون من الأدباء والممثلين والمخرجين عن (أجمل مخلوقات الله ، وأخبثها وأقدرها على تعذيب من يستحق العقاب من كل أبناء عصرها) .

وقاومت كل رجال العصر وقررت أن تكون الممثلة الأولى فى فرنسا . ترامى الرجال عند قدميها . وظلت عالية الرأس . وتساقطت الورود حولها . وتحطمت القلوب عندها . ولكن كانت آمالها أعلى وأقوى من كل هذا الذى يلمع فى عيون الناس

ويبرق فى أيديهم . وسدت أذنيها عن الكذب الجميل . وأمسكت شفتيها عن الشفاة المرتجفة ، فهى مشغولة عن كل شىء أنها تريد أن تكون شيئًا . أن ترد اعتبارها . أن ترتفع بنفسها عن أصلها المتواضع .

وفى مذكراتها تروى أعجب قصصها ولك أن تصدق أو لا تصدق ففى الدنيا أشياء كثيرة لا يفهمها العقل . فما يزال العقل فى أولى مراحله . إنها تساهم بقصة تضاف إلى ملايين الألغاز فى العلاقة التى بيننا وبين السماء ، أو بين هذه الحياة وما بعد الحياة . وتقول الآنسة لاكلايرون أن شابا من أجمل شباب باريس تعلق بها . ومالت إليه وأحبها جدًا . وعرف الناس جميعًا ذلك . وراحت تسأل عنه . والذى عرفته لم يعجبها فهو ليس من الأغنياء ، ولكنه حريص على أن يبدو كذلك . ثم هو يتنكر لأصله . ويدعى أنه من سلالة ثرية أبا عن جد عن جد . ولكنها هى وحدها التى عرفت حقيقته . وكان فى استطاعتها أن تفهم لماذا يحاول إنسان فقير وضيع أن يبدو نبيلاً غنيًا ، فهو مضطر إلى أن يفعل ذلك لعله يلفت نظرها . أو يصرف نظرها عن مئات الأثرياء الحقيقيين الذين سدوا الطريق إليها . ولكنها كرهت أن يكذب الرجل فى عواطفه أو فى علاقاته الاجتماعية . لو قال لها : إننى فقير مثلك . حقير مثلك . ولكنى أسمو على كل شيء بحبك . لو قال ذلك لأحبته وضحت بالدنيا كلها من أجله .

ولكن الرجال يكذبون . لكى يبدو أكبر ، ولو صدق الرجال لكانوا أكبر . . ولكن الرجال لا يعرفون المرأة . وتقول : لا يعرفون هذا الطراز الغريب من النساء . إنهم لا يعرفون بالضبط ما يعجبنى . إننى رقيقة . هذا واضح ولكنى أحب العنف . إننى صريحة ولكنى أحب أن أكذب وأن يصدقنى الناس . . وفى لحظة واحدة أحب أن أكون صادقة حتى آخر قطعة فى عظمى ودمى . . أحب الكذب طول الوقت . . وأحب الصدق العميق لحظة النشوة . أيها الرجال أنتم علمتم المرأة كل شىء . ونسيتم أن تتعلموا من المرأة شيئًا واحدًا : متى يكون الكذب ومتى يكون الصدق ؟!

هذا الشاب وليكن اسمه (ميم) أحبها بجنون . وأغرب من ذلك أنه أرادها أن

تكون له وحده . وهذا شعور طبيعى . ولكن ليس له ما يبرره من العلاقة العارضة العابرة بينها وبينه ولكن قلب المرأة ينفتح إذا دقت الشفقة بابه . . فالمرأة أم بطبعها . . أم لأى رجل ، أصغر أو أكبر منها . وعندما أحست الآنسة أنه سوف يعطلها عن العمل فى المسرح ، أشارت إلى الذين حولها أن يبعدوا عنها الشاب ميم . ولكن ملايين الأيدى لا تستطيع أن تفعل نفس الشىء بقلبه ولسوء حظ القلوب إنها أبعد من الأيدى . ولذلك إذا استقر فيها داء الحب ، فلا تستطيع يد الطبيب أو العشيقة أن تعالجه أو تحطمه .

وراح يبعث إليها بخطابات طويلة . . تكدست الخطابات ولم يكن فى استطاعتها أن تفتح هذه الخطابات ولكن حب الاستطلاع جعلها تفتح واحدًا منها . وكان ما توقعته : حب مجنون أو جنون الحب . فى خطاب يقول لها : لولا أن الانتحار سوف يحرمنى من العذاب لا نهيت حياتى . ولكن حياتى هى عذاب البعد عنك . ولذلك سوف أعيش مهما كانت هذه العيشة .

وفى احدى الليالى جاءتها رسالة عاجلة فى الليل مع سيدة عجوز . الرسالة تقول : إننى مريض . وأريد أن أراك . فقط هذا أملى .

وكان فى بيت الآنسة عدد كبير من الضيوف . وكان من عادتها أن تغنى وترقص وتشرب وتغنى ثم تودع ضيوفها جميعًا . ومن النادر أن تستبقى منهم أحدًا . وتقول فى مذكراتها : تعلمت من الرجال ألا أشعرهم بأن هناك واحدًا أفضل من الآخرين . . وإن كانوا يعلمون إننى لابد أن اختار واحدًا منهم . لكن لا يحطم قلب الرجل إلا شعوره بأنه فى منافسة . أن هؤلاء الرجال يفضلون أوهامهم الجميلة . ولكن ليست عندهم شجاعة كافية . . كم تمنيت ولو مرة واحدة أن أجد رجلاً يمسك كرباجًا ويضرب كل هؤلاء الموجودين ويختارنى بالقوة . ويطردهم بعنف . . ويسد الباب فى وجه الدنيا وأن يمنعنى من الذهاب إلى المسرح . . ولكن أحدًا لم يفعل ذلك !

وتأثرت الآنسة لهذه الرسالة المتأخرة وقررت أن تذهب لزيارة الشاب المريض

ولكن ضيوفها منعوها . وعادت العجوز مع اعتذار رقيق . وعادت الآنسة إلى الغناء. وغنت . وعندما انحنت لتصفيق ضيوفها ، سمعت صرخة رهيبة تمزق الليل. وجمدت الدماء فى وجوههم . وبعضهم ترامى على مقعده . وتلفت الجميع حولهم . وأمسكوا المشاعل يفتشون كل غرفة فى البيت . بل إن بعضهم خرج من البيت ينظر إلى البيوت المجاورة . ولكن لا أثر لأى أحد . وكانت الساعة الحادية عشرة مساء .

وخافت الآنسة أن تبيت وحدها وطلبت إلى عدد من الموجودين أن يشاركوها بيتها لا فراشها . وناموا حولها على الأرض . وظلت هى على فراشها تتقلب حتى الصباح. وعند الصباح جاءت العجوز تقول لها : إن المحب الولهان قد توفى أمس وهو يصرخ من الألم والهوان عند الساعة الحادية عشرة مساء !

وفى الليلة التالية وفى نفس الساعة سمعت الصرخة الأليمة ، وكذلك كل من كان معها فى البيت . وظن ضيوفها إنها نكتة سخيفة من واحد من الجيران فانطلقوا إلى الشارع ولم يجدوا أحدًا وفى اليوم الثالث وقبل الساعة الحادية عشرة بدقائق توزع الحاضرون فى كل غرف البيت وأمام الباب . . وفى الشارع . . ولما حانت الحادية عشرة تعالى الصراخ يهز الجميع .

وفى اليوم الرابع جاء رجال الشرطة وكانت دهشتهم أعنف ، ولكن أحدًا لا يدرى معنى هذا الذى حدث .

وأحست الآنسة بالحزن العميق لأنها لم تذهب إلى لقاء (ميم) فى تلك الليلة .

واعتادت على الصراخ وفى احدى المرات قررت أن تتأخر فى المسرح إلى ما بعد الحادية عشرة . . وعندما وقفت على باب المسرح فى انتظار عربتها التى تجرها الخيول جاء أحد عشاقها وعندما كان يودعها ويقبلها على خدها حدث شىء غريب . فقد أحس أن سيفا من الثلج يمر خاطفًا فى هذه المسافة الصغيرة بين شفتيه وخدها . ومع السيف البارد صراخ ملتهب . . وسقط الرجل على الأرض وهربت هى إلى عربتها .

وتذكر الآنسة لاكلايرون إنها ذهبت مع فرقة (الكوميدى الفرنسية) الى قصر فرساى . وكان لابد لها أن تبقى هناك ثلاثه ايام احتفالاً بزواج ولى العهد . وكان لابد أن تشارك احدى الممثلات غرفتها . وقبل أن تنام الآنسة لاكلايرون قالت وهى تداعب زميلتها فى الغرفة : أخشى أن نسمع أى صوت فى هذا الجو الخانق !

ولم تكد تكمل هذه العبارة حتى انطلقت الصرخة تزعزع كل من فى قصر فرساى . . حتى الملك قد قفز من سريره . ولما سأل عن السبب قيل له : انه احد السكارى تحت النافذة .

وأمر الملك أن يضعوه فى السجن فورًا ! !

ولم يشأ احد ان يقول للملك حقيقة ماحدث .

وحدث شىء من التغيير . فبعد أن فقد الصوت الصارخ أثره على الآنسة لاكلايرون تحول الصوت إلى طلق نارى . ففى كل ليلة وفى نفس الموعد ، ترى الآنسة من النافذة طلقًا ناريًا مدويًا ، وهو موجه إلى نافذتها . فإذا خرج أحد من الناس ليفحص النافذة لا يجد أثرا لأى شىء . . وظلت هذه حالها ثلاثة شهور أخرى .

وقد تحرر بذلك محضر فى باريس فى أغسطس سنة ١٧٤٤ .

واعتادت على هذا الصوت . ولم تعد تفزع له . وأصبح نكتة . وكانت تداعب عشاقها فتخرج بهم إلى البلكونة قبل الموعد المعروف . وعند الحادية عشرة يدوى عيار نارى مفزع الصوت ، وتضحك هى لذلك .

وأصبحت الآنسة نجمة شهيرة . وظلت على قمة الأداء المسرحى أكثر من عشرين عامًا . وانتقلت الى بيت تملكه وفى إحدى الليالى جاءتها العجوز التى حملت لها رسالة العاشق المجنون وروت لها أنها كانت تعنى بهذا الشاب فى أيامه الأخيرة . وقالت انه كان يحبها . وكان يعلم صعوبة هذه العاطفة . ولكنه لايدرى ما الذى يفعله . إنه يحبها . هذا صحيح . وهو فى نفس الوقت يجب أن يعيش من أجل

والديه المريضين وأن يعينهما على الحياة . ولكنه لايستطيع أن يضحى بحياته من أجلهما . فمن حقه هو أيضا أن يعيش . وشاء القدر أن تكون الآنسة هى حبه الأول والأخير . وفى الليله التى تمنى أن يراها فيها حاول أن يقف على رجليه . . وأن يموت عند بابها . ولكنه لم يستطع . وسقط من فراشه . وكانت النهاية .

وسألت الآنسة : ولكن لماذا هذا الصراخ ؟

وقالت العجوز : سوف يظل هذا الصوت يطاردك بعدد سنوات تعذيبك له . . ألف يوم تمامًا !

واختفى الصوت بعد هذه المدة . . واختفت العجوز أيضًا !

وظلت « الآنسة » سيدة للمسرح الفرنسى أكثر من ٢٢ عامًا . ثم اعتزلت المسرح سنة ١٧٦٦ . وفتحت مدرسة للفنون المسرحية ، وعاشت أربع سنوات بعد الثورة الفرنسية . وماتت سنة ١٨٠٣ . ويبدو أن شيئًا غريبًا قد حدث له بعد كتابة مذكراتها . تقول فى الصفحة الأخيرة من المذكرات : « عندى شعور غريب بأننى سوف أموت قريبًا . لا أعرف سر هذا الشعور . ولكن الصوت الذى كان الناس يسمعونه معى . . هذا الصوت أصبح يهمس فى أذنى ويقول : تعالى . . ومن الغريب أننى أصبحت دون شعور منى أقول له : سوف أجىء . . ويقول لى الصوت : بعد شهر واحد وأقول له : لن أتأخر يومًا » .

وماتت بعد شهر بالضبط !

ولما رآها عريس نابليون هرب ؟!

هذه العروس أبوها روبرت والبول عضو مجلس العموم البريطانى وأخوها سير روبرت والبول رئيس وزراء بريطانيا فى ذلك الوقت . وكل ما حدث فى حياتها يعرفه كل الناس لأنها من أسرة عريقة . ولأن الذين يترددون على قصرها هم الملك والنبلاء واللوردات وكبار رجال السياسة فى بريطانيا .

وكان لابد أن تكون هناك قصة حب ، والحب فى العائلات الكبيرة مثل نار الشتاء يجلس الناس حولها ويتحدثون . وجاء الحب . فأحبت أحد النبلاء . هذا النبيل كان شابًا صغيرًا . وكان أبوها وصيًا عليه ! أنه الفيكونت تشارلز تاونسند . ولكن الأب خاف أن يقول إنه زواج مصلحة أو أنه هو الذى أثر على الشاب فتزوج «دوروثى » ابنة روبرت والبول . ولذلك اعترض الأب على الحب وعلى الزواج . فتزوج النبيل فتاة نبيلة أخرى ولكنها فى سنة ١٧١١ توفيت . أى بعد عام من الزواج .

وهذا النبيل كبر واندمج فى السياسة حتى أغرقته . وعندما تقدم للزواج من دوروثى هذه كانت فى السادسة والعشرين من عمرها . وبسرعة عرف الزوج الكثير عن حياة هذه الفتاة . إنها لم تضع وقتها فقد عرفت الكثير من الشبان ومن الرجال . وكان لها عشاق من الأزواج ومن حراس القصر . وهو الذى سمعها بأذنه تقول : رجل كل ليلة أو لا أحد !

فحبسها وراء أبواب من حديد . وحرم عليها أن تخرج من الباب أو تطل من النافذة . وجعل العيون فى كل مكان تقول له : ماذا أكلت . . ومن الذى زارها وماذا قالت وماذا قالوا . .

وكان زوجها يقول : امرأة مثل هذه تكفى لتحطيم دوْلة !

وفى سنة ١٧٢٦ توفيت هذه الزوجة . .

ويقال إنه أنقذ فى بطنها عودًا من الحديد . . ويقال فصل رأسها عن جسمها . . ويقال إنه جعلها تهبط درج القصر ثم دفعها من الخلف فنزلت بعنف وماتت . . ويقال إنه بعد أن قتلها راح يلقى بأطرافها الواحد بعد الآخر من فوق السلم . . ويقال أنها هى التى شنقت نفسها . . ويقال إنه فى اليوم السابق على وفاتها أحضرت ملابس زفافها وارتدتها ثم راحت تغنى وتقول : عروس هذا الرجل عشيقة ألف رجل آخر .

ثم شنقت نفسها !

فى ذلك الوقت كان زوجها وأخوها يقتسمان الحكم فى بريطانيا . ولذلك استطاع الاثنان أن يسدا الأفواه عن الخوض فى هذه الفضيحة . ودفنت دوروثى والبول وأعلن أخوها رئيس الوزراء أنه لا يقبل فيها العزاء !

وفى سنة ١٧٨٦ زار القصر الملك جورج الرابع (١٧٣٥ - ١٨٣٠) وكانوا يسمونه « بالرجل المهذب » . . أو « المهذب الوحيد فى أوروبا » . وكان هذا الملك نموذجًا للمجرم الذى يقتل دون أن ينفعل . ويحرق دون أن يندم . ويأكل دون أن تتحرك شفتاه . . هكذا كانوا يتحدثون عن شجاعته وأعصابه وحقارته أيضًا . وفى إحدى الليالى نهض هذا الملك من فراشه صارخًا . مستنكرًا . والتف حوله الحراس . ليقول الملك : إنه وجد سيدة تتمدد إلى جواره فى الفراش وعندما التفت إليها وجدها تقف على السرير . . أو تخرج من السرير . . رأسها وكتفاها ونهداها وخصرها

وساقاها . . إنها عروس خضراء اللون . . كل شيء فيها واضح . . إلا عينيها فهما تجويفان مظلمان . .

وجاءت المشاعل واختفت السيدة الخضراء . .

ومن الأوصاف التى رواها الملك أدرك الجميع انها « دوروثى »ابنة صاحب القصر . ولما نظر الملك الى لوحتها على الحائط قال : هى هذه تمامًا !

وهرب الملك . .

وكان حادثًا مؤلمًا أن يفزع « المهذب الأول » وأن تنتقل هذه القصة الى كل القصور . وأن يرويها الملك نفسه بتفاصيل أخرى .

وصدرت الأوامر بأن يقف الحراس فى كل مكان . . ليلاً ونهارًا . . وقد جلس الحراس يلعبون ويشربون يومين وليلتين ، وفى الليلة الثالثة رأوا الفستان الأخضر ينزل السلالم الكبرى للقصر . . ان حركتها بلا صوت . . الا أن صورتها واضحة جدًا : طويلة شعرها منكوش . . ضاحكة . . وعيناها تجويفان وفى يدها باقة من الورد . . وتتجه الى الحراس ليهربوا وتعود الى التلاشى وتختفى . .

وفى سنة ١٨٣٥ وكان الاحتفال فى القصر بيوم رأس السنة . . ورآها الجميع . وهرب الناس ولم يحتفلوا برأس السنة . وإنما أقاموا لصاحبة الفستان الأخضر حفلة من الحكايات . حتى استقرت هذه القصة بصورة واضحة مفزعة فى كل بيت . .

وقرر صاحب القصر أن يأتى بحراس آخرين . وأن يزودهم بالسلاح وأن يحرم عليهم الخمر . وجلس الحراس يتلفتون وأسلحتهم فى أيديهم . ثم ظهرت ذات الفستان الأخضر . . وامتدت الأيدى الى السلاح وانطلقت الأعيرة النارية . . ولكن ذات الفستان الأخضر ما تزال تبتسم وتتقدم نحوهم . . وهرب الحراس .

ولم يكن من السهل على اسرة الفيكونت تاونسند أن يتركوا هذا القصر الذى يملكونه منذ أكثر من مائةسنة . فهو قطعة من تاريخ الأسرة .

وأخيرًا اهتدوا إلى شخصية معروفة . قرروا أن يلجئوا الى الكابتن فريدريك ماريات (١٧٩٢ - ١٨٤٨) . وهو البحار المغامر الذى كان يحرس جزيرة سانت هيلانة حتى لايهرب نابليون الذى أسره الإنجليز وحبسوه فى هذه الجزيرة . والكابتن فريدريك يدور بمدمرة صغيرة حول هذه الجزيرة . وهو أيضًا أديب ومؤلف. وقد صدرت له أكثر من ٢٦ رواية . أهمها رواية اسمها « سفينة الأشباح » ثم أصدر كتابًا عن حياته ومغامراته . وقد نشرت ابنته فلورانس (١٨٣٨ - ١٨٩٩) قصة حياة والدها . وهذه الابنة أديبة أيضًا . فقد صدر لها ١٦ كتابًا وديوان شعر . وأهم أعمال هذه الابنة إنها هى التى روت لنا قصة والدها مع ذات الفستان الأخضر . تقول إنهم استدعوا والدها . وهو رجل شجاع وجرىء . العالم كله يعرف ذلك . وذهب الأب إلى القصر . وطلب أن يدخل قاعة ذات الفستان الأخضر وأن يقفلوا عليه الباب تمامًا. وأن يعطوه المفتاح .

وقبل ذلك طالب بتغيير كل أقفال أبواب القصر أما تفسير الكابتن ماريات لما يحدث فهو أن جماعة من المهربين يحاولون تخويف سكان هذه المنطقة ليصفو لهم الجو فى التهريب ولذلك لابد من أبعاد كل الناس ليلاً ونهارًا عن هذا القصر .

وفى أول ليلة بالقصر كان اثنان من الحراس يمشيان بالمشاعل إلى جواره . وقد حمل كل واحد منهما سلاحًا . . أما هو فقد خلع بعض ملابسه واتجه إلى الغرفة . . والغرفة فى نهاية الممر . وبينما هم فى طريقهم إلى الغرفة رأوا سيدة تحمل مصباحًا تقترب منهم . ولذلك أفسحوا لها الطريق . فلابد أن تكون هذه السيدة قد أخطأت طريقها إلى الجناح الخاص بالسيدات واتجهت إلى جناح الرجال . وشعر الكابتن بالحرج الشديد، فقد كان فى نصف ملابسه . . وتوارى الجميع فى إحدى الغرف لكى تمر السيدة . واقتربت السيدة أكثر ، وفوجئ الجميع بأنها هى ذات الفستان الأخضر. وكانت ضاحكة ،وكانت عيناها فى مكانهما خضراوين. وهاتان العينان تتحركان فى هدوء وبصورة جامدة وتتركزان على الكابتن ماريات . أما الحارسان فقد

سقطت منها المشاعل . . أما الكابتن فقد أطلق عليها النار . مرة . مرتين وثلاثًا واهتزت ذات الفستان الأخضر . كما تهتز صورة الإنسان على سطح الماء . ثم اختفت!

وهرب الشجاع الذى كان يراقب نابليون حتى لا يهرب !

ولم يعد أحد يرى ذات الفستان الأخضر . ولكن فى سنة ١٩٢٦ جاء طفلان صغيران وروى كل منهما قصة مشابهة . ولم يكن واحد منهما قد سمع بقصة ذات الفستان الأخضر . أما القصة فهى أن الطفلين كانا يلعبان . وفجأة اقتربت منهما سيدة ترتدى فستانًا أخضر . فستان زفاف . وانحنت هذه السيدة على الطفل . وعندما وضعت يدها على رأسه لم يشعر بيدها . ولما اندهش الطفل راحت تضحك بلا صوت . ومشت بلا صوت ثم اختفت !

وقررت الأسرة شيئًا آخر . .

وفى يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٩٣٦ أتوا بعدد من المصورين لكى يلتقطوا صورًا للسيدة ذات الفستان الأخضر ونصبت الكاميرات فى كل مكان . . وفى الليل ظهرت ذات الفستان الأخضر . وبرقت مصابيح الكاميرات . عشرات الصور . وفى الصباح تم تحميض الأفلام ورأى الناس لأول مرة صورة واضحة تمامًا لسيدة فى فستان الزفاف . وأغرب من ذلك أن وراءها عددًا من الفتيات يحملن طرف الثوب . . هؤلاء الفتيات لم تستطع العين المجردة أن تراهن !

كما أن احدى العدسات قد التقطت صورًا لفتاة أخرى . . هذه الفتاة لاتشبه سيدة القصر دوروثى ابنة والبول وزوجة النبيل تاونسند . ومعنى ذلك أن هذه السلالم أيضا ليست مخصصة لصاحبة الفستان الأخضر . . وانما جاءت أرواح أخرى تنتهز هذه الفرصة وتعلن وجودها أيضًا .

وظهرت هذه الصور فى مجلة « حياة الريف » بتاريخ ١٦ ديسمبر سنة ١٩٣٦ .

لقد بقيت صاحبة الفستان الأخضر تمشى فى نفس الطريق وترتدى نفس الفستان وتحتفظ بنفس النظرة والابتسامة أكثر من ٢٥٠ عامًا !

وفى ٢٣ ابريل سنة ١٩٤٦ ذهب احد مصورى السينما ومعه كاميرات شديدة الحساسية وقرر أن يلتقط صورة لذات الفستان الأخضر . ووضع الكاميرات عند السلم وفتح أضواءها ووقف هو ورجاله بلا صوت ولاتدخين طول الليل . . وفجأة أحسوا باهتزاز فى المكان . . وإذا بذات الفستان الأخضر تظهر بنية اللون . . وتنزل السلالم . . وتدور الكاميرات وكأنها تريد أن تعطى للجميع فرصة تصويرها بوضوح . . وتم التصوير وتم التحميض . وعرض هذا الفيلم الصغير فى قاعة سينما « الشاطئ » فى مدينة هوليوود وشاهده اكثر من مائة من علماء الروح . . ولم يعد لدى واحد منهم شك فى أن الذى يراه ويتحرك فى هدوء وبلا صوت شىء حقيقى . . وعندما قرروا عرض الفيلم مرة أخرى على بعض خبراء التصوير السينمائى وبعض علماء النفس . . وأظلمت القاعة . . وأضاءت الشاشة . كانت الشاشة بيضاء دقيقة وراء دقيقة .

ولسبب لا أحد يعرفه ، مسح الفيلم تماما. واختفت ذات الفستان الأخضر من الفيلم ومن القصر !

أقسى احتفال بعام جديد !

لأنه ممثل عظيم ، فهو كاذب عظيم . ولذلك فهو محروم من متعة أن يقول الصدق ، والناس هم السعداء إذا كذب وإذا صدق لأنه قادر على التعبير الجميل . وهذا هو الذى يهم .

ولكن هذه القصة ، لأنها صادقة ، فهى مثيرة فقط . ولأنه كان يؤكد أن الذى رآه صحيح تمامًا ، كان لها طعم الواقع الذى لم يلمسه فنان . بل إن الفنان يقسم بكل مقدس أنه لم يضف إليه شيئًا من عنده لا من تجاربه ولا من ثقافته . فما هو المطلوب من الناس إذن ؟ فقط أن يصدقوه . . .

إنه الممثل الإنجليزى الكبير تشارلز كين (١٨١٢ ـ ١٨٦٨) ابن الممثل الإنجليزى الأكبر أدموند كين (١٧٨٧ ـ ١٨٣٣) . كلاهما من علامات المسرح ودليل على عظمته وأثره العميق فى حياة الناس . وتشارلز كين قد تزوج من الممثلة ألان ترى (١٨٠٨ ـ ١٨٨٠) ويكفى أن يجلس الواحد منهما فى أى بيت أو أى قصر لتتحول الحياة العامة والخاصة إلى حيث يجلس كين هذا . فإذا كان هو الضيف فهو

وحده الذى يقول . وهو وحده الذى يطلب إلى الناس أن يملئوا الفراغ الذى يتركه عندما يبتلع ريقه أو ينفث سيجارته . فهو الأصل والكل فروع وأوراق .

فى تلك الليلة طلب تشارلز كين ألا يقاطعه أحد . وكان عصبيًا . ولم تكن عادته . وأشارت الزوجة إلى الحاضرين أن يتركوه يشرب : فهو هذه المرة جاد ـ أى أنه فى كل مرة (يمثل) فقط . وكان تشارلز يتضايق فى كل مرة تقوم زوجته بتنبيه الحاضرين إلى أنه لا يمثل وإنما هو يتحدث من الواقع . . أى من تأليفه وليس من أدائه . وكان الزوج يضيف قائلاً : كأنه من المفروض ألا تكون للإنسان حياة خاصة . أن يكون حاملاً لملابس غيره ومرددًا لصوت أناس آخرين !

روى تشارلز كين أنه كان فى زيارة أخت زوجته مسز شابهان . وزوجها أيضًا يعمل مديرًا لاحدى الفرق المسرحية وكانت هذه السيدة تقيم هى وأولادها الأحد عشر فى بيت قديم فى الريف . البيت من سبع عشرة غرفة . وعندها ثمانية من الخدم وثلاث مربيات للأطفال . وكان من عادة الزوج أن يسافر إلى لندن مرة كل أسبوع . ويعود أحيانًا بعد أسبوعين أو ثلاثة . ولكن يجب أن يكون هناك ضيوف . وأن يحتفى الزوج بالضيوف فى جميع الأحوال . فهو رجل كريم وزوجته تختلف عنه قليلاً : إنها أكثر كرمًا . ولذلك ففى البيت الكبير توجد حجرات مخصصة للضيوف . صحيح أن البيت ليس من البيوت التى راعى المهندسون فى بنائها توزيع الضوء والهواء والماء ، ولكن البيت يطل على حديقة كبيرة . وفى هذه الحديقة تماثيل إذا سقط الماء عليها أحدثت أصواتًا غريبة . . بعض الناس يقولون إنها تشبه أصوات الطيور إذا ذبحتها عن طريق الخنق . أو أصوات الأطفال إذا كانوا يبكون وهم يحلمون . .

وفى البيت سلالم قديمة . وأعمدة خشبية لها صوت معروف فى الليالى الدافئة . وأسماء أصحاب هذا البيت منقوشة بالحروف الأولى على الجدران وعلى الأبواب . . إنهم كثيرون فالبيت عمره أكثر من مائتى سنة .

يقول الممثل الكبير تشارلز كين إنه ذهب وزوجته لزيارة إلى شابهان ونزل فى الغرفة المعروفة باسم (غرفة البلوط) ـ لأن أخشابها من البلوط . الغرفة نظيفة جدًا . طبعًا ـ

وواسعة جدًا . طبعًا . والسرير مريح ويتسع لأكثر من ستة إذا ناموا متجاورين . . ولاثنين إذا نامًا متشاجرين . وليس من الصعب أن تحصل على أى شىء . . يكفى أن تدق الجرس ليجىء التبغ والنبيذ وشمعة أكبر . .

وكان من عادة تشارلز كين أن يأوى إلى فراشة وأن يكمل الشراب فى السرير . ولكن فى هذه الليلة أحس بمغص شديد . ولذلك لم يشأ أن يذوق شيئًا من الشراب . حتى القراءة وجد نفسه عاجزًا عن الاستمرار فيها . كل ما يريده هو أن يتمدد فى هدوء . أو يتمدد ليكون فى حالة من الهدوء . وكانت زوجته ما تزال تشرب مع السيدات الأخريات فى مكان ما من القصر . وفجأة وجد فتاة تطل من النافذة المقفلة . الفتاة ترتدى فستانًا أبيض فضيًا . فى العشرين من عمرها واندهش كيف إنه لم يشعر بها عندما دخلت . ثم إنه لم يرها أثناء العشاء من هى ؟ أندهش . خاف . نهض من الفراش واتجه إليها . . ولكن عندما أمسك الشمعة فى يده واقترب منها ليراها أوضح اختفت . ويقسم تشارلز كين أن الذى رآه صحيح . وإنه فى تلك الليلة لم يذكر لزوجته شيئا من ذلك . . ولم يلاحظ أحد مدى انزعاجه فى اليوم التالى . وكان من الذوق أن يشكر صاحبة البيت على الضيافة والكرم والحفاوة والنوم العميق .

وفى اليوم التالى قرر أن يأوى إلى فراشه مبكرا دون أن يشرب . وأخذ معه أحد الكتب . وأقفل الباب بعناية ثم راح ينظر إلى النافذة المقفلة . وفجأة رأى الفتاة ذات الثوب الفضى وسارع إليها . وكانت يده أسبق منه ولكن الفتاة كانت أسرع فى الاختفاء .

واستبد به الخوف لدرجة أنه كان يصرخ ويبكى ويشد شعره . ثم ألقى بنفسه على السرير ، وكأنه سقط على المسرح فى مسرحية فاجعة . وجاءت الزوجة بالصدفة لتعرف أن الزوج يشكو من مغص شديد . وقدمت إليه بعض الخمر . فشرب وشرب ونام . وصحا فى حالة جيدة . ولم يقل حرفا مما رأى . وشكر صاحبة البيت على حسن الضيافة . وعاد إلى لندن !

وبعد أسبوع من فرار تشارلز كين بعيدا عن القصر العتيق فوجئ بصاحبة البيت فى لندن وسألها . واعتذرت له السيدة بأنها مريضة . وأنها ترى ضرورة أن تعرض نفسها على طبيب خصوصا أن الروماتيزم قد عاودها من جديد . بل انها تفكر فى أن تنتقل إلى بيت آخر ، خصوصا أن واحدا من اطفالها قد سقط من السلم . وان أصغر أطفالها قد كسرت ساقه تحت ضغط أحد أبواب البلوط العتيقة . ان لديها أسبابا معقولة لأن تترك البيت العتيق . وأدرك تشارلز كين أن الأمر ليس كذلك . فاقترب منها ليقول لها بحركة مسرحية : أليس السبب هو صاحبة الفستان الفضى التى تدخل غرفة النوم دون أن يدرى بها أحد . لقد رأيتها بعينى وحتى لا أقابل كرمك ورقتك بهذا الشىء المفزع ، فاننى قد أطبقت شفتى على مرارة .

ولم تكن السيدة تعرف شيئًا من هذا كله . فقد ظنت أول الأمر أن هناك فتاة تدخل غرفة النوم . وأن هذه الفتاة هى واحدة من الخادمات . أو أن فتاة تدخل لغرفة زوجها من النافذة . . لم تستطع من هول الصدمة أن تدرك حقيقة ما قاله تشارلز كين . وندم على أنه لم يكن واضحًا . وندم أكثر عندما قيل له أنه لا يستطيع أن يكون مؤلفًا ، وإنما يجب أن يبحث له عن مؤلف ليروى هذه القصص الغريبة . . ولكن السيدة جاءت لتنام فى نفس السرير ومعها خادمتان . وفى الليل رأين الفتاة ذات الثوب الفضى !

وفجأة اعترفت كل الخادمات بقصص أعجب من ذلك . . بل إن هناك خطوات تمشى وراء كل خادمة . . فاذا تلفتت الواحدة وراءها لم تجد أحدًا . وأن هذه الخطوات سريعة مهددة !

وروت كبيرة الخادمات أنها ترى عصفورًا يثب أمامها . وأن هذا العصفور لا يزال يكبر ويكبر حتى يصبح فى حجم الحصان ثم يكون حصانًا ويقفز عليها . ويختفى !

وعندما رجع السيد شابهان إلى البيت فى إجازته السنوية لم يجد إلا الصمت الرهيب . ولكنه لم يلحظ على أحد شيئًا . فليس من عادته أن يطالع الوجوه . فهو من هذا الطراز من الناس الذى لا تقع عينه إلا على الأشياء التى يأكلها أو يشربها أو

يدوسها أو يرتديها . وقد أساء الناس الظن به . فقالوا : إنه متعجرف . وقالوا : لا يحب الناس . وقالوا : إنه لا يريد أن يشجع أحدًا على الاقتراب منه . . وقالوا : إنه مشغول بما فى رأسه عن الذى أمام عينيه .

ولم يقل له أحد شيئًا . ولكن الزوجة قالت : إنها لابد أن تترك البيت .

ونظر إلى الجدران والنوافذ والأخشاب والسلالم والمدفأة وقال : كيف تتركين كل هذا الجمال وهذه الأشجار وهذه المنطقة الفاتنة . . كيف ؟ وبهذه السرعة تغيرين رأيك كما تغيرين فساتينك . إننى لا أفهمك وأريد أن أفهمك هذه المرة !

وأصرت الزوجة على أنه لن يفهم ووعدها بأن يحاول . وحاول أن يفهم وفهم . ولكنه لم يقتنع . وأقفل على نفسه باب الغرفة . وتمدد فى فراشة بالقرب من النافذة . وفجأة سمع دقات على الباب ونهض والمسدس فى يده . وفتح الباب ولم يجد أحدًا . وأقفل الباب وراءه ونظر إلى النافذة فوجد ذات الثوب الفضى تطل من النافذة المغلقة . واقترب منها ومشت أمامه وتضاءلت حتى أختفت !

وفى آخر أيام الممثل الكبير تشارلز كين تذكر بعض التفاصيل فى هذه القصة . ففى احدى الليالى كان قد أخذ زجاجة الخمر معه . وقد أقفل الباب تمامًا . وشرب كأسين . وترك الزجاجة حتى الصباح . فوجدها فى الصباح قد امتلأت . ولم يندهش . وفى احدى المرات أفرغ الزجاجة تمامًا وتركها إلى جوار سريره وصحا من النوم فوجدها قد امتلأت فانزعج وفى احدى المرات حطم الزجاجة وكتب إلى جوارها ورقة بخط يده يقول فيها حطمت الزجاجة بكامل عقلى لا أعرف ماذا يجرى هنا . وفى الصباح وجد الزجاجة سليمة وإلى جوارها الورقة بخط يده تقول : لم أحطم الزجاجة بكامل عقلى ، فلا داعى لأن أعرف ماذا يجرى هنا !

وفى أحد الأيام عاد تشارلز كين فوجد باقات من الزهور فى البيت . وكان هذا مألوفًا فى بيته . فقد تلقى أبوه باقات من الزهور وهو أيضًا وزوجته . ولكن هذا الورد من نوع خاص . ولما رآه قال لزوجته : آسف يا حبيبتى لم أتذكر مطلقًا هذا الورد وأشكرك على أنك أتيت به بالنيابة عنى !

ولكن الزوجة قالت له : بل تصورت أنك أنت الذى أحضرت الورود . وأسعدنى ذلك !

وذهب الاثنان إلى محل بيع الورود فقال لهما : إن فتاة ترتدى فستانًا أبيض به خيوط من الفضة هى التى كلفته بارسال الورود . وإنها دفعت الثمن !

وكان لابد أن يروى لزوجته قصة صاحبة الفستان الفضى !

وانتقلت أسرة شابمان إلى بيت آخر . .

وفى احدى الليالى أعلن الممثل الكبير كين أن لديه مفاجأة . وفزع الحاضرون وكانت المفاجأة رجلاً كبيرًا فى السن يعرف تاريخ القصر العتيق . فروى لهم ـ سبعة وعشرين مدعوًا فى رأس سنة ١٨٦٤ ـ أن هذا البيت كان لأسرة غنية . وكانت للأسرة ابنة وحيدة . وكان لهذه الأسرة ابن مجنون كان يريد أن يقتل أخته هذه . ولم تجد الأم وسيلة لحماية هذه الفتاة إلا أن تقفل عليها هذه الغرفة ـ غرفة البلوط . وجاء الأخ وأمسك بكلاب الأخت . وأطلق عليها ـ الكلاب ـ الرصاص . وقتلها تحت النافذة. والأخت تنظر وتصرخ . ومنذ ذلك اليوم والفتاة تظهر لكل سكان هذا البيت ومن هذه الغرفة بالذات . ولذلك فقد هرب من البيت عشرات العائلات دون أن يفضى أحد بشىء . ونظر الحاضرون إلى الرجل الريفى وهو يروى قصته بصدق ويمسح الأرض بعينيه . وعندما حاول بعض الحاضرين أن يقترب من الريفى المجهول أختفى هو أيضًا .

وفزع الحاضرون ، وكانت أسوأ رأس سنة تحدثت عنها لندن عشرات السنين !

وانحنى على ملابس الملك .. يقبّلها ثم اختفى !

مضت ساعة وما زال الملك جورج الثانى (١٦٨٣ - ١٧٦٠) يتحدث إلى رجاله . وكان من عادته أن يتحرك فى القاعة ذهابًا وإيابًا ، دون توقف . وأن يأمر رجاله بأن يظلوا فى أماكنهم جالسين . ويقال إن نابليون قد أخذ عنه هذه العادة غير المريحة . ولم يحدث إلا نادرًا أن دخل كبير الياوران ليعلن شيئًا غير عادى . فالملك لا يحب أن يقاطعه أحد لأى سبب . .

ولكن هذه المرة حدث شىء عاجل . . فدخل كبير الياوران واستأذن الملك فى أن يسلم رسالة هامة إلى واحد من رجاله . وأشار الملك بشىء من عدم الاهتمام أن يفعل ذلك بسرعة ، وتقدم كبير الياوران إلى السيد هاريس وأعطاه رسالة . واستأذن السيد هاريس فى أن يفتح الرسالة خارج القاعة ، ولكن الملك أشار بأن يفتحها أمامه ، وفتحها ، وفهم الملك من تغير الألوان على وجه السيد هاريس أن الأمر خطير . وأشار إليه بأن يخرج . . فاستأذنه بأن يغيب ثلاثة أسابيع أو أربعة ، ووافق الملك ، وخرج السيد هاريس عائدًا إلى بيته . .

وكان من عادة السيد هاريس أن يترك بعض الخدم فى قصره الريفى . أما الأسرة وبقية الخدم فهم ينتقلون معه إلى مدينة لندن . ولكن يبدو أنه من الضرورى أن يعود فورًا إلى قصره الريفى . فالأمر خطير . .

فالرسالة التى تلقاها تقول : « احضر بسرعة يا سيدى الأشياء الذهبية التى تركها الغالى العزيز والدكم قد سرقت والأشياء الفضية التى تركها الغالى العزيز علينا جميعًا جدكم الكبير قد سرقت أيضًا . ونحن نأسف لما حدث . . ولكن حضوركم سوف يكون شمسًا تشرق على الحقيقة ونعرف الجانى الأثيم » .

وسأله الملك جورج : سوف تعود إلى الريف .

وأجاب : نعم يا مولاى إذا أذنتم . .

ـ ليست مغامرة ؟

ـ عفوا يا مولاى . .

ـ ولا هى حيلة لكى تبعد عن الزوجة بضعة أسابيع ؟

ـ أمرك يا مولاى !

ـ إذن سأبعث معك بواحد من رجالى ليعاونك ؟

ـ هذا كرم من مولاى !

ـ كم أسبوعًا تكفيك لكى تستعيد كل ما راح منك .

ـ بضعة أسابيع يا مولاى .

ـ أظن أربعة أسابيع تكفى ؟

ـ بل أكثر من الكفاية يا مولاى !

وشكر الملك وخرج . وكانت هذه الرسالة بخط المشرف على قصره الريفى .

وذهب السيد هاريس إلى القصر . وهناك التقى بالمشرف على القصر . . وكانت حالته النفسية أليمه . وكان التأثر واضحًا عليه . ولم يكد يرى سيده ، حتى قال له : أن هذا عار قد لحقه بصفة شخصية . لأنه يغلق الأبواب والنوافذ كل ليلة ، وباحكام شديد . . ولا يدرى كيف حدث كل ذلك وفى وقت قصير . .

وكان فى القصر الريفى طاه وثلاثة من الخدم . وخادمتان . .

وسأله السيد هاريس : كيف حدث ذلك !

وقال المشرف على البيت أنه فى احدى الليالى عندما أوى إلى فراشه ، وكان الجو

باردًا عاصفًا ، استمع إلى أصوات فى الغرفة التى تحته . واندهش كيف تصدر هذه الأصوات . أن احدًا لا يمكن أن يكون قدْ صحا من نومه ، فهو على يقين من أن الجميع قد ناموا . ولكن هذه الأصوات جعلته يشك فى الأمر . . فارتدى ملابسه ، وهبط الدرج واقترب من الغرفة ، واستمع إلى أصوات هامسة . . إنه لم يتبين الأصوات بوضوح . ولكن الشىء الواضح تمامًا هو صوت الآنية الفضية وهى تخرج من الصناديق ، وتدخل فى صناديق أخرى . . وحاول أن يقترب من الباب أكثر لعله يسمع صوت الخدم الذين أفلحوا فى التسلل فى الليل إلى هذه الغرفة .

وقال له السيد : ولماذا لم توقظ الخادمتين ، وتذهب أنت إلى رجال الشرطة !؟

وقال المشرف : خطرت لى هذه الفكرة لولا أننى خشيت أن يخرج اللصوص ويعتدوا على الفتاتين ويهربوا !

قال السيد : إذن لماذا لم توقظ الخدم والطاهى ليعاونوك فى القبض على اللصوص؟

قال المشرف : بل كنت أظن أن الخدم والطاهى هم الذين تسللوا إلى دواليب الآنية الفضية والذهبية . .

واستأنف المشرف قصته فقال : إنه اقترب من الباب ، وكان الهمس ما يزال مستمرًا ، وكان المشرف قد أمسك سيفه فى يده . واندفع يفتح الباب بقوة . .

وسأله السيد : ومن وجدت ؟

قال : الشاب النحيف واثنين آخرين .

وسأله السيد : ومن هو هذا الشاب النحيف ؟

فأجاب : إنه شاب استأجرناه فى الأيام الأخيرة . وهو من أسرة فقيرة . . ولكن أباه رجل طيب . وقد أحسن تربيته . .

ولم يكد يفتح الغرفة حتى هجموا عليه ، وأوثقوه إلى المقاعد وسدوا فمه وهربوا . .

واتجه السيد إلى بقية الخدم يسألهم ماذا حدث . . فأجاب واحد : بأنه من

الضرورى أن يقدم استقالته ـ وكذلك سوف يفعل زملاؤه . . لأنهم يعملون فى خدمة السيد منذ عشر سنوات ولم توجه إليهم هذه التهمة الشنيعة . .

واعتذر لهم السيد عما حدث . وأن التهمة غير مقصودة .

وأن المشرف على البيت كان فى حيرة . . ولم يعرف بالضبط ما الذى يفعله ، ثم إنه رجل كبير . . وهو فى مقام الوالد للجميع .

وقال الخدم إنهم اعتادوا أن يصحوا فى السادسة صباحًا . وأن يعدوا طعاما لإفطار فى السابعة إلا ربعًا. وأن ينزل المشرف لتناول الأفطار فى السابعة إلا خمس دقائق . ولكنه فى ذلك اليوم لم يحضر فى موعده ، وأخذ الجميع يتندرون بذلك . ويقولون لابد أن الغطاء كان ثقيلاً . أو أن الشراب كان غزيرًا ، أو أن المشرف مريض . . أو أن شيئًا غير عادى قد حدث له . .

وتشاوروا فيما بينهم . . أيهم يذهب لايقاظه . .

واقترح الخدم أن تذهب احدى الخادمتين وتدق بابه وتسأله كم الساعة الآن . .

وذهبت الخادمة . ودقت الباب مرة . . مرتين . . ثلاثًا . . ولكن المشرف لم يرد . . فعادت بسرعة تروى لهم ذلك . . واقتربوا جميعًا من الباب وفتحوه بشدة . . ولم يجدوا المشرف . وإن كانوا قد وجدوا مكانه خاليًا على السرير ، ومن المؤكد أنه كان هناك ولسبب ما ، لم يعثروا عليه . واتجهوا إلى غرفة الشاب النحيف هنرى . . ولم يجدوا الشاب فى فراشه . واستنتجوا أن الاثنين قد خرجا إلى النزهة فى ساعة مبكرة . أو إنهما ذهبا إلى حظيرة الأبقار . . وأسرعوا إلى الحظيرة فلم يجدوا أحدًا . . وفكروا فى أن يذهبوا إلى غرفة الأدوات الفضية وهناك وجدوا المشرف مشدودًا بالحبال إلى المقعد . ووجدوهم قد وضعوا القماش فى فمه حتى لا يصرخ وفكوا الحبال . . وانزلوا المشرف من المقعد . وراحوا يدلكون جسمه . ولكن الشاب هنرى قد اختفى تمامًا .

وأصر الخدم على أن يقدموا استقالتهم بعد هذه الاهانة البليغة ، وحاول السيد أن يسترضيهم ، وأفلح فى تهدئتهم . . وأضاف إلى مرتب كل منهم جنيهين . . ووافقوا على مضض . . واستدعى السيد رجال الشرطة وعاينوا كل شىء . وأحصوا

المسروقات فكانت كثيرة . من بينها شمعدانات من الذهب الخالص أهديت إلى أسرة هاريس من الملوك والأمراء . ومن بينها هدايا من كبير الأساقفة وكذلك لوحات فنية قيمة . .

ومضت شهور ولكن الشرطة لم تهتد إلى شىء . . ولم يكن من الصعب على السيد هاريس أن يعرف أنه لا أمل فى شىء . وأن الذى راح قد راح إلى غير عودة . كما أن الشرطة لم تفلح فى العثور على الشاب هنرى . ولم يصدق أحد هذه الدهشة والحزن الحقيقى والعار الذى أحس به أبوه . فلم يتصور أن ابنه يستطيع أن يسرق . أو يشترك مع آخرين فى السرقة . .

ومضت سنة . .

وفى احدى جلسات الملك جورج الثانى ـ ابريل سنة ١٧٣٠ قال الملك للسيد هاريس : عندى شعور غريب بأنك سوف تعثر على مفقوداتك !

وعاد الملك يقول : لم تسألنى كيف عرفت أنا ذلك !

وروى الملك جورج الثانى أنه رأى فى نومه أن طائرًا كبيرًا قد هبط على الأرض ومعه شمعدان ذهبى . وعندما ألقى بالشمعدان فوق القصر الريفى للسيد هاريس انكسر الشمعدان . . وحاول كل أفراد الأسرة والحاشية أن يعثروا على الشمعدان فلم يجدوه . .

وقال الملك : إنها مرات قليلة التى حلمت فيها بأشياء ثم تحققت !

وسافر السيد هاريس فى إجازته السنوية إلى قصره الريفى . . ومعه كل الخدم والأسرة . .

وطلب السيد هاريس إلى المشرف على القصر أن يعرض عليه كيف يحرس القصر وكيف يغلق أبوابه ونوافذه . . . وفوجئ السيد هاريس بأن المشرف يغلق كل شىء من الداخل والخارج . . الأبواب والنوافذ حتى أبواب الغرف الداخلية . . ويفعل ذلك بنفسه . ولا يستطيع أحد أن يتحرك فى أية غرفة غير غرفته ، فاذا حاول فأنه لا

يستطيع . . فكل الغرف قد أقفلت ومفاتيحها فى جيب المشرف . . وهو الذى يفتح أبواب هذه القلعة كل يوم .

ولما ذهب السيد هاريس إلى زوجته قال لها : ما هذا الذى يفعله المشرف على قصرنا ؟

وقالت الزوجة : وما الذى يفعله ؟

قال الزوج : إنه يقفل الأبواب . . ولم يبق إلا أن يقفل أفواهنا أيضًا !

وضحكت الزوجة وهى تقول : ولكنه يا عزيزى يفعل ذلك منذ ثلاثين عامًا !

قال الزوج : لم أكن أعرف ذلك !

قالت الزوجة : وما الذى تعرفه أنت فى هذا البيت ؟

وعاد السيد هاريس إلى فراشه . . وهو يفكر فى هذا القصر الذى أغلقت أبوابه ونوافذه من ثلاثين عامًا ، ومع ذلك استطاع اللصوص أن يتسللوا إليه .

وفى اللحظة التى امتدت يده لكى تطفئ الشمعة . . رأى شابًا نحيفًا قد دخل غرفته دون أن يسمع صوت الباب وهو ينفتح ، وارتعد السيد هاريس . ولكن الشاب النحيف ظل واقفًا فى مكانه . . فسأله هاريس وهو فى حالة فزع شديد :

ماذا تريد ؟كيف دخلت ؟

وأشار الشاب إلى فمه ، بما يدل على إنه لا يستطيع الكلام . وأشار إلى السيد هاريس أن يتبعه فقط . ونزل السيد هاريس من سريره . وبسرعة سحب سيفًا . وفتح الشاب باب الغرفة الذى كان مغلقًا بالمفتاح . وخرج وسار وراءه السيد هاريس . ولاحظ رغم خوفه الشديد ، أن هذا الشاب الذى يمشى أمامه فى هدوء ، ليس له صوت . كأنه لا يمشى على الأرض ، أو كأنه شبح أو روح . لكن بعد لحظات شعر السيد هاريس بالهدوء الشديد . خرج الشاب من القصر . واتجه إلى حديقة القصر . وسار وراءه السيد هاريس . . ثم اتجه الشاب إلى شجرة بلوط ضخمة فى الحديقة ، وأشار إليها بيده . وتقدم السيد هاريس إلى شجرة البلوط . . ونظر إلى الأرض ، ولما حاول أن يستوضح الشاب ، كان قد اختفى !

وعاد السيد هاريس إلى القصر وأيقظ الخدم . وطلب إليهم ألا يحدثوا أية ضوضاء حتى لا تصحو زوجته وأولاده .

واتجهوا إلى شجرة البلوط . . وطلب إليهم أن يحفروا الأرض . وحفروا الأرض . وعثروا على جاكتة . . ثم على جثة . .

وصرخ الخدم : إنه الشاب النحيف هنرى !

وفى مايو سنة ١٧٣٢ اعترف المشرف على القصر بالحقيقة فقد اتفق مع اثنين من اللصوص على سرقة الأدوات الفضية والذهبية . وعلى بيعها . وعلى أن يبعثوا بنصيبه مع الشاب النحيف هنرى ، ويبدو أن اللصوص قد تشاجروا فيما بينهم . وخافوا أن يفضحهم هذا الشاب النحيف فقتلوه ودفنوه . وأصدرت محكمة لندن حكمها على المشرف على القصر بالاعدام شنقًا . وأعدم . . إذن لقد ظهر هذا الشاب النحيف لينتقم . .

وبعد اعدام المشرف على القصر لم يعد أحد يرى هذا الشاب النحيف . . وان كان الملك جورج الثانى قد استدعى السيد هاريس بعد اعدام المشرف على القصر بأسبوع واحد . وكان الاستدعاء فى ساعة مبكرة من الصباح . ولما وصل السيد هاريس إلى قصر الملك جورج الثانى وجد التعليمات بضرورة أن يدخل إليه فى غرفة نومه . ودخل على الملك فى غرفة النوم . ولم يكد الملك يراه حتى قال له : هل تعرف شابًا فى الثالثة والعشرين من عمره . . طويلاً نحيفًا . . عينه اليمنى أصغر قليلاً من عينه اليسرى . . وإذا سار وضع احدى يديه على معدته . . كأنه يشكو مغصًا . وإذا مشى انحنى قليلاً للأمام .

وقال السيد هاريس : رأيته يا مولاى . . وهو الذى قتلوه فى بيتى عندما تشاجر اللصوص !

وهنا اعتدل الملك فى جلسته ، وقال :

الآن أستطيع أن أنام . .

وبعد ذلك بأيام روى الملك جورج الثانى لرجاله ما حدث له فى تلك الليلة . فقد صحا من نومه على صوت الباب الذى انفتح . وعندما أطل برأسه من تحت الغطاء رأى هذا الشاب . ولما سأله لم ينطق بكلمة واحدة ، ولكنه اقترب . ولما رأى الملك هدوءه ورقته لم يشأ أن يصرخ فى وجهه أو يستدعى الحراس فى الليل . وكل ما حدث أن الشاب قد اقترب من غطاء الملك وانحنى عليه يقبله فى امتنان . .

إنه نفس الشاب هنرى الذى جاء يشكر الملك على اعدام المشرف على القصر ، واختفى ولم يعد أحد يراه أو يسمع عن أحد رآه بعد ذلك !

لوحة بريشة فنان وقلم أديب !؟

هذه القصة كتبت احدى عشرة مرة فى عشرين عامًا ، ولكن لم تصبح عملاً أدبيًا باقيًا إلا عندما رواها الأديب العظيم تشارلز دكنز (١٨١٢ ـ ١٨٧٠)، وقد سمع حوادثها من جميع الذين شاركوا فيها . وبعد ذلك نشرها فى مجلة اسمها « على مدار السنة » . ولكى أكون قريبًا من شكلها ومضمونها الأدبى انقلها كما كتبها الأديب الإنجليزى الكبير :

أنا فنان أسكن فى غرفتين . احدى الغرفتين هى التى أعمل فيها . أو أتوهم أننى أفعل ذلك لأن الغرفتين متداخلتان فلا أعرف أين أعمل ولا أين أنام . وهذا يسبب لى مشاكل خاصة عند النوم أو عندما يزورنى أحد من الناس .

وفى احدى ليالى الشتاء زارنى بعض الأصدقاء وراحوا يتفرجون على لوحاتى وكنت مضطرًا أن أرتدى ملابسى كاملة . وجاءت الموديل التى أرسمها . وهى فتاة فى العشرين جميلة . كل شىء فيها جميل إلا حنجرتها فهى تصدر أصواتًا غير مناسبة . وعندما جاءت فى ذلك اليوم ، طلبت إليها أن تجىء غدًا . وقبل أن تخلع ملابسها أشارت إلى أنها فى حاجة إلى المال . وأعطيتها وخرجت . وسألنى ضيفى : كيف لا تقبل وجها جميلا مثل هذا ؟ فقلت له : إن من يراها كل يوم ليس فى حاجة إلى أن يفعل شيئًا من ذلك !

واعترف أننى كنت غير مهذب عندما قلت ذلك . ولكن من هو الفنان الذى لا يتلوث لسانه وجسمه وملابسه . لا أحد طبعًا . وخرج الضيف . وفوجئت برجل وزوجته . قدم لى نفسه : أنا السيد كيرك وهذه زوجتى . . وقبل أن أعرب لهما عن دهشتى قال السيد كيرك : سمعت عنك . وعرفت من الفتاة التى قابلتها فى الشارع عنوانك وأنا فى حاجة إليك .

وعرفت منهما أن عددًا من أفراد أسرتهما فى حاجة إلى أن أرسمه . وعرضت عليهما نماذج من اللوحات والأساليب المختلفة ليختارا أحب الأساليب لهما . وترك لى السيد كيرك بطاقته . وبعد أن أختفى بدقائق اكتشفت أن البطاقة ليس عليها سوى اسمه أما العنوان فقد نسى أن يكتبه . ولكن ليس من الصعب عليه أن يدرك ذلك فيما بعد وأن يبعث لى بعنوانه .

وسافرت إلى شمال بريطانيا لأستريح بعض الوقت . واخترت مدينة صغيرة هى نفس المدينة التى يعيش فيها السيد كيرك وزوجته . وركبت القطار . ووجدت مقعدًا خاليًا . وأقتربت من النافذة . وجاءت سيدة بملابس سوداء . . وحاولت أن أجلسها فى المكان الخالى ولكنها فضلت المكان المواجه لى . وقالت إنها فى حاجة إلى أن يهب الهواء على وجهها . ثم سحبت البالطو إلى الوراء ووضعته على كتفيها وسحبت فستانها على ركبتيها . وليتها لم تفعل . ويبدو أن تجاوبًا غريبًا بينى وبين يديها قد حدث . فأنسحبت يدها عن الفستان . وتراجعت إلى الوراء . . فانسحب الفستان وارتفع نهداها . ويبدو أنها تشعر بذلك كله . ثم أسقطت البالطو . وواجهتنى وعلى وجهها هدوء عميق . وفى عينيها مودة . وتحدثنا كأننا أصدقاء قدماء . وكانت تحدثنى فى موضوعات فنية كأنها تعرفنى . أو كأننى أعرفها .

وبسرعة غريبة توقف القطار عند المدينة التى أريدها . ومدت يدها تسلم . وقلت لها : أرجو أن أراك . فقالت : سوف ترانى .

وسألت عن أسرة كيرك . وعرفت البيت . وجاء السيد كيرك وزوجته . ورحبا

بى . ثم جاءت الخادمة . وأشارت إلى غرفتى . ووضعت حقائبى وبدلت ملابسى . وذهبت إلى الصالون . وهناك وجدت سيدة القطار ذات الفستان الأسود . وكانت مفاجأة . ولكن يبدو إنها لم تفاجأ بوجودى . ثم قالت : ألم أقل لك سوف ترانى !

وقلت لها : لو كنت أعرف أننا ذاهبان إلى نفس البيت لرافقتك . فقالت ضاحكة : ان طريقى صعب .

ولم أفهم . ثم وجدتها تقف أمام المدفأة .

وجاءت الخادمة . وأعلنت أن السيد كيرك سوف يصل حالاً . وتقدمت سيدة القطار وقدمت لى كتابًا . وفتحت الكتاب على صفحة بها لوحة مرسومة بالألوان .

وسألتنى : هل هذه السيدة تشبهنى ؟

فقلت : فعلاً تشبهك . ولكن من هى ؟

قالت : إنها زوجة أحد اللوردات .

ثم جاءت حرم السيد كيرك . ودعتنى إلى غرفة الطعام . وأشرت إليها أن تتقدم هى والسيدة . ويبدو أنها لم تفهم . ولكنها تقدمت إلى غرفة الطعام وجلسنا نحن الأربعة . هى وزوجها فى ناحية وأنا وسيدة القطار فى الناحية الأخرى .

وانتهى العشاء . وخرجت السيدتان وبقيت مع السيد كيرك . ثم تكاثر حولنا الأقارب رجالاً ونساء وأطفالاً .

ثم جاءتنى سيدة القطار تسألنى :

هل تتذكر وجهى هذا .

قلت : لا أحد ينساه .

قالت : كنت أتوقع منك ذلك . ولكن هل تستطيع أن ترسمه من الذاكرة !

فقلت : لو أعطيتنى فرصة الآن لاراك أوضح لفعلت . لو جلست أمامى بعض الوقت .

فاعتذرت . وقالت : فيما بعد .

وفى الصباح لم تظهر سيدة القطار .

ولما جاءت الخادمة إلى غرفتى ترفع ستائر النافذة سألتها : من تلك السيدة ؟
فقالت : أية سيدة يا سيدى !
قلـت : التى جلست معنا على العشاء :
قالت : لم يكن هناك أحد .
قلت : التى كانت ترتدى فستانًا أسود .
قالت : لم أر أحدًا يا سيدى :

وعدت أسأل السيد كيرك . فأكد لى هو زوجته أن أحدًا لم يكن معهما فى البيت . ولا جلس معنا . ولا تناول العشاء ولابد أنهما ظنًا أننى أسرفت فى الشراب . أو لأننى رجل فنان فرأسى مشحون بالخيالات . . أو أننى مجنون !

ولما عدت إلى بيتى فى لندن . . أحسست كأن شيئًا ما قد تغير فى هذا البيت . ما هو ؟ لا أعرف . انظر إلى السرير أنه فى مكانه . انظر إلى اللوحات فأجدها كلها قد استقرت على السرير . انظر إلى زجاجات الخمر فأجدها فى مكانها تحت المخدة . انظر إلى أحذيتى أنها فى نفس المكان الذى اخترته لها فوق اللوحات على الأرض . كل شىء كما تركته . إذن ما هذا الشىء الغريب الذى حدث . . . . لا أعرف ولكنه نوع من الضيق فى صدرى . . كأن هناك ألف إنسان يتنفس فى هذا المكان الصغير . فلما جئت لم أجد لى متنفسا . وربما كان هذا وهما . ولكن احساسى الذى اعتمد عليه يقول لى ذلك . .

ونفضت التراب والورق والألوان من فوق مكتبى الصغير وجلست وأمسكت ورقة وقلما . وأسندت رأسى بيدى ، عندما أحسست بشىء ورائى . ونظرت فاذا هى سيدة القطار . وإذا هى تعتذر عن مجيئها دون إذن منى . ولكنى أخفيت دهشتى في سعادتى ويبدو إنها جاءت لتقول شيئًا محددًا . قالت لى : ألم أقل لك أنك سوف ترانى !

وقبل أن أقول شيئًا سألتنى : هل رسمتنى ؟
فقلت : لم أتمكن من ذلك .

قالت : هل تستطيع الآن ؟

قلت : إذا أعطيتنى فرصة .

قالت : إن هذه الصورة هامة جدًا . وعليها يتوقف كل شىء .

قلت : لم أفهم .

قالت : كان والدى فى حاجة إلى هذه الصورة . أرجوك مساعدتى !

قلت : أتمنى ذلك . .

وراحت تدور فى البيت وتتخطى الأشياء الملقاة هنا وهناك . ولم يتسع وقتى لكى أعتذر لها عن شىء . وجاءت ابتسامتها رقيقة تؤكد أنها تعرف ذلك ، وأنها على دراية بالفنانين والفوضى التى يعيشون فيها . وأمسكت ورقة وقلمًا ورحت أرسمها من بعيد . ولما طلبت إليها أن تقف ولو لحظة . لم تشأ أن ترد . وإنما راحت تدير وجهها وظهرها . . وكنت أسجل ما أراه وبسرعة !

وبعد لحظات اقتربت منى ووضعت يدها على ذراعى . ثم على رأسى . . ثم لمست بيدها خدى . ولم أتحرك من مكانى كأننى طفل وكأنها احدى الأمهات . . وودعتنى وخرجت . جميلة كل شىء فيها يدل على أنها عاشقة ولهانة . وعلى أنها تعانى أزمة نفسية عنيفة . ولكن شيئًا جبارًا يمسكها عن السقوط . . هذا الشىء اسمه الكرامة . أو الاعتزاز بالنفس . أو الثقة التامة بشخص آخر . والذى أدهشتنى أننى لم أحاول أن ألمس يدها . أن أقترب منها . أن أقف .

ولما خرجت ناديت خادمى وعاتبته كيف يسمح لهذه السيدة بأن تدخل دون أن ينبهنى إلى ذلك . ولكن الخادم اعتذر بأنه ترك الباب مفتوحًا ونزل إلى البقال لبضع دقائق . . وحذرته أن يترك الباب مفتوحًا بعد ذلك وصرخت فيه : ألم تسمع بقصة الذئب الذى انفرد بسيدة وأكلها ؟

ولم أتمالك نفسى من الضحك عندما نظر الخادم إلى وجهى وقال : حاضر . .

ولم أفهم سر نظرته إلى وجهى وذهبت إلى المرآة فوجدت أننى صبغت شفتى باللون الأحمر دون أن أدرى فضحكت بصوت منخفض !

ومضت شهور ورأيت من المناسب أن أذهب إلى الشمال لعلى أجد شيئًا من الراحة ، فقد حيرتنى سيدة القطار ولم أجد تفسيرًا لها . وتوقف القطار عند احدى المدن الصغيرة . وأفهمنا السائق أن هناك عملاً فى القطار وفى الطريق . وأنه لابد من البقاء أربع ساعات على الأقل . وتذكرت أن لى صديقًا قديمًا فى هذه المدينة وأن اسمه السيد لوط . وسألت ناظر المحطة ان كان يعرف السيد لوط الذى يسكن إلى جوار الكنيسة . وقال ناظر المحطة أنه يعرف ذلك . وبعث ناظر المحطة فى طلب السيد لوط . وبعد نصف ساعة جاء رجل فى الخمسين من عمره . وقال : أنت تسأل عن السيد لوط ؟

فقلت : نعم .

فقال : إن السيد لوط لم يعد يقيم هنا . . ولكنك بعثت فى طلبى أنا .

فاعتذرت وقلت : مااسم حضرتك قال : أنا السيد لوقا ؟

واندهشت كيف أننى كتبت اسم صديقى هذا خطأ . وأرانى الورقة فوجدت أننى كتبت السيد لوقا ، وليس السيد لوط . وتضاعفت دهشتى . ولكن الرجل قال : بل أنت الشخص الذى أريده . أنت بالضبط . وأرجوك أن تقبل المبيت عندنا . فأنا أقيم فى بيت وحدى مع ابنة صغيرة لى . وأريدك أن ترسم لوحة لابنتى . هذه اللوحة هى أعز ما سوف أملكه فى هذه الدنيا . .

وذهبت مع السيد لوقا إلى بيته . .

وهناك قابلتنا ابنته . اسمها : مريم فى الخامسة عشرة من عمرها . وهى من ذلك النوع من الفتيات التى اعتمدت على نفسها فى سن مبكرة . ففيها شجاعة وسوء ظن بالناس . ولذلك ترفع الكلفة بسرعة إيمانًا منها بأنه لا داعى للخوف من أحد .

وسبقتنى مريم إلى غرفة نظيفة . وقالت : هذه غرفتك . أما أبى فانه لن يقوى على السهر معك هذه الليلة لأنه مريض .

فقلت : آسف لإزعاجه . ولكنه هو الذى دعانى لكى أرسمك .

فقالت : صورتى أنا ؟ بل صورة أختى .

قلت : لا مانع . أنا على استعداد .

ـ ولكن أختى ماتت من ستة شهور . وأبى مريض لذلك . وكانت وفاتها أكبر صدمة له . ويتمنى لو يجد لها صورة . أو يصورها أحد . ولو كانت عنده صورة واحدة لاختى لتحسنت صحته فهو مريض كما ترى . .

وسألتها : وهل تشبهين أختك ؟

ـ أبدًا .

قلت : إذن حاولى أن تصفى أختك لى . . وأنا أحاول رسمها .

وراحت تصف أختها . وأنا أرسم . ولكنى أعرف فى نفس الوقت أن هذه المحاولة فاشلة . فقد جربت ذلك كثيرًا . وكانت النتيجة مخيبة لكل أمل . وكلما رسمت لوحة عرضتها على مريم فتقول : لا . . تشبهها !

ثم عادت مريم تقول :آه . . أن أختى كارولين الله يرحمها ، تشبه صورة لسيدة معروفة . . هذه الصورة كانت فى كتاب . . ولكن بعد وفاتها أختفت هذه الصورة . لا أعرف من الذى أخذها أو سرقها . .

وقلت : اذكرى لى اسم ناشر الكتاب وأنا أحاول العثور عليه .

ثم حاولت أن تتذكر . وقالت مريم : إن أختى تشبه السيدة مادلين زوجة أحد اللوردات . .

وبسرعة صعدت الدرج ودخلت غرفتى . وفتحت حقيبتى وأخرجت بعض اللوحات التى كنت قد رسمتها لسيدة القطار . ولم تكد مريم ترى هذه اللوحات حتى صرخت : هذه هى أختى . . إن سعادة أبى لاحد لها ! ولكن من أين نقلت هذه اللوحات ؟ كيف عرفت ذلك . .

وذهبت إلى والدها العاجز عن السير . وبعد لحظات جاء أبوها وكأن ساحرًا قد حمله عل جناحيه . وكانت السعادة على وجهه . ثم اتجهت إلى الكتاب وفتحته . ورأيت مكان اللوحة التى نزعت واختفت !

ولا أعرف كيف سارت الأحداث بعد ذلك . ولكن فى اليوم التالى ذهبنا معًا إلى الكنيسة. وفى طريق العودة قال لى السيد لوقا : أنت أسعدتنى وأنا كنت على يقين من ذلك . فأنا أعرفك . كلهم اتهمونى بالجنون لأننى أرى أشياء لا يراها الناس . أنا رأيتك مع ابنتى هذه . رأيتك فى القطار جالسًا أمامها . رأيتها وهى تسحب البالطو إلى الوراء وأنت تنظر إليها . رأيتك تتحدث إليها أمام المدفأة . رأيتها وهى تعرض عليك لوحة لزوجة اللورد . . رأيتك وأنت ترسمها . ولما جئت إلى بلدتنا هذه ووجدت اسمى على الورقة عرفت إنك أنت . وأنك وحدك الذى سوف تحقق لى أعظم سعادة.

ومضى السيد لوقا يقول وقد استرد صحته وحيويته : الآن فقط استطيع أن أعيش مع ابنتى . سعيدًا بها كما كنت سعيدًا وهى ما تزال حية . . وهى الآن سعيدة لسعادتى الآن فقط فى استطاعتها أن تذهب بعيدًا عنى . . إلى السماء . . إلى حيث لا أعرف . فقد كان حزنى عليها هو الشىء الوحيد الذى يربطها بالأرض . .

ثم سكت ليقول لآخر مرة : تمنيت أن أفرح بلقاء ابنتى . . وأنت حققت لى ذلك . .

وفى الصباح عندما دقت مريم على بابى وأشارت أن أتبعها بهدوء . أدركت أن والدها مريض . ودخلت غرفته . ووجدته فى فراشه هادئًا . وعلى وجهه ضحكة ينقصها الكلام ـ وسألت مريم إن كان أبوها قد مات . فهزت رأسها . إنه مات . ولم أر حزنًا على وجه مريم . إنها تمامًا كما وصفها أبوها : واقعية جدًا . ولن تحزن لفراق أحد . . ولن يحزن أحد لفراقها . .

وعلى الحائط وجدت لوحة الابنة كارولين مكتوبًا تحتها : كارولين لوقا (٢٢ سنة) ١٣ سبتمبر سنة ١٨١٨ !

بالضبط ..
كما رآها في النوم !

التفت أحدهما للآخر وقال له : لا أعرف ما الذى جعلنى أتذكر دائمًا قصة رويتها عشرات المرات . ولا أدرى لها تفسيرًا وإن كنت أومن بها تمامًا . . ربما الأمواج وهؤلاء الفتيات وهذه السفن القادمة من بعيد . . ربما هذا الجو كله هو الذى دفعنى إلى أن أسألك ، وأرجو ألا تسخر منى . .

وكان المتحدث هو القبطان كلارك ، وهو بحار أمريكى قديم ارتاد المحيط الأطلس شمالاً وجنوبًا . بين نيويورك وهافانا . أما الآخر فهو مستر أوين السفير الأمريكى السابق فى مدينة نابلى بايطاليا . وهو فى ذلك الوقت على المعاش . . وأى معاش . . أنه يملك فيلا جميلة ولها حديقة هى الجنة نفسها لو تمناها أكثر الناس إيمانًا لنفسه ولاولاده من بعده . . ففيها طيور استوائية وفيها غزلان وببغاوات وقردة . وفيها أيضًا بعض الأفاعى غير السامة وبعض التماسيح . . ثم أنه رجل هادئ سعيد يريد أن يعيش ما تبقى له من العمر على مهله . فهو يأكل بمنتهى التأنى ، ويشرب ويستطعم قطرات الماء والكونياك . . وإذا أكل اللحم تحس إنه لا يريد أن يبتلعه وإنما يريد أن يستبقيه فى فمه . . وحياته كلها على لسانه وعلى شفتيه . . والدنيا حوله وفى داخله جميلة ناعمة . ولما أراد القبطان أن يثيره التفت إليه بسرعة . وهذه الالتفاتة

السريعة تعتبر عملاً عنيفًا . ولما لاحظ القبطان ذلك بادره قائلاً : هل سمعت إننى مخرف؟ قال السفير : أبدًا . .

فقال له القبطان : هل تؤمن بالأرواح والأشباح .

أجاب السفير : لا . . طبعًا . كيف أصدق شيئًا من ذلك ونحن الآن فى ١٨٥٣ بعد ميلاد المسيح .

ـ ولكن الملائكة والشياطين جاءت فى الكتاب المقدس . وجاء أيضًا أن أحد الملائكة قد انقذ بطرس من سجن الملك هيرود .

ـ أعرف ذلك . ولكنى لم أر شيئًا من ذلك .

ـ أنت تؤمن بالله ومع ذلك لم تره .

ـ هذا صحيح .

ـ تؤمن بالأنبياء والقديسين وغيرهم من عظماء التاريخ ولم تعش فى عصرهم .

ـ صحيح .

ـ إذن ما الذى يمنعك أن تؤمن بهذه الظواهر الغريبة التى لم يجد لها العقل تفسيرًا بعد .

ـ ما دام العقل لم يجد لها تفسيرًا فاعذرنى إذا لم أصدقها!

ـ على كل حال هذا رأيك . وأنا بهذه المناسبة أذكر عبارة قرأتها لاحدى سيدات الصالونات بباريس واسمها مدام دى ديفان . . وكانت صديقة لاعلام الفكر الفرنسى فى ذلك الوقت مثل فولتير ومونتسكيو وفونتنيل ودالمبير ثم إنها كانت صديقة للكاتب الإنجليزى هوراس والبول . .

ـ أعرف ذلك . وأعرف إنها كانت سيدة سليطة أيضًا !

ـ هذا بالضبط ما أردت أن انبهك إليه . . فقد سئلت عن رأيها فى الأرواح والأشباح فقالت : لا أؤمن بها ولكن أخاف منها !

وضحك الرجلان . .

وأحس القبطان أن شهية السفير قد انفتحت لسماع قصته الغريبة . فهذه القصة

لا علاقة لها بالأشباح والأرواح وإنما هى شىء أغرب وأعجب من ذلك !

يقول القبطان : كنت فى رحلة بين ميناء ليفربول بالجزر البريطانية وميناء نيويورك . وقد مضى علينا فى المحيط أكثر من ستة أسابيع . الرحلة عادية . وفى يوم، عند الغروب ، جاءنى الضابط الأول فى حالة فزع . وسألته : ماذا حدث ؟

قال : يوجد شخص غريب فى السفينة لم أره من قبل !

ولم استرح لهذا الذى يقوله الضابط . فقلت :

ـ لم أفهم .

وقال إنه عندما كان يرسم خط سير السفينة . . سرعتها واتجاه الريح . وارتفاع الموج . والتفت إلى الوراء ليسألنى عن الاتجاه الذى يجب أن تأخذه السفينة ، وجد شخصًا آخر جالسًا على مكتبى . هذا الشخص قد أمسك ورقة وقلمًا وراح يكتب . ونظر إلى الشخص الغريب . وتحدث إليه . ولكنه لم يرد . وتركه الضابط وراح يبحث عنى . ووجدنى على ظهر السفينة . وقال لى : فى السفينة شخص غريب . .

وضحكت مما قاله الضابط الأول وقلت له : هلوسة . . أو لعلك تعبان .

ولكن أمام صوته الجاد وما أعرفه عنه من صدق . طلبت إليه أن يذهب ويأتى بهذا الشخص الغريب . ولكن الضابط كان خائفًا . وطلب منى أن أرافقه . وذهبت معه ولم نجد هذا الشخص الغريب . وهززت رأسى وكتفى وأنا أقول : طبعًا هذا ما كنت أتوقعه .

ولكن الضابط الأول لم يصب بخيبة أمل . فلا يزال فى وجهه اصرار على كل كلمة قالها . ثم إنه اتجه بسرعة إلى المكتب ووجد الورقة وفوقها القلم . وقدم لى الورقة وهو يقول : اقرأ . . لقد كتب شيئًا بخط يده .

ومددت يدى إلى الورقة ووجدت هذه العبارة : اتجهوا إلى الشمال الغربى .

ولم أصدق أيضًا أن هذا خط أحد غريب . فطلبت إلى الضابط الأول أن يكتب نفس العبارة . وكتبها . إنه خط مختلف . وأتيت بجميع أفراد طاقم السفينة واحدًا

واحدًا . ليس بين ما كتبوه حرف واحد يشبه هذا المكتوب على الورقة . إذن هناك شخص غريب على هذه السفينة . ولابد من القبض عليه ، حيًا أو ميتًا حتى يتبدد خوف كل طاقم السفينة . وخوفى أنا أيضًا . أما الضابط الأول فهو أكثرنا تصديقًا لما حدث .

وظللت طول الليل أفكر فى هذا الأمر . ورحت أسأل طاقم السفينة ان كان أحد قد لاحظ على الضابط الأول أى تغيير أو مرض فى الأسابيع الماضية . ولكن أحدًا منهم لم يلاحظ شيئًا . وسألت ان كان أحد قد لاحظ أنه يسرف فى الشراب . فأجابوا بالنفى . وسألت ان كانت له هموم خاصة أفضى بها لاحد منهم . لاشىء من ذلك . فهو رجل فى غاية الكفاءة والأمانة . وهو شخصية نموذجية . .

وقد ضاعفت هذه المزايا الأخلاقية والعملية من صعوبة الموقف . ولكن أهم شىء يجب أن أتخذ فيه قرارًا سريعًا هو اتجاه السفينة . وذهبت إلى الضابط الأول وقلت له : ان الرياح معنا . . والموج متوسط . . إذن لماذا لا نتجه إلى الشمال الغربى !

وفرح الضابط الأول وقال : سيدى القبطان كان فى نيتى أن أقول لك . ولكن الرأى لك !

واتجهت السفينة إلى الشمال الغربى . .

وعند الظهيرة سمعت أحد رجالى يصرخ فى أعلى السفينة . لقد رأى أحد الجبال الجليدية . وبالقرب من جبل الجليد كانت سفينة قد ارتطمت به فتمزقت تمامًا . واقتربنا من السفينة المحطمة . ووجدنا بعض الزوارق الصغيرة . الزوارق قد تغطت بجثث من البحارة والمسافرين قد تجمدوا حتى الموت . ولكن وجدنا زورقين آخرين . وفى كل زورق رجل بين الحياة والموت . وكان لابد أن نلمسهما برفق شديد . فالأطراف متجمدة تمامًا . وإذا حملنا الواحد منهما بشدة تحطمت أضلاعه أو انكسرت ذراعه أو ساقه . . وبمنتهى الرقة واللطف نقلنا الاثنين إلى ظهر السفينة . .

وفى الدفء وضعنا الاثنين . وبدأنا نصب الماء الساخن على جسم كل منهما ونملأ فم كل واحد بالكحول . .

وبعد ساعة تحرك الاثنان . . ومن المؤكد أن الحياة قد استأنفت دورتها العادية فى كل منهما .

وكان أحدهما هو قبطان السفينة الغارقة . والتفت هذا القبطان يشكرنا . ولم يكد يدير لنا وجهه حتى صرخ الضابط الأول فى سفينتى . ثم ابتعد قليلاً . وعندما نظرت إليه وجدته يصلى ويتجه إلى السماء . ولابد أنه يتلو بعض الآيات . .

وبعد أن استرحت إلى حالة القبطان وأحد رجاله ذهبت إلى الضابط الأول . وسألته . فقال : سيدى القبطان . كان هذا القبطان الذى أنقذناه هو نفسه الرجل الغريب الذى كان يجلس على مكتبك . وهو الذى كتب على الورقة : اتجهوا إلى الشمال الغربى -. إن العناية الإلهية قد أرسلت هذا الرجل . . أو صورته . . أو شبحه أو روحه . . أو أحدًا شبيهًا به . . أرسلته لكى نجىء إلى هنا وننقذ ما تبقى من السفينة !إنه هو !

وازدادت دهشتى . . فكل ما اتصوره عن الأشباح والأرواح إنها لأناس ماتوا أو قتلوا . ولكن هذا القبطان لا مات ولا قتل . وتحيرت هل أصدق الضابط الأول أو أكذبه . . فالاتجاه إلى الشمال الغربى كان نوعًا من نداء السماء . . أو توجيه العناية الإلهية وذهبت إلى قبطان السفينة الغارقة . . وقلت له أننى سوف أطلب منه شيئًا سخيفًا . . شيئًا لا يليق ولكنى مضطر إليه . فقال القبطان : سيدى القبطان أنت أنقذت حياتى . . ولك منى الطاعة . وقبل الطاعة . لك منى عظيم الامتنان !

فأعطيته ورقة وقلمًا . وقلت له : أكتب هنا هذه العبارة : اتجهوا إلى الشمال الغربى !

وأمسك الرجل الورقة والقلم وكتب . وأخرجت الورقة الأخرى من جيبى . ووجدت أنه هو نفس الخط . فقدمت له الورقتين معًا وسألته : ماذا تقول فى هذا !

واندهش الرجل . وقال : هذا عجيب . لو لم أكن أنا الذى كتبت هذه الورقة

أمامك ، لقلت أننى كتبت هذه أيضًا ! هذا أغرب ما رأيت فى حياتى !

ثم طلب منى القبطان تفسيرًا لذلك . ولكنى لم أستطع أن أقول له شيئًا لأننى أنا أيضًا فى حاجة إلى من يشرح لى هذا كله . كيف يستطيع إنسان أن يكتب هذه الورقة وهو فى مكان آخر غريق يبعد عنا عشرات الكيلومترات . . ثم كيف يحدث ذلك وهو لا يدرى . . وعندما جلست إلى هذا القبطان وعرفت حياته وجدت أن لنا أصدقاء كثيرين . وان كنت لا أعرفه . . بل إننى أستطيع أن أقول إننا أقارب . أى انه شخصية حقيقية . وليس شبحًا ولا روحًا ولا عفريتًا ولا ملاكًا .

وشغلتنى هذه الحادثة . ولم أعرف للنوم طعمًا . ولكن لم أهتد إلى حل . وكلما رأيت الضابط الأول وجدته أكثر ذهولاً من أى وقت مضى . أما قبطان السفينة الغارقة فهو أسعدنا جميعًا ولا يشغل نفسه بما يدور فى رءوسنا . انه رجل كاد يموت . وانقذناه من الموت بردًا وجوعًا . وهو سعيد بالنيابة عن الجميع !

ولكن بعد ذلك بيوم أتيت بالقبطان وزميله الذى أنقذناه . وسألته : أريد أن أعرف بالضبط ما الذى كنت تفعله عند غروب اليوم السابق على انقاذنا لكم .

فقال زميل القبطان : كنا فى زورقين متجاورين . ثم وجدت من المناسب أن أقفز إلى زورق القبطان ونتقارب لعلنا ندفئ بعضنا البعض . وفى ذلك اطالة لحياتنا بضع ساعات . . ولكن عند غروب ذلك اليوم لاحظت أن القبطان قد نام نومًا عميقًا . لا أعرف كيف استطاع ذلك . . ولكن لعله التعب الشديد . . أولعلها الرغبة فى الموت . . وعندما صحا القبطان من النوم وجدت وجهه قد أشرق . فقال لى : سوف تنجو غدًا . ستجئ احدى السفن لانقاذنا . ولما سألته عن ذلك . قال أنه رأى ذلك فى نومه . وفى اليوم التالى جئتم لانقاذنا ! بل أكثر من هذا فأنا عندما رأيت سفينتكم هذه عرفتها .

وهز قبطان السفينة الغارقة رأسه قائلاً : فعلاً . قلت له : هى بالضبط التى رأيتها فى النوم . بل أننى أعرف بالضبط شكل مكتبك وأستطيع أن أصفه لك وأعرف

ملامحك تمامًا وأعرف أنك ترتدى قميصًا أبيض عليه بقعة حمراء . لقد رأيتها فى النوم .

وهنا رفعت جاكتتى وعريت صدرى ورأيت قميصى الأبيض . ووجدت البقعة الحمراء . . أليس هذا شيئًا عجيبًا ؟!

ومضى قبطان السفينة الغارقة يقول : بل إننى دخلت مكتبك وفتحت أحد أدراجه ووجدت فيه صورة لطفل صغير . الطفل جميل . ومددت يدى إلى الصورة وقبلتها . ومن العجيب أن الصورة وجدتها تطفو على وجه الماء إلى جوارى عندما غرقت السفينة وظللت أطفو وأسبح حتى أمسكت بالصورة ووضعتها فى جيبى . .

وصرخت قائلاً : فعلاً اختفت هذه الصورة . أنها صورة ابنى الوحيد الذى مات . أين هى !

ومد قبطان السفينة الغارقة يده إلى جيبه وأخرج صورة الطفل الصغير . وكانت الصورة مكرمشة . ولكن ملامح الطفل واضحة تمامًا . ومددت يدى إلى الصورة . وقبلتها . إنها الأثر الباقى لابنى الوحيد . . إلا ترى يا سيادة السفير أن هذا شىء عجيب !

ولكن السفير الأمريكى أوين هز رأسه بهدوء الرجل الغنى الذى أحيل إلى المعاش ولا يريد أن ينزعج لأى شىء مهما كان غريبًا . ثم قال . فعلاً شىء غريب . . ولكنى لا أصدقه ـ كما تقول السيدة دى ديفان !

فقط ...
هذا الكلب الأسود !

أسهل أن تصف أى إنسان بالجنون . . فالإنسان ليس عاقلاً طول الوقت . . ولا مع كل الناس ؛ ففى كل إنسان لحظة جنون . . وصعب جدًا أن تقول عن إنسان إنه عاقل فى كل تصرفاته . . فهناك أفعال يقوم بها الإنسان لا يمكن أن تتصف بالحكمة : كأن يلعب فى أذنه . أويبتسم وهو جالس وحده . . أو يشغل نفسه بالبحث عن مستقبل البشرية فى مائة العام القادمة . .

ولكن اللواء روبى وصفه أهله بالجنون لعدة أسباب . . أولاً : لأنهم وجدوا بين أوراقه هذه المذكرات . وكلها تتحدث عن مزايا الكلاب وفضلها على الإنسان أو تفضيله لها على الإنسان . . يقول اللواء روبى :

« الكلب صديق الشحاذ والراعى . . » .

« إن ظهور الكلاب فى بلاط الملوك معناه أن هؤلاء الملوك لا يجدون الوفاء بين الناس . . فوجود هذه الكلاب هو توبيخ مستمر لكل رجال الحاشية » .

« انها جملة حكيمة التى قالها القديس برنارد : من يحب كلبى فأنه يحبنى أيضًا » .

« وما أصدق ما جاء فى الكتاب المقدس : كلب حى خير من أسد ميت » !

« وما أسهل أن تجد عصا لتضرب أى كلب . . وما أصعب أن تجد قطعة من الخبز لأى كلب » !

« الكلاب التى تنبح هى الكلاب التى لا تعض » !

« إذا أطعمت كلبًا فأنه لن يعضك ، وهذا هو الفرق بين الإنسان والحيوان » .

من أجل هذه الكلمات المعقولة جدًا قال أهل اللواء روبى إنه رجل مجنون .

ثم إنه مجنون مرة أخرى لأنه ملأ بيته بعشرات الكلاب . . وجعل فى غرفته سريرين كبيرين . أحد السريرين ينام عليه . . والسرير الآخر قد تزاحمت عليه الكلاب . . عشرون كلبًا ، ولكن أحب هذه الكلاب إليه كلب أسود طويل . . هذا الكلب كان ينام فى حضن اللواء روبى . . وكان يضع رأسه على ذراعه . . وكان اللواء يستغنى بهذا الكلب عن أغطية الشتاء . . فالحرارة التى تخرج من جسم الكلب تجعل اللواء روبى يجفف عرقه طول الليل !

وهو مجنون مرة ثالثة لأن اللواء روبى بعد أن مات وجدوه قد أوصى بكل ثروته لهذا الكلب الأسود . . مع أن اللواء روبى له أربعة أخوة وست أخوات واحدة من أخواته قد دخلت الدير . . ولا تريد من متاع الدنيا شيئًا . . أما أخوته الباقون فقد ماتوا الواحد بعد الآخر . . ولكن هذه الوصية قد تركها اللواء روبى فى بيت ابن أخته . . ولكن أبن أخته هذا لم يشأ أن يعلن عن هذه الوصية . . وفى نفس الوقت لم يشأ أن يمزقها . . لماذا ؟ نحن لا نعرف السبب الآن . . ولذلك عندما مات ابن أخته هذا عثر المؤرخون على هذه الوصية !

أما اللواء روبى هذا فاسمه روبرت استيوارت من اسكتلندا . ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره سافر إلى الهند . وعمل فى شركة الهند الشرقية . وفى أثناء وجوده فى الهند مات جده فورث عنه قصرًا كبيرًا . اسمه قصر الاثنين والعشرين فقد كانت به اثنتان وعشرون غرفة .

وقد أعجب روبرت هذا بالحياة فى الهند . وتصوف وعرف فنون اليوجا وسار عاريًا . . ومشى على النار . . وعاش ومات نباتيًا ، بل إنه كان لا يقطف وردة لأن الوردة كائن حى . . وقطفها هو اغتيال لها . . ولذلك كان يترك ذلك لغيره من الناس . . وكان لا يصيد السمك ويترك ذلك لغيره . . إنه لا يريد أن يكون المجرم الأول . . إنه قانع بأن يكون المجرم الثانى .

وقد اعتزل روبرت العمل فى الهند بدرجة لواء . . واشتهر باسم اللواء روبى . . وعندما أحيل إلى المعاش قرر أن يقيم فى قصره هذا . . ولكن القصر قد استأجره بعض الأثرياء . . وبنهاية عقد الإيجار انتقل هو إلى القصر . . ولم يتزوج اللواء روبى . وإنما كانت تقيم معه فى البيت مشرفة وخادمان واثنان من الطهاة . . وأكثر من عشرين كلبًا !

ويبدو أن اللواء روبى عندما عاد إلى اسكتلندا قرر أن ينقل معه كل « جو » الهند : السحر والبخور والطلاسم . . والكثير من المخطوطات والتحف القديمة .

ولم يعد سرًا أن هذا الرجل كان غريب الأطوار . . أو كان مجنونًا ـ هكذا قال عنه كل الناس ، فهو منعزل عن الناس تمامًا . . اما لأنه غنى ، واما لأنه قرر أن يمضى ما تبقى من عمره فى التأمل أو الحياة مع الكلاب ، فهو على الأقل سيد مطاع ، وهو على الأقل آمن تمامًا أن أحدًا لن يعض اليد التى تطعمه !

وقال الناس ان اللواء روبى يتحدث إلى نفسه كثيرًا إذا سار فى الليل وحده . . وقالوا إنهم كثيرًا ما سمعوه فى الليل يتحدث ولم يكن هذا الحديث كالذى يدور بين رجل وكلب أو حتى وألف كلب . . ولكنه حوار بين عدد من الرجال . . مع أن أحدًا لم يدخل بيته !

وقالوا إن اللواء روبى كان يستطيع أن يمشى فوق الأرض . . وتكون بينه وبين الأرض مسافة . . قالوا نصف متر . . وقالوا متر . . وقالوا بل إنه يطير . .

واستراح الناس فى المنطقة إلى أن الرجل مجنون ، وأن جنونه من النوع الهندى ـ أى الذى لا علاج له . . ويمكن أن ينتقل إلى الناس بالعدوى . . بل إن بعض الناس يؤكد أن بعض كلاب اللواء روبى تمشى إلى جواره على ساقين فقط !

وفى سنة ١٨٧٦ توفى اللواء روبى . .

وظهرت الوصية الأولى . وقالت الوصية الأولى أن ثروته يجب أن تعطى لكلبه الأسود .

وظهرت الوصية الثانية . . وقالت : سوف أموت وسوف أبعث فى هذا الكلب . . فإذا مت فأكرمونى ، فأنا هذا الكلب الأسود !

ثم ظهرت الوصية الثالثة : لا أحد من أخوتى أو أقاربى يستحق مليماً واحدًا . . فلم يرتفعوا إلى مستوى الكلاب . . فإذا وعدوا وأقسموا أمام قسيس أنهم إذا ماتوا سيعودون إلى الحياة فى أجسام هذه الكلاب . . فلهم أن يتقاسموا ثروتى مع كلبى الأسود . . كلبى الأسود له نصف القصر والمال والمجوهرات والأرض ، ولهم النصف الآخر !

وعندما كانوا يشيعون جنازة اللواء روبى كانت الكلاب تعوى وتئن . ثم سكتت مرة واحدة . . لقد قتلوها جميعًا . . أما الكلب الأسود فقد قتلوه . . ثم أحرقوه . . وبعثروا رماده فى كل مكان !

وبذلك ضمن الأخوة والأقارب أن اللواء روبى لن يظهر بأى حال فى واحد من هذه الكلاب ، إذا أراد ـ أو إذا صدق تخريفه !

واستراح الجميع إلى ما حدث . . واختلفوا على التركة . . ثم تقاسموها . . وسكنوا جميعًا فى القصر . . وتردد بعضهم أول الأمر فى أن يسكن فى غرفة اللواء روبى . . ولكن واحدًا من أبناء أخته أختارها مسكنًا خاصًا له .

وفى ذكرى مرور سنة على موت اللواء روبى بدأت المتاعب . . ففى الليل ، كل ليلة ، تمتلئ الغرفة بأصوات الكلاب وهى تتزاحم . . وأصواتها تلهث . . وعندما تضاء الشموع لا يجدون لها أى أثر .

وعند الفجر من كل يوم يسمع من ينام فى هذه الغرفة صوت حذاء اللواء روبى وهو يدق على الأرض دقة واحدة . . فقد كان أعرج . . ومن دقاته المتسرعة الغاضبة ، يفزع النائمون ، وتضاء الشموع ولا يجدون أحدًا !

وهجر أهل البيت هذا القصر . . دون أن يشيعوا بين الناس ماذا جرى . . وجاء أناس آخرون واستأجروا القصر .

ولكن هؤلاء الناس أقاموا بضعة أسابيع ثم تركوه ، فقد كانوا يسمعون فى الليل

أصوات كلاب تتزاحم على الباب ، على كل الأبواب ، وتكاد تحطمها . . فاذا صحا أهل البيت وفتحوا الأبواب والنور لم يجدوا أثرًا لشيء .

وفى احدى الليالى صحا أهل البيت على صراخ عنيف . . وذهب الرجال إلى حيث تنام سيدة البيت . . لقد كانت فى شبه اغماء . . فلما أفاقت وسألوها قالت إن عشرات الكلاب قد داست عليها . . وعندما حاولت أن تنهض جاء رجل وصفت ملامحه التى تنطبق على اللواء روبى ، وأنهضها ثم سلمها لكلب أسود ضخم ، هذا الكلب لف لسانه على عنقها فاختنقت !

وبعد ساعات توفيت هذه السيدة وهجر البيت سكانه الجدد . .

وظل البيت مهجورًا بضع سنوات ثم جاء أناس لا يعرفون ماذا حدث من قبل . . ولم يمض عليهم شهر واحد حتى هربوا منه . . فقد رأوا فى الليل عددًا هائلاً من الراهبات يدخلن كل الغرف ، وفى أيديهن الشموع . . ثم لا ينطقن بكلمة واحدة . . ولكن شفاههن تتحرك بما يشبه الدعاء . وعندما تخرج الراهبات يعصف بالبيت كله هواء من نوع غريب . . ولا يزال الهواء يهدأ ويهدأ حتى يصبح صوت ألف كلب يلهث . .

وهربوا من البيت !

وفى يوم ٨ يونيو سنة ١٨٩٧ نشرت صحيفة « التيمس » البريطانية بحثًا موضوعه : هل يحق لأية هيئة علمية أن تدخل بيتًا مسكونًا بالأشباح دون إذن من أصحابه ؟ هل يحق لجمعية « الدراسات النفسية » أن تبعث برجالها إلى هذا البيت الملىء بالأشباح والأرواح من أجل معرفة الحقيقة دون أن تستأذن أصحاب هذا البيت؟

ولكن أكثر رجال القانون قالوا : لا يحق لهذه الهيئة مهما كانت أهدافها علمية نبيلة أن تفعل ذلك !

واستأذنت جمعية الدراسات النفسية من أصحاب القصر المهجور أن توفد عددًا من العلماء رجالاً ونساء لمعرفة حقيقة هذه الأوهام وأصبح معروفًا فى بريطانيا كلها أن

هذا القصر مليء بهذه الأشياء التى ترى هائمة فى الفضاء بلا سيقان أو بلا أقدام أو بلا رءوس . . أو هذه الأصوات التى يسمعها الناس ولا يرونها . . ولكن يشعرون بها ويفزعون منها !

واستأجرت جمعية (الدراسات النفسية) هذا البيت . ودخل البيت عدد من الرجال أقاموا فى غرفة نوم اللواء روبى . . وكان من بين هؤلاء الرجال قسيس الملكة فيكتوريا . . وفى مقدمتهم رجل اشتهر فى ذلك الوقت بأنه « صياد الأشباح والأرواح فى أمريكا وأوروبا » واسمه المقدم تايلور . . وهو صاحب الدراسات المشهورة عن هذه الظواهر الغريبة العجيبة على جانبى المحيط الأطلسى . .

وفى الليلة الأولى أحس الجميع بصوت الكلاب التى تلهث ولكن أمام باب غرفة النوم . .

وفتحوا الباب . . ولم يروا شيئًا . . فكل ذلك متوقع . . وقد عرفوه قبل ذلك فى بيوت مهجورة كثيرة .

وتفرقوا فى غرف البيت . . وناموا اثنين اثنين .

وفى الصباح روت كل مجموعة ما سمعت ومارأت : لا شىء إلا الكلاب . . وإلا الراهبات وإلا صوت رجل أعرج يجرى بسرعة ، وفى حالة غضب . . وهذا الغضب واضح من اقفال الأبواب وفتحها بعنف وتخبطه فى أثاث البيت .

وكان يقوم بتمويل هذه « البعثة » رجل انجليزى اسمه اللورد بوت . . وتلقى اللورد بوت معلومات غريبة لم يصدقها ، وقرر أن ينام هو وحده فى غرفة اللواء روبى . واحتاط لكل شىء . وضع إلى جواره مسدسًا سريع الطلقات . . ووضع عددًا من الشموع . . ثم أتى بعشرة كلاب . . وجعل هذه الكلاب تنام على السرير المجاور لسريره . كما كان يفعل اللواء روبى .

وفى هذه الليلة قرر ألا يشرب الخمر وألا يشرب أحد فى البيت . . وأن يخرج كل من فى البيت ، وأن يتأكد بنفسه من ذلك . . وقرر أن يطعم هذه الكلاب وأن يسقيها . . وأن يربطها فى السرير . وأن تكون الكلاب مربوطة بعضها ببعض .

وأقفل كل غرف القصر ، وتأكد من كل باب وكل نافذة . وآوى إلى فراشه مبكرًا . ويبدو أنه قرر إلا ينام حتى الصباح . وأخذ معه كتابًا وظل يقرأ فيه !

ولم يجد رجال جمعية الدراسات النفسية طريقة لدخول القصر سوى تحطيم الباب الخارجى . . وحطموه . . ثم حطموا باب الغرفة التى نام فيها اللورد بوت . ودخلوا الغرفة . . وجدوا الكلاب كلها قد نامت . . ثم وجدوها ميتة فى غاية الهدوء . . وأما اللورد فقد نام وانكفأ الكتاب على وجهه تمامًا ! . . ولم يكن اللورد ميتًا . . وإنما استغرق فى نوم عميق . . أما الذى قاله اللورد بوت فهو كل الذى جاء على هذه الصفحات . . فهذه كلها معلومات عن حياة اللواء روبى وعن علاقته بإخوته وعن حبه للكلاب وقد سمعها منه أثناء النوم . . ثم قال له اللواء روبى : ولكى يعرف الناس جميعًا أننى لست مجنونًا فسوف أكتب لهم وصيتى بخط يدى مرة أخرى !

ولما قلبوا صفحات الكتاب الذى كان يقرأه اللورد بوت ، وجدوا صفحاته بيضاء تمامًا إلا من وصية اللواء روبى !

.. عاد ليقول الذى رآه بعد الموت ؟!

هذا الرجل الطويل العريض اسمه سير تريسترام . وهذا القصر الضخم والمزرعة الواسعة والخيول الكثيرة والخدم العديدون ، كل هؤلاء قد ورثهم عن أبيه . . وهذه الرقة والعذوبة والشاعرية فى صوته وفى علاقاته بالناس قد ورثها عن أمه . فأمه كانت تغنى وكانت تنظم الشعر . . وعندما أقترب من القصر سأل المشرفة على البيت : وأين سيدتك ؟

قالت : فى الفراش ؟

ـ نائمة ؟

ـ أعتقد ذلك ياسيدى . . أو مريضة . .

وبسرعة اتجه إلى غرفة زوجته . . دق الباب . . سمع صوتًا مرحبًا . . دخل . . جلس على طرف السرير وهو يقول : كيف حال سيدتى اليوم ؟

ـ بخير . . لولا اننى أريد أن أرجوك فى شىء واحد مدى حياتى .

ـ الأمر لك .

ـ أرجوك ألا تسألنى عن هذا الشريط الأسود الذى ألفه حول ذراعى .

ـ لن أسألك عن شىء لا تريدين منى أن أعرفه .

ـ شكرًا . .

ـ لقد أعددت الخيول لنزهة أخرى . . سوف نعود إلى الغابة . . لعل الهواء المنعش أن يشفيك .

وقالت الزوجة : ولكنى اليوم حزينة .

ـ لماذا ؟

لسبب عجيب . . أعتقد أن اللورد تايرون قد مات منذ ثلاثة أيام . . مات يوم الأربعاء الساعة الرابعة !

وضحك زوجها وهو يقول : ولكنك لا تؤمنين بهذه الخرافات . هل نسيت لماذا تزوجتك . أنا تزوجتك لأنك جميلة ولأنك كافرة ملحدة . . متحررة التفكير . . هل نسيت ذلك ؟ !

وتقول الزوجة : لقد مات اللورد . . هذا أكيد . . فقد ولدنا نحن الاثنين فى عام واحد . . وأنت تعرف هذا الرباط الروحى الذى كان بيننا . . كنا أخوين . . توأمين . . وكانت صلتنا عميقة . . واليوم أشعر تمامًا أنه توفى . . هذا أكيد . ولذلك لا أعتقد أننى سوف أخرج اليوم للنزهة . .

وقال الزوج : أمرك . . ولكن أرجوك ألا تصدقى مثل هذه الوساوس . . أو الخرافات .

وقالت الزوجة : عندى خبر يسعدك .

ـ ما هو . . أسرعى .

ـ إننى حامل .

وقد ظهرت السعادة على وجه الزوج . . ونادى الخدم وهو يقول : لا خيول اليوم . . السيدة سوف تلزم الفراش هذه الشهور القادمة . . إنها تنتظر حادثًا سعيدًا .

وعادت الزوجة تقول له : والمولود سوف يكون ولدًا !

ولابد أن الزوج الرقيق لم يشأ أن يناقش الزوجة . . واكتفى بهذا الخبر السعيد ، وسواء كان المولود ولدًا أو بنتًا . . وعاد إلى الجلوس إلى جوارها فى الفراش يذكرها بأيام الحب الأولى . . ويعدها بمزيد من الراحة والسعادة والبنين والبنات والأحفاد .

ثم جاء خادم يعلن أن رسالة قد جاءت من قصر اللورد تايرون . وكانت الرسالة من سكرتير اللورد . . شيء عجيب غريب . . لقد ظهر الشحوب على وجه الزوج . . فسكرتير اللورد يعلن أن سيده قد مات يوم الأربعاء الساعة الرابعة .

وبعد شهور أنجبت ولدها الأول .

وبعد ست سنوات مات زوجها !

وقررت الأرملة الجميلة نيكولا ألا تتزوج . . وكانت فى الرابعة والثلاثين من عمرها . . واعتزلت الحياة . . ولم تكن تذهب إلى الكنيسة أول الأمر . . ثم عادت وذهبت إلى الكنيسة . . ورأى الناس جمالها وهدوءها ورقتها . . ورأوا شيئًا باهرًا على وجهها . هذا الصفاء . . هذا الضياء . . هذا الحزن العميق . . وهذه الرغبة الواضحة فى أن تقاومه . . إنها حريصة على الحياة . هذا واضح . وتريد أن تعيش . وتريد أن تنسى . . ولا تحب أن يذكرها أحد بشيء من ماضيها .

وفجأة قررت الزواج من شخص وسيم أصغر منها فى السن كان ضابطًا . وكانت حياتها معه قاسية أول الأمر . وأنجبت له ابنة . . ثم اعتدلت هذه الحياة . . وأصبحت هادئة ناعمة . . وأعلنت الزوجة إنها سعيدة . . وإنها لا يمكن أن تكون أسعد مما هى الآن . وكانت تقول للناس : إذن من الممكن أن يبدأ الإنسان حياته الزوجية تعيسًا ثم يصبح سعيدًا . . لابد أن نوعًا من سوء الفهم هو أول ما يربط الزوجين . . بمرور الوقت يتلاشى كل خلاف بين الزوجين . وبعد ذلك يصبح الاثنان صديقين ثم عاشقين . . ممكن - وأنا اليوم عاشقة لزوجى . . أما شعوره هو فاسألوه عنه !

وكان الزوج الجديد يعلن للناس : أنه أكثر عشقًا لزوجته الجميلة الرقيقة المتسامحة من أى وقت مضى .

وكانت الزوجة تقول : لست متسامحة . . أو متهاونة . . وإنما متفاهمة .

ويقول الزوج : أحسنت التعبير . . فالتفاهم أصعب من التسامح . . وأنت جعلت الصعب سهلاً . . وهذه عبقريتك .

وتقول الزوجة : بل إنها عبقريتك أن جعلتنى هكذا . وكان هذا الحوار مألوفًا بين الزوجين وعلى مسمع من الناس !

ومضت السنون . . وقررت السيدة نيكولا هذه أن تحتفل بعيد ميلادها الواحد والخمسين . . وكانت فى أقصى درجات السعادة . . وتريد أن تحتفل بشىء آخر انها حامل . . وكان زوجها أسعد منها . . وشاءت أن تجعل الاحتفال كبيرًا . . فدعت الأصدقاء والصديقات ودعت طبيب الأسرة . . ودعت كبير أساقفة مدينة دبلن بايرلندا . . ودعت ابنها الأكبر ماركوس (٢٢ سنة) وابنتها المتزوجة الليدى جانيت . . ودعت زميلاتها فى الدراسة وطلبت من خادماتها دعوة صديقاتهن أيضًا .

وعندما جاء كبير أساقفة دبلن فتحوا له الأبواب ودخل مباشرة إلى غرفة السيدة نيكولا. ونهضت لاستقباله . وقال لها : سعيد برؤيتك يابنتى الصغيرة .

فقالت : صغيرة . . إننى لم أعد صغيرة ياأبى .

ـ لاتبدو عليك سنك يابنتى . . فأنت جميلة الروح شابة الوجه .

ـ فى الواحدة والخمسين من عمرى وتقول عنى شابة .

ـ فعلاً شابة . . ولكن من قال إنك فى الواحدة والخمسين ؟ لقد ناقشت هذا الموضوع مع والدتك منذ سنوات .

ـ نعم فى الواحدة والخمسين لأننى قد ولدت مع اللورد تايرون فى عام واحد . هو ولد سنة ١٦٦٥ .

ـ لا أظن ذلك يا ابنتى . أنت ولدت سنة ١٦٦٦ . . وأنا أعرف ذلك جيدًا . . ولدت يوم الحريق الشهير الذى شب فى لندن . . وكان ذلك سنة ١٦٦٦ . هذا لا جدال فيه . . فأنت الآن فى الخمسين من عمرك !

وامتقع وجهها . . وتساقطت على الفراش . واقترب منها كبير الأساقفة يعاونها على الوقوف . ولكنها اعتدلت فى وقفتها بسرعة وقالت : يا أبى أنت الآن حكمت بموتى . سوف أموت لا شك فى هذا . وفى وقت قريب جدًا . . أقرب مما تتصور . أرجوك أن تستدعى ابنى وابنتى . . أرجوك بسرعة .

وخرج كبير الأساقفة واستدعى ابنها وابنتها . . ودخل الاثنان وطلبت إليهما أن يغلقا الباب بالمفتاح . وإلا يدخل أحد . وأن يستمعا إلى قصتها .

قالت الأم : ليس عندى متسع من الوقت . لأننى سوف أموت اليوم . . فأرجو أن تستمعا إلى قصتى .

وتمددت الأم فى فراشها لتقول : تعلمان اننى واللورد تايرون كنا صديقين . . أخوين . . توأمين . . وكان يشرف على تربيتنا نحن الاثنين رجل من رجال الفلسفة . وكان متحررًا . كافرًا . لا يؤمن بالله ولابالقيامة . لا شىء مطلقًا . كان يرى أن الدنيا هى حياتنا وبعدها لا شىء . . كما تموت الكلاب . . أو الأشجار ـ. لا شىء بعد هذه الحياة . . فليس لنا غيرها . . ومن الأفضل أن نعيشها كما يحلو لنا وإلا فنحن أحرار نفعل ما نشاء بها نشاء .

ونظرت الأم إلى ولدها وابنتها . . ورأت الدهشة والشك ولم تشأ أن تسألهما عن شيء واستمرت تقول : واتفقنا ونحن صغار . . أن الذى يموت منا أولا يجب أن يعود ليقول للآخر ما الذى رآه وراء هذا العالم . وأيهما أفضل الكفر أو الإيمان . . وتعاهدنا على ذلك . وأقسمنا بالأخوة والحب الشريف الذى بيننا . . وكبرت . . وكبر هو .

ونظرت إلى ابنها لتقول : وتزوجت أباك . ولم أعد أرى اللورد تايرون أو أسمع عنه مطلقًا . وفى أحد الأيام ذهبت لزيارة عمتك . وأعطتنا غرفتها وكانت غرفة جميلة . مريحة . ونمت نومًا عميقًا . ولكن فى الليل وقبيل طلوع الشمس أحسست أن أحدًا فى الغرفة . وأنه قريب جدًا منى . . وصحوت لأجد اللورد تايرون جالسًا إلى جوارى على السرير . . وانزعجت وخفت . . وهززت والدك لعله يصحو . . ولكنه لم يتحرك فقد أغرقه النوم فى هدوء عميق . وسألت اللورد تايرون : ما الذى أتى بك ؟ فقال : الاتفاق السابق ؟ قلت : لا أفهم ؟ قال : هل نسيت اننا اتفقنا أن الذى يموت منا يعود ليقول ماذا رأى . . وأنا مت يوم الأربعاء الماضى الساعة الرابعة . . وجئت لأخبرك بكل ما تريدين ؟ وسألته : وما الذى تريد أن تقوله . . . فأجاب :

أن الإيمان هو الطريق السليم . . وأن هناك إلهًا . . وإنه لا إلّه إلا الله . . وأن الخير حق . . والحب حق . . والعطف حق والرحمة حق . . وأن الدنيا زائله . . وأن هناك حياة أخرى أروع وأجمل مما تتصورين . . وهذا كل ما سمحوا لى أن أقوله لك . . ومسموح لى أن أقول لك شيئًا آخر . . وسألته : ماذا ! فقال : أنت حامل فى طفل ذكر .

وهنا اقترب منها ابنها . . ليجعلها تستريح فى فراشها ، لانها قد اضطربت قليلاً وحاولت النهوض . ولكن السيدة نيكولا قالت : انتظر يا ولدى . . ثم قال لى أن زوجى ، والدك ، لن يعيش إلا ست سنوات . . وقد مات أبوك بعد ست سنوات من ولادتك !

وسكتت السيدة نيكولا دون أن تنظر إلى ابنها وابنتها . . ثم عادت تقول : وأخبرنى اللورد تايرون بأننى سوف أتزوج مرة أخرى . وسوف أموت وفى بطنى جنين . وأننى سأموت فى الخمسين من عمرى . وسألته : ولا أستطيع أن أمنع ذلك . . ؟ قال : فى استطاعتك إذا لم تتزوجى ؟ وسألته : هل أنت سعيد ؟ فأجاب : نعم . . وإلا ما جئت إليك . . وقلت له : إذا طلع النهار فكيف أعرف أن الذى أراه الآن ليس وهما وإنما هو حلم من الأحلام . . فأجاب : ألم أقل لك اننى مت منذ أيام . . أليس هذا دليلاً كافيًا ؟ فقلت له : اننى أحلم كثيرًا بمثل هذه الأشياء التى تصدق . . فقال : إذن أمسك هذا العود الحديدى فى الغرفة المجاورة وأعصره بيدى عصرًا . . وهذا ما لا يستطيعه أى إنسان .

قلت له : إن الإنسان وهو نائم يكون أقوى . . وقد سمعت عن أناس فعلوا ذلك قبلك . . قال : إذن أكتب لك سطرًا فى كراستك هذه . . وأنت تعرفين خطى . . فقلت له : اننى لا أصدق . . قال : أعرف أن رأسك ناشف .

وتقدم ابنها ليقول لها : أمى . . ارجوك أن تستريحى . . وأن تكملى هذه القصة فيما بعد . . فالناس كلهم ينتظرونك . . واليوم عيد ميلادك . . وسوف يكون عندنا وقت لكل شىء . . أرجوك حتى لا تقلقى الناس عليك . .

وقالت ابنتها وهى تبكى : كثير على النفس هذا الذى قلت يا أمى . . كفى . . بعد الاحتفال . . سوف نسافر معًا . . إن الحياة فى هذا القصر قد تركت أثرها العميق فى نفسك .

وكأن الأم لم تسمع شيئًا واستأنفت حديثها : وقال لى اللورد تايرون إذن سأترك أثرًا على يدك لا يمحى . ولكن أرجو ألا يراه أحد ما دمت حية . . ثم لمس يدى بأصابعه التى كانت كالرخام البارد . . وتركت أصابعه على يدى خمس علامات حمراء . وطلب منى أن أربط يدى بشريط أسود مادمت حية . . وذهبت إلى الغرفة المجاورة فوجدت العمود الحديدى مجدولا مثل الضفيرة . وقد التف حول العمود أيضًا شريط أسود لففته على ذراعى .

ثم سكتت لتقول : لا تمنعنى يا ولدى فما يزال هناك الجانب الرهيب من القصة . . فقد مات أبوك فى الوقت الذى حدده بالضبط . . وحاولت أن أبطل نبوءة اللورد تايرون فامتنعت عن الحياة الاجتماعية حتى لا أتزوج وحتى لا أموت أثناء الحمل واختفيت تمامًا عن الناس . . ولكن شعورًا قويًا غمرنى ودفعنى إلى الإيمان بالله . . وإلى الصلاة . . وكنت أصلى فى صمت . . أتوجه إلى السماء وأطلب الرحمة والمغفرة لكل الناس . . وكنت أقول : يا الله . . يا أقوى الأقوياء . . ارحمنى . . انى ضعيفة . . إننى لا أعرف من عظمتك إلا القليل . . ولا ذنب لى . . فعقلى صغير . انى نملة على جبلك الشاهق . انى شمعة فى شمسك الباهرة . . هكذا كنت أصلى وأتعبد . . ولا أعرف كيف رأيت زوجى الثانى أنه شاب جميل رقيق . . أصغر منى فى السن . . وأحببته فجأة وقررنا الزواج . . ولم احتفل بعيد ميلادى الخمسين . . فقد خفت أن تكون هذه هى النهاية . . . ولما تجاوزت الخمسين من العمر كانت سعادتى لاحد لها . . فقد تجاوزت سن الموت الذى تنبأ به اللورد تايرون . . ثم انى حملت أيضًا . . وأنت يا ابنتى تعرفين فرحة الأمومة . . حتى جاء كبير الأساقفة . . وعرفت منه انى أخطأت فى الحساب طول هذه السنوات . . فلم أكن قد تجاوزت الخمسين بعد . . فأنا فى الخمسين . . ومعنى ذلك انى سوف أموت . . لا محالة . . سوف أموت وفى بطنى هذا الجنين !

وسكت الجميع . .

وقالت الأم : والآن يا ولدى . . والآن يا ابنتى . . حانت لحظة الوداع . . شىء واحد أرجوه منكما أن تفكا هذا الرباط الأسود . . وأن تريا معًا أثر أصابعه الخمس . . أما المعنى الذى أراده هو أو أردته أنا من هذه القصة فسوف يكون لديكما وقت طويل للتفكير فيه . . أخرجا الآن . . ثم ارجعا بعد قليل ! شىء هام نسيت أن أقوله مبروك يا ولدى . . سوف تتزوج ابنة اللورد تايرون !

وخرج الأخ والأخت . . ودخلت الخادمة . . ونزل الأخ والأخت إلى الضيوف ليقولا : إنه تعب طارئ ولكنها بعد قليل سوف تكون أحسن .

وتعالت صيحات الخادمة .

وصعد الجميع إلى غرفة السيدة نيكولا . ليسمعوا الخادمة تقول : ماتت . . سيدتى ماتت !

وفى جنازة السيدة نيكولا كان ابنها يمشى إلى جوار فتاة جميلة . . إنها ابنة اللورد تايرون . . وأمام قبر أمه قال لها : إن أمى لم تكن تعرف أننى أحبك . ولم أفاتحها حتى فى الزواج منك . وكان فى نيتى أن أفعل ذلك فى أقرب وقت . . ولكن والدك كان يعرف ذلك تمامًا ومن وقت طويل جدًا .

وتقول الفتاة فى ذهول : والدى . . لم أفهم !

ويرد عليها قائلاً : نعم والدك . . وهذا ما سوف أرويه لك فيما بعد !

أصابع الديك الرومى على كتفيه !

فى سنة ١٨٩٧ احتفلت بريطانيا بالعيد الماسى لحكم الملكة فكتوريا . وبعد أربع سنوات اهتزت بريطانيا وأوروبا لوفاتها فى جزيرة وايت ونشرت الصحف كيف كانت الجنازة . . ومن الذى حضر ومن الذى غاب . . ومن الذى سقط من البكاء ومن الذى انتحر حزنًا عليها

وسمع الملك إدوارد (٦٠ سنة) أنه أصبح ملكًا . . ووصفت الصحف مرة أخرى الملك الجديد . . وكيف أنه يريد أن يكون مختلفًا وأن يكون عمليًا وكيف أنه بسرعة أصدر مرسومات بتغييرات جوهرية فى القصر وفى علاقاته كملك وحاكم جديد !

وكانت الشهور الأخيرة من حياة الملكة حزينة . . فقد كانت هناك حروب ضارية فى جنوب أفريقيا . . وما تزال الصحف تنشر أيضًا كيف أن البوير ـ أى الهولنديين ـ ما يزالون يقاومون ولكن الحرب لم تتوقف . .

ونشرت صحيفة (ديلى ميل) كيف أن مراسلها ادجار والاس ، الذى أصبح أديباً كبيرًا بعد ذلك ، يؤكد للقراء أن الحرب فى جنوب أفريقيا قد أوشكت على

النهاية. . وأن هذه النهاية حتمية . . وإنه يطلب إلى الشعب الإنجليزى أن يصبر قليلاً . .

وقالت الصحيفة أن مراسلها هذا شخص موثوق به . . وأن كلماته لها وزن وإنه يستمتع بسمعة طيبة وكفاءة عالية . .

ونشرت صحيفة « ديلى ميل » أيضًا فى نفس يوم جنازة الملكة فكتوريا مناقشة حادة بين عضو مجلس عموم شاب اسمه ونستون تشرشل وبين مندوب الصحيفة البرلمانى . . وموضوع المناقشة أن هناك شائعات تقول بأن تشرشل لم ينجح فى الهرب من معارك جنوب أفريقيا ، وإنما الهولنديون هم الذين هربوه . . فكل ما يقوله عن محاولاته فى الهرب والحيل التى لجأ إليها ، كلها من خياله . .

ونفى تشرشل كل ما قيل عنه . . وقال إنه هرب . . وإن الهولنديين كانوا يطالبون بعنقه . . وأن لديه أدلة على ذلك . . وإنه أصيب أكثر من مرة وأن جنودًا يشهدون على ذلك . .

وقد كان تشرشل فى العام الأسبق ضابطًا يقاوم الهولنديين فى جنوب أفريقيا . .

ووعد تشرشل بأن يستأنف الحديث فى هذا الموضوع الذى يرى أنه يمس كرامته فى صميمها . . لا كجندى فقط ولكن كعضو برلمان ومواطن بريطانى وطنى فى الدرجة الأولى

وطلعت الصحف فى الأيام التالية ، ولكن تشرشل لم يستأنف كلامه فى هذه القضية . .

وفى نفس يوم الجنازة نشرت الصحيفة أيضًا رسالة من باريس تقول إن البوليس الفرنسى بعد أن كان يستخدم الدراجات عدل عنها واستخدم السيارات. . وهذه خطوة متطورة جدًا . . ومن مهام رجال البوليس أن يلاحقوا السيارات التى تنطلق بسرعة جنونية تهدد حياة الناس فى الشوارع وخصوصًا السيارات التى تمشى على الجانب الأيسر من الشارع . ولكن هناك مناقشة حادة بين الفرنسيين موضوعها :

ولكن سيارات البوليس سوف ترتكب مخالفات كثيرة من بينها أنها لكى تطارد سيارة مسرعة سوف تكون هى أسرع منها ـ وهذه مخالفة ! ولكى تطارد سيارة مسرعة سوف تمشى إلى يسارها ومسرعة أيضًا ـ وهذه مخالفة ثانية ـ وسوف تضطر سيارة البوليس إلى اطلاق أصوات مزعجة جدًا لتحذر المشاة والسيارات الأخرى ـ وهذه مخالفة أخرى . والقضية الآن : من هو الذى يلاحق سيارات البوليس حتى لا تقع فى كل هذه المخالفات التى تحذر المواطنين العاديين من الوقوع فيها ؟!

ويبدو أن الفرنسيين لم يتفقوا على حل ـ فهم بحكم العادة فلاسفة . . وكل موضوع له عدة أطراف ونظرات ونظريات . . وهذه متعتهم الكبرى ـ هكذا قالت الصحيفة أيضًا !

وفى يوم جنازة الملكة فكتوريا نشرت صحيفة (ديلى ميل) . أيضًا هذه القضية : هل التدخين أثناء المشى فى الشارع عيب ـ والمقصود هو تدخين المرأة وليس تدخين الرجل !

وقيل فى هذا اليوم أن الحياة أصبحت سريعة . . ولم يعد لدى الإنسان وقت لكى يفعل كل شىء وهو جالس . . أنه ينطلق . . فلماذا لا يدخن فى الشارع . . ؟ إن الرجال يفعلون ذلك . . ولم تعد هناك فوارق كبيرة بين الرجل والمرأة . . وما دام الرجل يوافق على أن تدخن المرأة ، فلماذا لا تدخن فى المكان الذى تراه . . أو يعجبهاـ هذا رأى . .

رأى آخر يقول : إن مادة النيكوتين ضارة بالرجل . . ولكنها مفيدة للمرأة . .

رأى ثالث يقول : إن مادة النيكوتين تضعف الرجل جنسيًا . . وتثير المرأة جنسيًا . . فليس من العدل أن نصب الماء على رأس الرجل ونشعل النار فى جسم المرأة . ثم نطلب إلى الرجل أن يقوم بدور رجال المطافئ ـ دون أن يكون رجلاً بهذه الصراحة ؟!

ورأى رابع يقول : من المؤكد أن مادة النيكوتين ضارة للرجل وللمرأة . . وكل إنسان حر فى أن يموت بالطريقة التى تعجبه . . وإن كانت المرأة لا تموت بنفس

السرعة . . ولا بنفس السهولة التى يموت بها الرجال . . فمن يدرى ربما كانت هذه السجائر الرقيقة الناعمة هى السلاح الأكبر للقضاء على سلاح آخر أكثر نعومة ورقة ـ أى المرأة ؟!

وفى يوم جنازة الملكة فكتوريا نشرت نفس الصحيفة أن شابًا أحب فتاة واتفقا على الزواج . . وقررا أن يسافرا بعد الزواج مباشرة إلى الهند . . وأن يغيرا دينهما هناك . . وأن يعيشا معًا حياة أبسط وأرق . . وتناقش رجال الدين : هل هذا الشاب يعتبر كافرًا . . صحيح أنه لم يغير دينه بعد ولكنه وعد بذلك . . ثم أن الفتاة اعترفت بأنها لن تغير دينها إلا بعد أن ترى الحياة فى الهند ، وحتى يقنعها رجال الدين الهنود بأن تغير دينها ! وقال أحد رجال الدين : أنه حر فى أن يفعل بقلبه ما يشاء . . إن شاء جعله يتجه إلى الغرب أو إلى الشرق . . فالله موجود فى كل مكان وفى كل شىء . . ومن يدرى ربما عاد من الهند إلى انجلترا أكثر ايمانًا فلماذا نحرمه من حرية التفكير وحرية الإيمان ؟

ونشرت الصحيفة أيضًا أن احد علماء الاجتماع قد أبدى ملحوظة غريبة وهى أن ابناء الأسرة الواحدة إذا تزوجوا كان من نتيجة ذلك ظهور عدد كبير من المرضى والمصابين بالتخلف العقلى . وأنه لا يعرف بالضبط ما هو السبب وأنه يدعو غيره من العلماء والأطباء إلى البحث عن الأسباب الأعمق وراء ذلك .

. . وفى هذا الجو الواقعى العلمى السياسى العسكرى المثير نشرت الصحيفة هذه القصة العجيبة . . وقدمت لها بهذه الكلمات : « عزيزى القارئ . . هذه القصة هى أغرب وأعجب ما رأينا . . وهى بقلم أديب وكاتب عظيم الشأن . . وصادق الى أبعد حد . . ويستمتع بالاعجاب والتقدير من ملايين الناس . . وهو لم يسمعها من أحد . . ولااخترعها وانما هو رأ ى وسمع وأحس . . وقبل أن يكتب رأى وسمع وأحس . . ولم يكن وحده . . وانما كان يجلس معه زميل عظيم الشأن ايضًا وله سمعة هائلة فى هذه البلاد . وقد سمع الاثنان . . ورأى الاثنان . . وأحس الاثنان وهما فى غاية الدهشة والذهول . . وليس عندهما دليل واحد ضد هذا الذى

رأياه . وبعبارة واحدة : انهما لايؤمنان بالأشباح والأرواح . . وهما فى نفس الوقت لايكذبان الأشباح والأرواح . . وليس لديهما دليل واحد على صدق أو كذب ما رأياه . . ولكن كل كلمة فى هذه القصة صادقة . . وهما ينشرانها ويتركان للعلماء ولرجال الدين والمشتغلين بالدراسات النفسية والروحية والروحانية والغيبية أن يقولوا كلمتهم » .

أما القصةالتى نشرتها (ديلى ميل) فى أوائل سنة ١٩٠١ فهى ، كما كتبها الكاتب الكبير الذى سوف نعرف من هو بعد قليل :

« سمعت أن هناك بيتا صغيرا لا يقوى أحد على البقاء فيه سوى أسابيع قليلة . . وبسرعة يهجره . . وبأى ثمن . . والذى يترك البيت لا يقول شيئًا . . أو على الأصح يقول أشياء كثيرة متضاربة . ولابد أن فى الأمر شيئًا . . وأن هذا الشىء يغرى أى كاتب مثلى أن يبحث عنه . . ومن الغريب أن بعض الذين سكنوا البيت قد تركوا فيه كل شىء . . الأثاث والكتب والملابس . . وهربوا بجلدهم . . ولكن لماذا ؟

وقررت أن أذهب وأقيم فى هذا البيت . .

وأقنعت صديقًا لى . وذهبنا إلى البيت . . البيت من ست غرف . الدور الأرضى لا يسكنه أحد . . ولكن الدور العلوى هو الذى اعتاد أن يسكنه الناس وأن يهربوا منه . الغرف كلها متداخلة . . مفتوحة بعضها على بعض . . البيت نظيف . . الأبواب كبيرة . . النوافذ محكمة . . المصابيح الكهربية تتدلى من كل مكان وباسراف شديد .

وقررت اخلاء البيت من كل شىء . . الكتب نقلناها والمقاعد والدواليب وأدوات الطعام والشراب . . لا شىء بالمرة . . وجئت بعدد من الخدم نظفوا البيت تمامًا . . وغسلوا الأبواب والنوافذ . . وأصلحوا كل شىء . . الأبواب اصلحت . . والنوافذ . . ومصابيح النور . . وأحكم كل شىء . .

ونظرت إلى صديقى وقلت له : أن الهواء نفسه لا يستطيع أن يدخل هذا البيت!

وفى احدى الليالى قررنا أن نذهب إلى هذا البيت . . آه . . نسيت أن أقول انتى أخذت غرفة متوسطة فى هذا البيت ، ووضعت فيها ترابيزة وحولها مقعدين ، نجلس عليهما .

وجلسنا نتحدث فى أى شىء . . ونحن نعلم طبعًا أنه من الممكن أن يحدث أى شىء . . ووضعت الساعة أمامى على الترابيزة . . وإلى جوارها ورقة وقلما لكى أسجل كل ما سوف يحدث بالدقيقة والثانية . . وفى الساعة الثانية عشرة مساء وأربع دقائق حدث شىء . . فنظر كل واحد منا إلى باب ، لأن الغرفة لها بابان ، وتقاربت أيدينا وضغط كل منا على يد الآخر . . وتحركت يد الباب . . هذا الباب وذلك الباب . . ونظرنا نحن الاثنان بسرعة إلى الاتجاهين . . وانفتح الباب الأيسر برفق شديد . . وانفتح على آخره . . . وبعد ست ثوان انفتح الباب الآخر قليلاً قليلاً . . ثم انفتح على آخره .

وهذا كل شىء . . وسجلت أمامى فى الورقة هذا الحادث . . وسجلت الساعة والثانية .

ونهضنا نحن الاثنين . . نفتش فى البيت كله . . وكانت كل الأنوار مضاءة لا أثر لأى شىء : . ولا يمكن أن يكون تيار الهواءهو الذى فتح البابين . . غير معقول أن يحرك الهواء يد الباب الأيمن والباب الأيسر . . الواحد بعد الآخر . . لا هواء . . ولكن لا أحد أيضًا . . شىء غريب !

وأقفلنا البابين بالمفتاح . . ثم بالترباس . . وعدنا إلى الجلوس نتكلم فى أى شىء . . ولا أعرف بالضبط ما الذى كنا نقوله وأعترف بأن شيئًا من الخوف قد اعترانا ونظرت إلى الساعة أمامى وأمسكت القلم لكى أسجل ما سوف يحدث بعد ذلك وفى الساعة الواحدة والدقيقة العاشرة رأيت الترباس يرتفع وينزل إلى جوار الحائط . . ثم سمعت صوت مفتاح فى الباب يدور . . ثم يد الباب تتحرك وينفتح الباب فى هدوء شديد . . قليلاً قليلاً . . ثم انفتح تمامًا . .

وبعد ست ثوان اتجهت إلى الباب الآخر . . ورأيت حركة الترباس وسمعت المفتاح ورأيت يد الباب وانفتح على آخره . . وساد صمت تام . . وشعرت بالفزع أنا وصديقى . . لا شك فى ذلك هذه المرة .

وقررنا أن يقف كل منا وراء الباب ويسنده بظهره . . وكانت الساعة الثانية صباحًا . . ونظرت إلى الساعة على الترابيزة . وفى الساعة الثالثة وأربع دقائق تحركت يد الباب بهدوء . . ووجدت الباب يدفعنى إلى الأمام برفق شديد . . ورغم محاولتى أن أصده وأن أوقفه ولكن الباب ينفتح كأننى لا شىء . . وبعدذلك بست ثوان رأيت صديقى هو الآخر يندفع إلى الأمام .

أما الشىء الجديد فهو صوت غريب يمشى على الأرض بين البابين . . وقع أقدام . . ولكنه ليس كأقدام الإنسان . . ولا أعرف بالضبط ما هذا الذى سمعناه . .

وجلسنا إلى الترابيزة فى صمت . . ولا نقول شيئًا . ولكن الخوف قد تملكنا . . لا جدال فى ذلك . . غير أن رغبتنا فى أن نعرف ما هذا الذى يحدث قد جعلتنا نفكر فى شىء آخر . . فقد أحضرت معى مسحوق الطباشير . . ورحت أنثر هذا الطباشر على أرض الغرفة كلها بين البابين . . وتأكدت أن الأرض تغطت تمامًا . ثم جلسنا مرة أخرى إلى الترابيزة والساعة أمامى والقلم والورقة . . وفى الساعة الثالثة . . تحركت يد الباب . . وانفتح الباب . . وسمعنا الصوت على الأرض . . ونظرنا إلى الأرض . . اننا نرى بوضوح آثار أقدام طائر كبير . . أنه يشبه الديك الرومى . . وهذه الآثار تتحرك فى اتجاه الباب الآخر . . وينفتح الباب الآخر !

وبسرعة انحنيت على الأرض . . ورأيت أصابع الديك الرومى . إنها غائرة فى الطباشير وواضحة تمامًا . . أن طولها بوصتان وثلاثة أرباع البوصة . . وهى تمشى فى اتجاه واحد . . من هذا الباب الأيمن إلى الباب الأيسر .

وعند هذه الساعة المتأخرة من الليل ، قررنا أن نخرج . . وخرجنا وكان الهواء

منعشًا . . ولكن الغموض والظلام والقشعريرة تسرى فى جسم كل منا . لقد رأينا . وسمعنا . ورأينا وسمعنا . . وتأكدنا وليس عندنا أى دليل على كذب أو صحة ما رأينا . وأنا انشر ذلك لأنه حدث . . ولأننى فى حاجة إلى من يبحث هذا اللغز . أما العنوان فإننى سوف أعطيه فقط للجمعيات أو الهيئات الجادة . . لأنها قضية جادة . . ولأننى نشرتها لا حرصًا على إثارة الناس . . ولكنى أريد أن أفهم . . وأن يعاوننى أحد على الفهم . . »

وهزت القصة قلوب الناس . تزاحم الكثيرون على الصحيفة يسألون عن هذا البيت أو هذا المكان . وامتلأت البيوت بالمخاوف والعفاريت والأشباح ووجد الناس شيئًا جديدًا يثيرهم وينعشهم . . وتبدلت البلادة العقلية إلى رجفة نفسية . . وانتهزها رجال الدين ليعلنوا أن الروح حق . . وأن الأرواح شريرة وطيبة وأنها فى كل مكان . . وإنها بيد الله يحركها متى يشاء وأين يشاء . . وأن العقل ما يزال يحبو وأنه عاجز عن معرفة كل شىء .

وفى اليوم التالى تقدمت لصحيفة (ديلى ميل) سيدة من احدى الجمعيات الروحية تقول إنها منذ أربعة أيام كانت تجلس فى بيتها وفى حالة « استقبال » أى إنها جلست إلى مكتبها . . ووضعت القلم فوق الورق لعلها تستقبل أية روح شاردة تحل هذه الروح فيها أو فى يدها أو فى القلم . . ثم تكتب أى شىء . .

ومن الغريب أن هذه السيدة قد نامت على مكتبها . . وعندما صحت من النوم وجدت أن القلم قد رسم طائرًا غريبًا . . وأن هذا الطائر أقرب إلى الديك الرومى . وأنها عرضت هذا الرسم على رئيس الجمعية . ولم يفهم منه شيئًا . . ثم أنها وجدت عبارة مكتوبة . . هذه العبارة ليست بالإنجليزية وإنما باللاتينية . وقد ترجمت هذه العبارة على هذا النحو : مسحوق الطباشير الذى بعثروه على الأرض قد كشف الحقيقة !

ويمكن أن يقال أن هذه السيدة قد كذبت فلفقت هذه القصة بعدما قرأت

القصة التى نشرتها الصحيفة . ولكن الصحيفة أكدت مرة أخرى أن هذه السيدة لم تكذب . . لأن القصة قد وقعت كلها قبل النشر بأربعة أيام . . وأن هذه السيدة قد سجلت ما حدث فى نفس اللحظة التى شاهدها كاتب القصة !

وبعد ست سنوات اعترفت صحيفة (ديلى ميل) أن صاحب القصة هو السيد بلو منفلد رئيس التحرير . . أما صديقه فهو السيد بمبرتون رئيس تحرير مجلة (كاسل) . .

وشىء آخر اعترف به رئيسا التحرير أن كل واحد منهما قد اكتشف أصابع الديك الرومى منقوشة بوضوح شديد على كتفيه !

بشرط واحد: ألا تخاف !

كلما كان الإنسان ضعيفًا جسميًا أو نفسيًا كانت هذه «الكائنات» أو الظواهر أكثر التصاقًا به . فاذا حاول أن يقاومها بنفسه أو بغيره فأنها عادة تختفى !

هذا هو المعنى . . وأرجو الاحتفاظ به لأنه هو المقصود من وراء مثل هذه الحوادث الغريبة التى تقع ووقعت فى أماكن مختلفة من العالم وفى عصور متعددة . .

. . كان اللواء برسفورد أحد رجال الجيش الإنجليزى فى الهند . . عاش هناك طويلاً هو وأسرته . . ومات من الرجال كثيرون . فى حروب وفى مقاومة التمرد . . لا أحد بالضبط يعرف كم عدد الذين ماتوا أو الذين قتلوا . . وفى الهند أشياء عجيبة وغريبة وتفسيرها صعب فى ذلك الوقت والآن أيضًا .

وانتهت خدمة اللواء وعاد إلى بريطانيا . وأقام فى بيت قديم فى ضواحى لندن . والبيت من ست غرف . وبه عدد كبير من الخدم . وكل شىء هادئ ناعم . . الطعام يجئ ويختفى فى موعده . . والضيوف معروفون . . وهناك مواعيد محددة للزيارة . . وكل شىء منظم . والأسرة يمكن أن يقال إنها سعيدة . . ربما حادث واحد فقط هو الذى هز الأسرة كما تهتز البحيرة الهادئة لسقوط طوبة صغيرة . . وبعد ذلك كل شىء يعود إلى صفائه ونقائه . . ففى احدى المرات قفز أحد القرود إلى

شجرة جوز هند . وظل يتسلقها . . ثم وصل إلى قمتها . . وبعد ذلك راح يلقى جوز الهند على أفراد أسرة اللواء . . وكانوا يعجبون ببراعته فى التصويب . . وبالصدفة الغريبة جدًا التقت جوزة هند مع جوزة هند أخرى القاها قرد على شجرة قريبة . فسقطت احدى الجوزتين على رأس خادم هندى صغير فمات بعدها بقليل . . وقد حزن الجميع على ذلك ، فقد كان رقيقًا مهذبًا محبوبًا من الجميع . وأحرقت جثته فى احتفال عائلى . . وظلت أسرة اللواء تذكر هذا الحادث الأليم على أنه النقطة السوداء فى حياتها التى استغرقت عشرين عامًا فى الهند حتى ١٨٩٧ .

بعد ذلك لم يحدث شىء . . سوى أن هذه الأسرة تروى النوادر والحوادث فى الليل عن الأشياء الغريبة التى رأوها فى الهند . وكان حديثهم يحلو فى ليالى الشتاء أمام المدفأة . . وكانوا يقولون : إنها بلاد عجيبة . . أن هناك جوا روحانيًا من طراز غريب لا يعرفه الأوربيون . . وأن فى الناس نوعًا من البساطة والتسامح والزهد لا يعرفه الأوربيون !

وبعد الكلام عن البساطة والتسامح يجىء الكلام عن العادات والظواهر الغريبة . . وعندما يصل الحديث إلى هذه الأشياء يكون الليل قد انتصف وتكون الرغبة فى الاستماع إلى مثل هذه الأشياء قد خبت مثل النار فى المدفأة . . وبعدها ينامون .

وفى احدى الليالى كان اللواء وزوجته يمشيان فى حديقة البيت عندما قبضت الزوجة على ذراع زوجها بعنف وهى تقول : من الذى أتى بها هنا ؟!

ويسألها الزوج : من هى ؟

ـ هذه (الآية) ؟

ـ وأين هى ؟

ـ أمامك . .

ـ لا أرى . .

ـ إنها تقترب . .

ـ لا أرى . .

ـ إنها تنظر إلى . .

ـ لا أرى . .

ـ تقترب منى . . تقترب أكثر !

ـ ماذا جرى لك . .

ـ بل ماذا جرى لك أنت !

ـ أى . . أى . . (تصرخ) .

ـ . . . .

ويعود بها اللواء إلى البيت . .

أما (الآية) فهى كلمة هندية ومعناها : الممرضة . .

وبعد أن تصحو الزوجة من دوختها يستوضحها الزوج فتقول له : إنها رأت ممرضة هندية كانت قد دخلت بيتهم مرة واحدة . . ولكنها رأتها بوضوح . . ترتدى ثوبًا أبيض . . وتنظر لها وحدها . . وتقترب منها . . ثم تمسك ذراعها وتضغط عليها بشدة . . ولكن الزوج لا يصدق ما تقوله زوجته . . ويرى إنها متعبة . . وإنها سهرت بالأمس كثيرًا . . ولم تنل حظها من الراحة . ولأنها سيدة مجاملة جدًا فقد سايرت الضيوف أكثر مما تطيق . . وهذه عادة سيئة ـ ولابد إنها اكتسبت هذه المجاملة المسرفة من الشرق !

ولكن الزوجة على يقين مما رأت . .

وحاولت أن تفسر للزوج ما رأت . . ثم عدلت عن رأيها بأن قالت : فعلاً . . أنا متعبة . . ولابد أن يكون من مظاهر التعب الشديد أن يرتد الإنسان إلى الماضى ويختار أسوأ ما فيه ويجسمه أمامه ثم يخاف منه .

ولم تعرف الزوجة إنها بهذه العبارة قد اهتدت إلى قاعدة من قواعد علم النفس .

وفى الليل أوى الزوجان إلى الفراش ولكن الزوجة لسبب غير واضح تنبهت وفتحت عينيها . . ورأت فى الضوء الخافت هذه (الآية) مرة أخرى . . وعيناها

قطعتان من الزلط اللامع . . لا تتحركان . . ولكن مركزتان على الزوجة . . كأنها فى كابوس ثقيل والزوجة غير قادرة على الحركة . . عاجزة عن أن تمد يدها إلى زوجها لكى يصحو ويرى بنفسه . . وإنما هى متصلبة فى فراشها . . واقتربت لآية . . وصرخت الزوجة . . وصحا الزوج وأشعل المصباح . . وصحا كل من فى البيت . . ولكن الزوجة تتصبب عرقا باردًا . . ووجهها أصفر . . وروت الزوجة إنه كان كابوسًا سخيفًا . . وأنها شديدة الأسف للجميع . . ولم تنم إلا عندما طلع النهار!

وذهب الزوج يحكى للناس ما حدث لزوجته . . ونصحه الأصدقاء بأن يعرضها على طبيب . . أو يذهب بها إلى مكان آخر . . مجرد تغيير . . خصوصًا أن أعصابها قد تعبت بعد وفاة أختها الصغرى فى العام الماضى . واقتنع الزوج . . وذهب الزوجان إلى مكان آخر . ولكن الزوجة لم تفلح فى أن تنام ليلة واحدة . . وإنما كانت تنام بالنهار . . وكانت تجد لذلك عشرات الأسباب . . ولكن الزوج لم يناقشها فى شىء من ذلك . . وإنما كان يكتفى بأن يطبق نصائح الأطباء . . وكانت نصائح الأطباء تقول : لا تناقشها . . لا تضغط عليها . . دعها تفعل ما تريد . . إذا شاءت أن تقرأ . . أو تتمشى . . أو تنام مبكرًا أو متأخرًا . . إنها حرة . . وأعصابها يجب أن تكون متراخية تمامًا فهذا هو العلاج . .

وقد نفذه حرفيًا . .

وعاد الزوجان إلى بيتهما . .

وقرر الزوجان أنه من الأفضل أن ينام الاثنان فى غرفة أخرى . . وأن تكون هذه الغرفة فى الدور العلوى . . وأن تكون مطلة على الحديقة ومن ورائها الغابة والجبل . . وأصدر الزوج أوامر مشددة إلى كل من فى البيت الا يضايق السيدة وإلا يعرض عليها شيئًا يثيرها . والتزم الجميع بهذه القواعد . . حتى خطاباتها كان يفتحها اللواء . . فاذا وجدها مزعجة ، لأى سبب ، أخفاها عن الزوجة . . واستراح إلى كل هذه الاحتياطات التى يسهر على تطبيقها . . ولكن لم يلاحظ أن صحة زوجته قد تحسنت . . بل لاحظ إنها كثيرًا ما نهضت فى الليل تصرخ صرخات مكتومة . . فاذا

أقترب منها تصلبت ذراعاها على ذراعيه . . ثم تنام بعد ذلك . . وإذا مد يده إلى وجهها كان له نفس الملامح : بارد مبلل بالعرق . . شاحب يرتجف !

فاذا سأل زوجته ، كررت له الزوجة نفس الذى قالته قبل ذلك . ولم يصدق الزوج .

وسألها بوضوح : أريد أن أعرف بالضبط كيف ؟ فاننى لا أصدق هذه الخرافات . . ولا يمكن أن يقبلها عقلى . . ولكن الذى أراه فيك ، والذى أعرفه عنك ، يجعلنى احتار فى أمرك . . فأنت لا تكذبين . ولم يحدث قط أنك كنت مؤمنة بهذه الأوهام . .

وتشرح له الزوجة : كيف أن سيدة بيضاء الملابس تخرق الجدار . . دون صوت . . وتتقدم إليها دون ساقين أو قدمين وبلا صوت . . ثم إنها واضحة الملابس تمامًا . . ولكن رأسها وملامح الوجه ليست واضحة ولكن عينيها لامعتان جامدتان . . وهذا هو الشىء المخيف ثم أنها بعد ذلك تقترب منها . . وتخرج من تحت الثوب ذراعين ليس فيهما لحم . . وإنما كلهما من العظام . . وهذه العظام كأنها قطع من الرخام البارد . . ثم تقتربان من ذراعيها . . وتضغطان عليهما . . حتى تغيب عن وعيها . . ولا تعرف بعد ذلك ماذا جرى لها . . وكل ما تشعر به هو انها تحكى هذه القصة للزوج . . وترى فى عينيه : الحزن عليها ، وعدم التصديق لها . .

وفى ليلة أخرى صرخت الزوجة وكان الزوج لم ينم بعد . . وفتح النور ولم يجد إلا زوجته فى حالة فزع . . ووجدها تنظر إلى ذراعيها بسرعة . . ولما سألها قالت : كنت أرى آثار أصابعها هنا ! ونظر الزوج ولم يجد أى أثر للأصابع . .

وقرر الزوج أن ينام فى غرفة أخرى . . وأن يترك زوجته وحدها . . وطلب إلى أبنته أن تنام مع أمها . . وعادت الأم تحكى لابنتها كل ما قالته لأبيها . . وكان العطف عميقًا على أمها . . ولكنها هى الأخرى لا تعرف ما الذى تقوله . . أو ما الذى تنصح به .

وفى الليلة الأولى استطاعت الأم أن توقظ ابنتها . . وصحت الابنة لترى الاثنتان

معًا نفس الآية وهى تقترب من الأم . . تمامًا كما وصفتها الأم . . ومن الغريب أن الابنة لم تفلح فى أن تجعل صراخها مسموعًا . . ولكن الآية ظلت تقترب وتقترب . . والسيدتان فى حالة شلل . . وانحنت الآية على الأم وضغطت بأصابعها على ذراعها . وأغمى على الأم . . وتلاشت الآية . .

وسمع الأب هذه القصة من ابنته بنفس الصدق والدموع والرجفة . .

وقيل فى ذلك الوقت أنه من الأفضل أن تذهب الأم إلى رجل يفهم فى هذه الظواهر الغريبة . . وذهبت الأم والابنة والأب . . وأعيدت الحوادث كما وقعت . وبالتفصيل الدقيق . . وكان الطبيب الروحانى يهز رأسه ويقول هل أستطيع أو أوجه إليك بعض الأسئلة . .

تقول الزوجة : تفضل .

ـ هل نظرت هذه الآية إلى . زوجك قط ؟

ـ لم تفعل .

ـ هل جاءت إليك من الناحية التى ينام فيها الزوج ؟

ـ لم تفعل .

ـ هل جاءت إليك قبل أن ينام ؟

ـ لم تفعل .

ـ متى كانت تختفى ؟

ـ عندما ينفتح النور .

ـ ومن الذى كان يفتحه ؟

ـ زوجى طبعًا .

ـ إذن هى تختفى فقط عندما يصحو الزوج . . وهل كان زوجك يحزن على ما اصابك . .

ـ واضح جدًا أنه شديد الحزن على ذلك .

ويتدخل الزوج قائلاً : اننى كنت أتمزق لكل ما أصاب زوجتى . . بل اننى لم

أترك طبيبًا واحدًا إلا سألته واستحلفته أن يكون هذا سرًا بينى وبينه . . بل اننى سافرت إلى لندن ثلاث مرات . . وقابلت رجال الدين . . وقابلت عددًا من الهنود الشيوخ وسألتهم وهذه أول مرة تسمعها زوجتى . . وكل واحد منهم يقول شيئًا ولكن عقلى يرفض تصديق شىء . . لا أستطيع . . أريد أن أرى بعينى . . وأعتقد أن هذا هو أبسط الحقوق إذا أراد أحد أن يجعلنى قاضيًا فى هذه الأشياء الخارقة لقوانين الطبيعة ومبادئ العقل . . أعتقد ذلك !

وكأن الزوج لم يقل شيئًا . . عاد « الطبيب » الروحانى يسأل الزوجة : هل تعتقدين إنه يمكنك أن تنامى بعد اليوم .

ـ لا أعتقد ذلك .

ـ ولكن إذا عرفت أن هناك طريقة سهلة جدًا لكى تنامى فهل يسعدك ذلك . .

ـ جدًا . . ويسعد هذه الأسرة كلها ! .

وطلب إلى الجميع أن يخرجوا . .

وخرجوا . . وجلس إليها بضع دقائق ثم انصرف . .

وفى الليل نامت الأم والابنة فى فراش واحد . . وأطفئت الأنوار . . ولكن الأم وأبنتها نامتا متجاورتين . متلاصقتين وعيونهما تتجه إلى المكان الذى تخرج منه الآية فى الحائط إلى جوار الباب . . وفى الموعد المحدد ظهرت الآية . . هذه المرة أكثر وضوحًا . . وعيناها أكثر لمعانًا وبرودة وقد سبقتها ذراعاها . . وأصابعها . . واتجهت بسرعة أكثر من المألوف إلى الأم . . واستطاعت الأم أن تصرخ وأن تقول لها : ماذا تريدين منى . . أخرجى !

وأختفت الآية ـ ولم تجد الابنة ضرورة لأن تفتح النور . . وتجاورت الأم وابنتها ونامت الاثنتان حتى الصباح .

وفى الليلة التالية لم تظهر الآية ولا ظهرت بعد ذلك فى هذا البيت لأحد .

وعاد الطبيب يستوضح . . وقالت الأم : نعم لقد صرخت وسألتها . . ولكنها اختفت .

وقال الطبيب الروحانى : هذا ما توقعته . . فكل الكتب القديمة تقول ذلك . . فالذى يخاف منها تظهر له . . والذى يتحداها تختفى منه . .

وقال لهم الطبيب : أشياء غريبة تقع فى ذلك الجانب من العالم ويصعب تفسيرها . ولكن يظهر أن هناك قاعدة وهى أن الروح إذا أرادت أن تؤذى شخصًا اختارت أضعف الناس الذين يحبهم . ثم طاردته . ومن المؤكد انك أضعف من زوجك . وأن عذابك يعذبه . ولذلك طاردتك من الهند إلى بريطانيا . . وهناك قاعدة أخرى إنك إذا تحدثت إلى هذه الروح أو هذا الشبح فأنه لن يعود !

وعادت السعادة إلى البيت . .

وفى أحد الأعياد تعالى الصراخ فى هذا البيت مرة أخرى . وكانت التى تصرخ هى الأبنة . وتكاثر كل من فى البيت حول الفتاة . . وقبل أن يقتربوا اصطدموا بجسم على الأرض . . إنه الطبيب وقد ارتدى ملابس آية هندية . . لقد جاء يختبر قوة احتمال الفتاة . فاذا بها تضربه بقطعة ضخمة من الخشب تصيبه فى رأسه ويسقط على الأرض وهو ينزف بغزارة .

ـ نكتة دامية !

فى رأس الملكة ..
فى ذلك اليوم !

يوم ١٦ أكتوبر سنة ١٧٩٣ ، أعدمت مارى انطوانيت ملكة فرنسا وزوجة لويس السادس عشر وابنة أمبراطورة النمسا ماريا تريزا . .

وقبل ذلك بأربع سنوات وفى شهر أكتوبر أيضًا ، كانت مارى أنطوانيت تجلس فى حديقة قصرها المسمى «تريانو الصغير » فى قرية فرساى عندما جاء خادم يجرى ويلهث ويتعثر . . ويقدم للملكة مارى أنطوانيت رسالة . وقبل أن ترفع الملكة رأسها لترى أو تسمع قال لها الخادم : انهضى مولاتى . . انهضى الرعاع قد ملئوا شوارع باريس .إنهم يزحفون الآن على قصر فرساى !

لقد كانت سنة ١٧٨٩ سنة رهيبة على الملكة مارى انطوانيت فقد اشتعلت الثورة الفرنسية . وفقدت فى هذه السنة ابنها الأكبر وأخاها . وقد حملها الشعب كل مصائب الدنيا فهى المسئولة عن الافلاس لأنها مسرفة وهى خائنة لأنها جاسوس للنمسا ، وهى التى أفسدت الحكم لأنها سيطرت على زوجها بشخصيتها القوية وبرجال ونساء الحاشية وكلهم من النمساويين . . ثم إنها لم تكن مخلصة لا لزوجها

ولا للعرش . . ولا للشعب الفرنسى . . فقد كان عشاقها كثيرين . . وكان الذهب يتساقط من يديها ورجليها . حتى أن أحد رجال الحاشية كان يقول عنها : أن حبات عرق مولاتى قطع من الماس !

نعود مرة أخرى إلى يوم أكتوبر سنة ١٧٨٩ . . فى ذلك اليوم جلست مارى انطوانيت أمام قصرها الصغير ترسم لوحة . وبين الحين والحين تنادى فتاة صغيرة اسمها ماريون ابنة الجناينى وفى هذه الاثناء جاء الخادم يجرى ويلهث وفى يده رسالة من وزير البلاط يطلب للملكة أن تتوارى لحين صدور تعليمات أخرى . وجاء الخادم يرجوها أن تأوى إلى القصر وأن تنتظره فسوف يأتى لها باحدى العربات . وانطلق الخادم . بينما سارت الملكة على قدميها . وهى تنادى ابنة الجناينى . وهذه الابنة قد أصبحت زوجًا لمدير حدائق قصور فرساى فى سنة ١٨٠٥ فى عهد نابليون . ويقال أن الملكة كانت فى غاية الهدوء وفى منتهى الحزن أيضًا . وفكرت الملكة هل تأخذ هذه اللوحة معها أو تتركها . ويبدو أنها قررت أن تتركها . كما أن الخطاب الذى تسلمته من الخادم قد تركته أيضًا . ويقال أن الملكة تلفتت وراءها مرتين . وفى المرة الثانية بكت . وتوارت . .

وسجلت كل كتب التاريخ هذه اللحظات الصامتة المخيفة من حياة مارى انطوانيت . ثم أن عشرات من الباحثين جاءوا بعد ذلك وسألوا ماريون هذه عن كل تفاصيل ذلك اليوم وما بعده . . وأجمعت كل كتب التاريخ على صحة هذه الوقائع تمامًا .

بل إن باحثًا فى جامعة السوربون قد طلب إلى ماريون أن تكتب بخط يدها : أن الملكة قد كانت وحيدة تمامًا . لا أحد وراءها أو أمامها . . ولم تطل خادمة من نافذة . ولا جاءها رجل يسعى لحمايتها . . لا أحد . فقد سكنت الدنيا كلها . وكأن الحدائق والغابات قد قررت الصمت انتظارًا لما سيجىء بعد ذلك .

واستأذنت ماريون أحد المؤرخين أن تضيف هذه العبارة : أن الثورة هى شباب الشعوب !

وفى أكتوبر سنة ١٩٠١ جاءت فتاتان إنجليزيتان إلى قصر فرساى . إحداهما مدرسة التاريخ فى جامعة لندن . والأخرى تخصصت فى اللغة الفرنسية . وكانت هذه أول زيارة لهما إلى فرنسا . وقررتا أن تزورا قصر فرساى . هذا طبيعى . وكانت الاثنتان تعطفان على مارى انطوانيت . وعلى مصيرها . وكانتا معجبتين . بشجاعتها وهى تتلقى الحكم بالاعدام . وقبل الاعدام . لقد أعجب بها جلادها فلم يعرف كثير من الرجال مثل هذه الصلابة واللامبالاة فى وجه الموت . . رغم أنها سمعت الطبول واللعنات . . ورأت المشنقة لامعة تريد أن تخطف روحها قبل أن تمسها .

هاتان الفتاتان تعرفان الكثير عن الثورة الفرنسية . ولكنها معلومات عامة غير متخصصة ثم أنهما لم تسمعا عن قصة مارى انطوانيت مفصلة . ولم تريا قصرى تريانو الكبير وتريانو الصغير . وهذا القصر الأخير قد اتخذته مارى انطوانيت مقرًا لها . وأن كان هذا القصر قد أقامه لويس الخامس عشر لاثنتين من عشيقاته هما مدام بومبادور ومدام دى بارى . . ولكنه أصبح يعرف باسم قصر مارى انطوانيت .

واتجهت الفتاتان إلى قصر تريانو الكبير . . وتركتاه إلى قصر تريانو الصغير لقد رأتا الألوان جميلة . . الأشجار خضراء وزرقاء . . والأرض عليها عشب أصفر . . والورود تضج بالحياة فى كل مكان . . وهناك يوجد قصر تريانو وإلى جواره كوخ صغير . بنى اللون . وكانت هناك سيدة تطل من نافذة . لابد أنها زوجة أحد الحراس . أو أن هذا البيت ما يزال سكنًا لبعض موظفى المتحف . ولم تنظر الفتاتان إلى هذه السيدة . وإنما اتجهتا إلى القصر الصغير . وفى الطريق قابلتا رجلين من رجال الحرس . الملابس خضراء . والبرنيطة مثلثة الشكل . ولابد أن الرجلين قد قالا شيئًا ليس واضحًا . وقابلهما رجل ثالث له نفس الزى ولكنه يمسك جاروفًا . وهناك على البعد يظهر محراث يشق الأرض وكان يجره حصان . ولكن الحصان يبدو أنه هو الآخر قد التزم الصمت لا حركة . ولكن ينظر فى اتجاهات مختلفة . ثم يرفع رأسه إلى أعلى كأنما فاته أن يلتقط شيئًا .

ثم جاء بعد ذلك كوخ آخر صغير نظيف . وعلى مدخل الكوخ وقفت سيدة ومعها فتاة صغيرة فى الرابعة عشرة من عمرها . وكانت السيدة تعطى الفتاة إناء به ماء . ولكن يبدو أن هذه السيدة ريفية إلى حد ما . ففستانها ليس على الموضة لأنه أطول مما يجب . .

واتجهت الفتاتان الانجليزيتان إلى الغابة . وجدتا (الكشك الأحمر) وفى هذا الكشك يجلس رجل . كئيب أو مخيف . وقد امتلأ وجهه بالجدرى والنمش . وفى لحظة واحدة أحست الفتاتان بالضيق منه والاحتقار الشديد . وكان يرتدى بالطو أسود . وبرنيطة مثلثة الشكل . وكانت نظرة هذا الرجل مخيفة أنه لا ينظر إليهما أنه ينظر فيهما وهذا شىء مفزع .

وأندهشت الفتاتان . فالجو ليس واقعيًا . كأنه حلم . . فلا صوت ولا حركة . ولا كلام . شىء غريب . أو كأنهما فى حالة هلوسة . فكل شىء مرسوم بدقة ونظافة وعناية . وهما تمشيان كأنهما مسحورتان . مأخوذتان نائمتان .

ووراءهما الخادم يجرى ويلهث . ثم يقترب منهما . . ويبتعد دون أن ترياه . ثم استدارت الفتاتان لتجدا رجلاً قد ظهر فجأة . ثم ابتعد عنهما وان كان وقع قدميه ما يزال مسموعًا . ثم راح الرجل يصرخ قائلاً : سيداتى الرعاع يزحفون . . يزحفون !

ولابد أنه قال أشياء أخرى كثيرة . ولكن الفتاتين لم تدركا بعد ذلك أين ذهب . أين أختفى . أنهما لا تعرفان . ولم تفكرا جيدًا فى ذلك !

ثم عبرت الفتاتان جسرًا صغيرًا بالقرب من شلال ماء . وأصبحتا الآن على مدى خطوات من قصر تريانو الصغير . وفى الشرفة وجدتا سيدة ترتدى فستانا أبيض خفيفًا . وجلست ترسم احدى اللوحات . وكان فستانها معلقًا بين كتفيها . . ووسط الفستان عريض هابط . ولكن هذا الفستان ليس موضة سنة ١٩٠١ . ورفعت السيدة رأسها . وكانت فى الأربعين أو أقل من ذلك . وشعرت الفتاتان بضيق شديد . ووضعت كل منهما يدها على عنقها . ثم راحت تسعل .

وفى هذه الأثناء ظهر شاب يصرخ وهو يقول : سوف أريكما الطريق . وسبقهما . وخرجت الفتاتان من قصور فرساى . ووجدتا حفلة زفاف . جمهورًا من الناس . وضحكت الفتاتان . ورقصتا وشربتا وعادتا إلى الفندق . وفى الليل سألت احداهما الأخرى : هل تظنين أن قصر تريانو مسكون بالأشباح . فقالت الأخرى : أعتقد ذلك !

ـ ولكن لماذا ؟

ـ لقد شعرت بالخوف والرغبة فى البكاء دون سبب واضح ثم أن هذه الوجوه التى رأيتها ليست حقيقية . . إنها طائرة أو خفيفة . . ومرسومة جدًا . . اننى لم أسمع وقع قدمى ولا وقع قدميك .

ـ هذا ما شعرت به بالضبط .

ـ ثم لماذا نشعر بالرغبة فى البكاء فى وقت واحد عندما رأينا السيدة التى ترسم . . ولماذا وضعنا أيدينا على أعناقنا وسعلنا . . تماما كما فعلت هى ؟

ـ هذا هو الذى يحيرنى .

وظلت الفتاتان فى حالة فزع بضع سنوات . وأخيرًا سجلت كل منهما هذه القصة بالتفاصيل . ثم سجلت الفتاتان صدى القصة على اسطوانة . . فلم يصدقهما الكثيرون من الناس واتهموهما بالجنون . .

وعادت الفتاتان إلى زيارة قصر تريانو بعد ذلك بسنوات . . والشىء الذى أفزعهما هو أن كل ما رأتاه من قبل لم يكن له وجود . . فهذه الأكواخ قد أزيلت منذ قرن . وهذا الباب الذى دخلت منه السيدة التى ترسم قد أقفل منذ أكثر من مائة سنة . . وكما أن ملابس الحرس ليست خضراء . . فاللون الأخضر كان أيام الثورة الفرنسية . . ثم أن أحدًا لا يستخدم الجاروف أو المحراث . وهذا الخادم الذى كان يقول : سيداتى . . بدلاً من : سيدتى . . حارس نمساوى ولذلك فنطقه للغة الفرنسية غريب . . أما هذه الفتاة الصغيرة فهى ماريون ابنة الجناينى . . وهذا

الشخص الكريه هو عشيق مارى انطوانيت الذى كانت تمقته . . وتقول : إنه سبب كل المصائب فى حياتها . .

كل ذلك لم يكن موجودًا بالمرة فى سنة ١٩٠١ .

ولكن بالعودة إلى الخرائط القديمة لقصور فرساى وتريانو وجدوا أن هذه الأكواخ التى وصفتها الفتاتان كانت موجودة فى أماكنها وبألوانها . وبالضبط كما وصفتها الفتاتان.

كما أن بعض الوثائق التاريخية أضافت شيئًا جديدًا هو : أن من عادة مارى انطوانيت عندما تشعر بالضيق أن تضع يدها على عنقها ثم تسعل . ثم أنها أيضًا كانت تشكو من ألم فى كتفها اليسرى . . وهذا ما أحست به الفتاتان فى ذلك الوقت!

أما تفسير ذلك علميًا ، فأن الذى رأته الفتاتان ليس أشباحًا ولا أرواحًا . وإنما هى ظاهرة .

فنحن نعرف أن بعض الناس عندهم القدرة على قراءة أفكار الآخرين . كأن يجلس اثنان فى مكان واحد ويقول أحدهما للآخر بعد نظر إلى وجهه : أنت تفكر فى الذهاب إلى الإسكندرية . ولكن ليست عندك إجازة !

فيقول الآخر : عجيب ! هذا بالضبط ما أفكر فيه . .

أو يقول واحد مثلاً : والله فلان الفلانى وحشنى جدًا . .

وبعد لحظات يكون فلان هذا يدق الباب ، مع أنه لم تكن هناك أية معلومات عن مجيئه من أسوان . .

ومن الممكن أيضا أن يتفق اثنان على أن يجلسا فى وقت واحد فى مكانين بعيدين جدًا - بينهما ألف كيلو متر . ثم يفكر أحدهما فى الآخر ويكتب فى ورقة ما يشعر به . . أو ما الذى يعمله أو ما الذى يرتديه !

وقد نجحت هذه التجربة كثيرًا مع بعض الناس الذين لهم قدرات عقلية خاصة . .

فهذه أنواع مختلفة من قراءة الخواطر . . أو الاحساس بالغير عن بعد فى المكان ـ كما سنرى فيما بعد فى هذا الكتاب .

ولكن هذا الذى حدث للفتاتين هو نوع آخر فريد من أنواع قراءة الخواطر عن بعد ـ لا فى المكان ولكن فى الزمان .

فالفتاتان ذهبتا سنة ١٩٠١ إلى هذا المكان بعد ١١٢ عامًا من مجىء الخادم يطلب من الملكة أن تهرب . ولكن الغريب هو أن الفتاتين أحستا بالضبط بما كانت تحس به الملكة . . لكل ما كان يدور فى داخلها وحولها . . ان هذه الصورة التى دارت فى رأس الملكة كانت من القوة بحيث ظلت (حاضرة) . . (موجودة) . . حتى جاءت هاتان الفتاتان ودخلتا فيها . . فى جوها . . انهما شعرتا بالضبط بكل مخاوف الملكة ورعبها . . وكل الفراغ الذى حولها والضيق من كل الناس . .

إنها حالة فريدة فى التاريخ . .

إن الفيلسوف الانجليزى جود يقول : لم أر ولم أسمع عن شىء من مثل ذلك ، ولكن عقلى يقبله . فليس لدى كل الناس مثل هذا القدر والقدرة الهائلة على استحضار الماضى . أو على احيائه أو التعايش معه . .

وقد نشرت هذه القصة فى سنة ١٩٣١ . بعد أن كتبت كل من الفتاتين تفاصيل ما شاهدت . كل منهما كتبت القصة بعيدة عن الأخرى . ثم وضعت القصتان معًا فى كتاب واحد . .

ولكن مدرسة التاريخ ـ احدى الفتاتين ـ قد أضافت شيئًا لم تشعر به زميلتها . قالت : شىء ضايقنى جدًا . وجعلنى أصرخ وأقول كيف حدث ذلك !

لقد أحست مدرسة التاريخ عندما جاءها هذا الحارس أنه اقترب منها أكثر مما يجب ، ومما يليق . لأنها فى تلك اللحظة كانت بلا ملابس داخلية ؟!

ويقول التاريخ أن مارى انطوانيت كانت حساسة جدًا لبعض أنواع الحرير . ولذلك لم تكن ترتدى ملابس داخلية .

وأضافت شيئًا آخر أيضًا : اننى لا أعرف اللغة الألمانية . ولكنى وجدت يدى تكتب حروفًا وكلمات لا أفهمها ولا أعرف كيف أنطقها .

وعندما عرضت هذه العبارة أكد علماء التاريخ أن هذا بالضبط هو خط مارى انطوانيت . وان هذه العبارة قد جاءت فى خطابها الذى بعثت به إلى واحد من أصدقائها تقول فيه «لا شىء يحزننى أكثر من أن أترك أولادى وحدهم . . أتمنى ألا يلقوا نفس المصير ، فلم يرتكبوا نفس الأخطاء التى ارتكبتها» !

ينمو الشجر ... في كف الحجر !

الناس يحبون الذين يحبون . ويعطفون عليهم . . ومن هذا الحب والعطف أصبحت للمحبين هذه القصص الكثيرة في حياتهم وبعد وفاتهم . وكثيرا ماوجد المحبون أنفسهم فى هذه المحنة بين الوفاء للحب وبين الطاعة للأب أو الأم أو الانحناء أمام المجتمع . والمجتمع أقوى ولكن الحب أبقى . وكثيرا ما تمنى المحبون الموت ، لأنه أرحم من الحياة ، ولأنه يجمع المحبين مرة أخرى وراء هذه الحياة ، وبعيدا عن عيون لاترحم ، وألسنة لاتشبع منهم . . ولذلك هانت الحياة على المحبين وهان الموت أيضًا . لأن الذى يشغل قلوب المحبين هو كيف يلتقون الى غير نهاية !

ـ صحيح كيف يلتقون بعد ذلك ؟

ـ لا أعرف . ولكنى سمعت القسيس يقول ذلك كثيرا .

ـ وهل صدقت مايقول ؟

ـ وهل يستطيع أحد ألايصدق !

ـ طبعا يستطيع أن يصدق أى شىء آخر . .

ـ كيف تقول ذلك وأنت رجل مؤمن ؟

ـ لأن الإيمان ليس معناه : الإيمان بما يقوله رجال الدين دائما .

ـ اذن ما هو الإيمان ؟

ـ هو هنا (وأشار إلى قلبه) وهنا (وأشار إلى عقله) وهنا (وأشار إلى يده) وهنا (وأشار إلى معدته) وهنا (وأشار إلى الأرض) وهنا (وأشار إلى الشجرة) .

ـ كنت قد نسيت هذه الشجرة .

ـ كيف مع اننى أتيت بك إلى هنا لتعرف وتصف ما ترى وتقول للناس ما معنى هذا كله ؟!

وكانا شابين يجلسان تحت أغرب شجرة فى انجلترا . شجرة عادية بالنهار . وغير عادية بالليل . والناس يهربون من الطريق إليها ، والنظر إليها . . ويجعلون طريقهم بعيدًا عنها . . فالحكايات كثيرة . يقال أنها تتحول إلى ذئب يطارد الناس . ويقال أنها تتحول إلى حصان يدوس الناس . ويقال أ ن حريقا يشب فيها بلا دخان ولا نار . .

ولكن هذين الشابين يريدان أن يريا بالضبط ما هذا الذى يجرى هنا .

إنهما فى أغسطس سنة ١٥٩٥ وفى الهواء دفء وعلى وجه السماء ستائر رقيقة من السحاب . والأصوات الهامسة فى الغابة تتابع الهواء أينما ذهب . ولكن كل شىء هادئ . .

وابتعد الشابان عن الشجرة ليرياها بوضوح .

وفجأة لمس واحد منهما الآخر . لقد اختفت الشجرة . ونظر كل منهما للآخر كأنه يقول : هل ترى ما أرى ؟

ويكون الجواب بكلمة واحدة : نعم

وبعد ذلك بدأت أوراق الشجرة تتساقط ورقة ورقة . . الورقة بيضاء . . تتثنى . . ثم تسبح قليلا فى الهواء على انغام موسيقى لا يسمعها أحد . ولكن حركاتها موسيقية . . أو مرسومة بعناية . . ورقة وراء ورقة حتى تصبح الأرض مفروشة بأوراق مضيئة . . وفجأة يظهر فرع شجرة أبيض وفرع آخر وثالث ورابع . . وتستوى الشجرة

فى مكانها . . وينفتح قلبها ويخرج اثنان من الشبان . . فتاة وفتى . . يتلامسان . . يتعانقان . . ويخرجان من الشجرة إلى الغابة . . والضوء يتبعهما ـ فاذا اتجهت عينا الشابين إلى ماوراء هذين العاشقين ، اختفى العاشقان . . وإذا نظر الشابان إلى مكان الشجرة ، فإنهما يجدان شجرة عادية . ويهدأ كل شىء . . بل إنهما يسمعان الأشياء كأنها تصرخ . . لابد أن يكون سبب ذلك هو الخوف الشديد الذى غمرهما ببرودة عنيفة . ويعود الشابان كل إلى بيته . . وفى لحظة يقرر كل منهما أنه لا يستطيع أن ينام وحده فيخرج من البيت ويلتقى الاثنان فى منتصف الطريق ليجلسا معا حتى الصباح دون كلمة واحدة !

ويعود الشابان كل يوم إلى هذه الشجرة فى الساعة الثامنة والربع من مساء كل ليلة . ويريان ويرجعان ولايفهمان شيئا . ولكن لسبب غريب جدًا ، لايرويان شيئا من ذلك لأحد . . ومرض الشابان فى وقت واحد . وجاءهما القسيس . وكان لابد أن يعترفا . واعترفا . وزادت دهشة الناس .

وسألهما القسيس : ولكن أى سر فى هذا ؟ !

ـ لا سر . ولكن وجدت نفسى عاجزًا عن أن أقول أى شىء لأى أحد !

ـ ولماذا ؟

ـ لا أعرف . .

ثم يلتفت القسيس ويسأل الشاب الآخر : وأنت ما الذى جعلك تسكت عن هذه المعجزة التى رأيتها كل ليلة ؟

أريد أن أقول . ولكن لا أجد هذه القدرة . . ولا أجد ضرورة لأن أقول شيئًا لأن هناك قوة أخرى تمنعنى من الكلام . ولا أعرف ما هى ؟

ـ وكيف تقول الآن ؟

ـ لا أعرف . ربما لأننى سوف أموت . ربما كان هذا هو السر الأخير . . أو كان هذا هو الثمن : إذا قلت مت !

ـ وأنت ماذا تختار ؟

ـ أن أقول وأموت بعد ذلك . .

ومات الشاب بعد ذلك بلحظات .

ومات الشاب الآخر بعد صديقه بلحظات !

أما القصة فقد أصبحت معروفة بعد ذلك . . أو كانت معروفة ولكن أحدًا لا يجرؤ على الكلام .

القسيس يعرفها . والعمدة . والبلاد فى هذه المنطقة من انجلترا . فهم يعرفون ماذا حدث لليدى دوروثى ابنة سير جون سوثورت أحد رجال الحاشية فى عهد الملكة اليزابيث الأولى (١٥٣٣ ـ ١٦٠٣) ابنة الملك ادوارد الثامن من عشيقته آن بولين . .

وهذه الملكة اليزابيت كانت قاسية . فيها رجولة صارخة ، وفيها أنوثة معقدة . ولكنها قادرة على أن تلعب على كل الحبال السياسية والدينية . وكانت بارعة فى اختيار مساعديها . وعندما ذهب سير سوثورث يروى لها أن ابنته ماتت فى ظروف غامضة . حزنت الملكة وبكت . . ولكنها روت له بعد ذلك القصة الحقيقية التى تعرفها . فشعر سير جون سوثورث بالخجل الشديد . كيف أنها عرفت أنه هو الذى قتل ابنته . .

ولكن الملكة كانت تعرف وتسكت . فاذا تكلمت قتلت ولذلك كانت مخيفة !

وهذا الرجل سير جون كانت له ابنة اسمها دوروثى . أحبها شاب من الأغنياء . ولكن الأب لا يوافق على هذا الحب بأى حال . مستحيل فهو رجل كاثوليكى . وهذا الشاب بروتستانتى . ولا يمكن أن يسمح لشاب بروتستانتى أن يحب ابنته . ولا أن تحبه هى . . ومستحيل طبعًا أن يقترب منها أو يتزوجها . أن موتها أهون من أى شىء آخر .

ولكن الفتاة أحبت هذا الفتى . وهما يلتقيان فى الغابة سرًا تحت هذه الشجرة . وبدأ الناس يتكلمون . ووصل كلام الناس إلى الأب متأخرًا . بعد أن أصبح الوهم حقيقة ، والحب تعاقدا على الزواج . والزواج حقيقة ، والأب والمجتمع والدين وهم . فلا حقيقة إلا الحب . ولا بقاء إلا للمحبين مهما كان الثمن . وتشجع العاشق ،

وكل العشاق شجعان وذهب إلى الأب . وفوجئ الأب ودار بينهما هذا الحوار الذى يحفظه الناس كما يحفظون الصلوات :

الشاب : سيدى أنت تعرف لماذا جئت !

الأب : لا أعرف . ولكنى أريد أن أعرف . وصبرى له حدود .

الشاب : أنا أحب ابنتك . وهى أيضًا .

الأب : لا أسمح لها أن تحب . ولا أن تحبها .

الشاب : ولكن الحب أقوى من الجميع .

ـ أنا أقوى من الحب . والدين أقوى من الجميع .

ـ الدين هو الحب .

ـ لا أسمح لبروتستانتى أن يدخل بيتى . وإذا دخله لا أسمح له أن يبقى أكثر من ذلك .

ـ إنك تحطم قلب ابنتك .

ـ قلب ابنتى ملكى وأنا حر فيما أملك .

ـ ولكنك لا تملك قلبها .

ـ ولا أسمح لأحد أن يعلمنى ما يخصنى .

ـ أنت تبنى سعادتك على أوهام . .

ـ ولا أسمح أن يقول لى كلب صغير مثلك هذه الكلمات الطائشة . . ولا شىء يسعدنى إلا خروجك فورًا .

ـ سأخرج ولكن يجب أن تعرف أن فى ذلك شقاء لقلبين . . وقضاء عليهما .

ـ أنت تتحدث عن نفسك . . أخرج يا كلب يا كذاب

ـ لم أكذب عليك . . إنما أنت الذى تكذب على نفسك . . وتجعل سلطات الأب بلا حدود . . ولكنك سوف تندم .

ـ أخرج . . اننى أندم فعلاً لأننى سمحت لحقير مثلك أن يدنس بيتى ! أخرج !

وخرج . وتحول البيت إلى سجن وأصبح محرمًا على ابنته دوروثى أن تخرج أو

تدخل . . وفكر الأب فى أن يدخلها الدير . وكان ذلك هو الحل السهل لمشاكل القلوب العاشقة . ولكن جاء من يهمس فى أذنه ويقول له : بل إذا ذهبت إلى الدير فسوف يكون اللقاء أسهل . هل نسيت ما فعلته ابنه اللورد . . وابنه الكونت . ويتذكر الأب أن بنات الدير أكثر حرية من بنات البيوت فى ذلك الوقت . وفى كل وقت . ويكتفى الأب بأن يسجن ابنته . ولكن كل من فى البيت يعطف على الفتاة الجميلة ، التى لم تفعل سوى أنها أحبت . . . وكان خروجها من السجن أسهل من أى وقت . وكان البيت كله يتستر عليها . . وكانت الفتاة تلتقى بحبيبها كل ليلة تحت الشجرة .

وعلمت الابنة أن والدها سوف يسافر إلى لندن لبضعة أيام وكانت فرحة . اتفقت هى وحبيبها على الهرب والزواج فى أى مكان . وجلسا تحت الشجرة يناقشان كل شىء . واتفقا . وفرقهما الليل . ولكن الفتاة لم تنم . لقد ظلت طول الليل ترتب فساتين الزفاف . وأحست أنها عروس منذ اللحظة التى اتفقا فيها على الزواج . وأقفلت عينيها حتى لا ترى سواه . وضمت يديها إلى صدرها تعانقه . فاذا طلع النهار كانت فى غرفتها قد ارتدت ثوب الزفاف . وعندما فتحت بابها ، كانت كل أبواب البيت مغلقة . فقد أفسحوا لها الطريق . وكانت قلوب الخدم تدق وراء الأبواب وتدعو لها بالسعادة . وخرجت إلى الغابة . وكانت الأشجار هى الأخرى لا تتحرك . كأنها فى حالة خشوع . لا صوت . لا همس . لا هواء . . لا شىء . قلبها يدق . كأنه قلب الكون . . وعند الشجرة وجدت حبيبها . . ومعه اثنان من أصدقائه . . اقتربت منه . . أعطته يدها . . وانحنى عليها . . عندما انغرس سيف فى قلبه . لقد كان أخوها يختفى وراء إحدى الأشجار وقد سمع اتفاقهما على الهرب والزواج . ولم يكن العاشق يحمل سلاحًا ولا صديقاه ولكن أخاها قتل العاشق . . وقتل صديقيه . . وفى الليل دفنت ثلاث جثث . أما الفتاة فأغمى عليها تمامًا . ولم تفق إلا فى اليوم التالى . وعندما أفاقت صرخت . وعندما عرفت ماذا حدث بكت وفقدت وعيها مرة أخرى !

ولابد أن أخاها قد توهم بفروسيته الزائفه أن هذا العمل العنيف سوف يرضى آباه. وسوف يجعله كبيرًا عنده . وجاء الأب وعرفت الملكة اليزابث وسكتت فهى لا تريد أن تصبغ بالدم هذه العلاقات بين الطوائف الدينية . .

وقرر الأب أن يبعث بابنته إلى الخارج فى رحلة نسيان . هو ينسى ولعلها هى تنسى أيضًا !

ومضت شهور ولكن الفتاة لم تنس . سافرت إلى فرنسا . وقيل أنها نسيت . وبعث الأب بقريبات لها يعرفن حالها . . وعادت القريبات وقلن إنها توشك أن تنسى لكنها تريد أن ترى الشجرة وكل شىء سوف ينتهى بعد ذلك !

ووافق الأب . وطلب إلى أحد رجاله أن يرافق ابنته . .

وجاءت الفتاة إلى بيتها . . ثم ذهبت إلى الشجرة . وفى ساعة متأخرة من الليل سمع الأب دقا على الباب ونهض وزجاجة الخمر فى يده وهو يترنح ويتساءل : هل انتهى كل شىء .

ويسمع من يقول له : كل شىء يا سيدى !

ويعود الأب يسأل : ولم يبق لها أى أثر ؟

ـ نعم يا سيدى .

ـ قتلتها ؟

ـ نعم .

ـ ودفنتها ؟

ـ نعم .

ـ ورآك أحد ؟

ـ لا أحد .

ـ متأكد ؟

ـ تمامًا .

ـ قتلت ابنتى بيديك .

ـ كما أمرتنى .
ـ بيديك ؟
ـ بالسيف .
ـ وصرخت ؟
ـ لم تصرخ .
ـ وكيف كانت عيناها ؟
ـ كانتا تنظران فى سعادة !
ـ فى سعادة ؟ !
ـ نعم !
ـ ولم تقل شيئًا ؟
ـ ولا كلمة !
ـ ولا ذكرتنى ؟
ـ أبدًا .
ـ ولا حملتك رسالة إلى أحد ؟
ـ لا شىء من ذلك !
ـ ألم تنطق باسمى ؟
ـ أبدًا .

ـ انها قتلتنى . . انها قتلتنى . . لم أقتلها . . ولكنها قتلتنى . . ثم سقط الأب وراء الباب . . وهو يقول : كيف قتلتها ؟

وراح الخادم يقول إنه أخذها إلى الشجرة . ولم تكد الفتاة ترى الشجرة حتى راحت تعانقها . . وكأن الشجرة تحولت إلى قطعة من النار أو النور . . وانفتحت كأنها باب فى حائط مضىء . ثم ألقت بنفسها على الأرض . . ولم يعرف إن كان هو الذى قتلها . . أو كان معه سيف . . أو أنه وجد السيف هناك . . ولكن سقطت على الأرض ودمها ينزف . . ثم دفنها فى مكان بعيد . .

ولكن الأب لم يسمع من كل ذلك شيئًا . أنه سقط مغشيًا عليه !

ولم يعد الناس يسمعون عن هذه الشجرة . .

مضت عشرات . . مئات السنين . . وفى سنة ١٩٠١ تحولت هذه المنطقة من انجلترا إلى حقول . . ونزعت كل الأشجار . . إلا هذه الشجرة . وسبب ذلك أن هذه الشجرة . قد أحيطت بعدد من الصخور . . وكانت هذه الصخور على شكل كف . . وهذه الشجرة تنبت فى كف الحجر . . وحولها أشجار أخرى تنبت فى كف الحجر . . وبقيت هذه الأشجار فى مكانها والناس يتفرجون عليها . .

وفى أغسطس سنة ١٩٠١ جاء شابان إلى هذه المنطقة يرسمان بعض اللوحات . . وجاء الليل ورأى الاثنان أوراق الشجر تتحول إلى قطعة من النور . . ثم تتحول جذوع الأشجار إلى فتيان وفتيات يتعانقون فى خفة ومرح وصمت . . وبعد لحظات ينتهى كل شىء !

وفى اليوم التالى جاء الشابان ومع واحد منهما سيف . .

وفى الساعة المحددة خرجت الأضواء من الأشجار . . وعندما أمسك الشاب بالسيف فى يده . . لم يجد السيف . . لقد طار وانغرس فى قلوب العاشقين واحدًا بعد واحد وتساقط العشاق على الأرض . . وبقى السيف فى مكانه . .

ومنذ ذلك اليوم لا يذهب أحد معه سلاح إلى هذه الأشجار . . إنها منطقة منزوعة السلاح . أو يجب أن تكون كذلك !

.. وكانت الدبلة الذهبية في عنق عصفور !

عندما فتحوا عليه باب غرفته وجدوا هذه الورقة إلى جواره ويبدوا أنه كتبها بسرعة. وإنه لم يكمل عبارته الطويلة لسبب غير واضح . ولكن الذى جاء فيها يكفى للدلالة على هذا الذى كان يغلى فى داخله .. وعلى الأسباب التى أدت إلى ارتكاب جريمة لا ضرورة لها . . يقول فى الورقة :

« هذه الكلمات حفظتها تمامًا عن الشاعر الايطالى العظيم دانتى . يقول دانتى (وهنا يده ترتجف بشدة وتتداخل بعض الحروف) : صحيح أن الحب هو أبو الغيرة . ولكن هذا الأب يجب أن يحسن تربية ابنته هذه وإلا قضت عليه . . والغيرة شعلة من نار ترتوى من دمائنا . . وإذا كان الحب جريمة ، فالغيرة هى أقصى العقوبة . . ويقول الشاعر دانتى أيضًا : إذا كانت للحب عين واحدة ، فان الغيرة لها ألف عين. والموت وحده هو الذى سوف يطبق هذه العقوبة . . الموت وحده هو الذى يفقأ هذه العيون . . هو وحده » .

وهنا يزداد اضطراب يده وحروفه ولم يستطع أحد أن يقرأ بقية العبارات !

كما أنه لم يتمكن من أن يكتب التاريخ كما هى عادته، فهو مدرس تاريخ فى إحدى المدن المجاورة لمدينة جنوة الإيطالية . ولكنه تاريخ لا يستطيع أحد أن ينساه : يوم ٧ ديسمبر سنة ١٨٩٩ صباحًا !

لم يكن أحد يعرف بالضبط ما هذا الذى جرى فى البيت الصغير على شاطئ

البحر المتوسط بالقرب من مدينة سانت مرجريتا على شاطئ الريفييرا الإيطالية . . إنها الصدفة فقط . . فقد بيع هذا البيت إلى واحد بعد واحد. ثم استقر فى النهاية كل شىء عندما اشترته سيدة عجوز مات أبوها وأخوها وأولادها وانقطعت عن كل شىء إلا أحزانها . ولايمكن أن يجد إنسان حزين مكانا أفضل من هذا البيت الموحش المظلم من الداخل . . أو البيت المنطوى على نفسه وحوله كل شىء جميل. . الشاطىء والبحر وأشجار النخيل والزهور والورود والعشاق . . والأغانى والنبيذ والتفاح . الحياة كلها تدور حول هذا البيت ـ أو هذه المقبرة .

ولكن أحد أقارب هذه العجوز أقنعها بأن تنظف البيت قليلاً وتعلن عن رغبتها فى تأجيره لأى أحد فى موسم الصيف . وكانت هذه السنيورة بياتريشة ساليرى زاهدة فى الحياة ، فلم يبق لها أحد تعيش من أجله : لا أشخاص ولا مبادئ . وإنما هانت عليها الحياة ، والموت أيضًا . ولم تعد تفزع لشىء أو تخاف من شىء . فهى قد صفت حسابها مع الدنيا كلها . . وبقى أن يجىء عزرائيل ويعتمد هذه الحسابات ويعلن أنها لم تعد مدينة لأحد بشىء . . أى أنه من الممكن أن تموت وهى مستريحة !

وجاءها اثنان من الأطباء . .

ونزل كل واحد فى غرفة . والغرفتان متجاورتان وبينهما باب . والباب وراءه دولاب من هنا ودولاب من هناك . وقبل أن يأوى كل واحد منهما إلى غرفته طلبت العجوز إليهما أن يفعلا كل ما يحلو لهما . وأن يعتمد كل على نفسه . فهى غير قادرة أن تساهم بأى شىء . . وعلى الرغم من أنها مريضة وهما طبيبان فلن تزعجهما بشىء. لأنها غير حريصة على صحتها أو على أى شىء . ولكن ترجوهما فقط : ألا يوقظها أحد قبل الثامنة صباحًا لأى سبب !

وكان لابد أن يسمعا من السنيورة بياتريشة هذه قصة زواجها الأول . وروت قصة زواجها . وكيف أن زوجها كان رجلاً قليل الذوق أنانيًا . كيف أنه كان ينام والنوافذ مغلقة مع أنها كانت لا تنام إلا والنوافذ مفتوحة . ومع ذلك فزوجها هو الذى توفى

بالتهاب رئوى . . مع أنها نصحته كثيرًا بألا يفعل ذلك . ولكنه ـ ككل الرجال ـ حمار عنيد . ومع ذلك فهؤلاء الحمير هم الذين يحكمون العالم !

ومن الذوق أن يستمعا إليها وإلى قصص أخرى كثيرة . انها سيدة . وعجوز وصاحبة البيت . وليست فيها أية عيوب أخرى غير شهيتها المفتوحة للعن الرجال فى كل مكان وفى كل عصر . .

وفى الليلة الأولى حدث ما جعل أحد الطبيبين يقفز من سريره ويمسك المصباح فى يده . ويخرج من الغرفة ولكن الحياء منعه من أن يوقظ العجوز . فقد نام الطبيب فى ساعة مبكرة . كان مرهقًا . ولكن عند منتصف الليل أحس كأن النافذة أنفتحت وكأن هواء باردًا قد اندفع من النافذة . وكأن الهواء تحول إلى سكين حاد بارد ولسعه فى عنقه . وقفز من السرير ليجد أمامه سيدة تقترب . . هذه السيدة هى التى تدفع أمامها هذا الزمهرير . . والسيدة تقترب أكثر . . ولاحظ أن هذه السيدة عبارة عن نصف سيدة فقط . . نصفها العلوى هو الواضح . . أما نصفها السفلى فليس واضحًا أو لا وجود له . . وقفز الطبيب من السرير . . ولكن السيدة اتجهت ناحية الدولاب . . ودخلت فى الدولاب . . ثم اختفت وأمسك الطبيب بالمصباح واتجه إلى الدولاب فوجده مقفلا تمامًا . . واتجه إلى باب غرفته فوجده أيضًا مغلقًا من الداخل . . ثم اتجه إلى النافذة فوجد أن الستائر مسدلة . والنافذة مغلقة من الداخل أيضًا . ونظر فى ساعته فكانت الواحدة بعد منتصف الليل . .

وجلس فى فراشه لا يعرف تفسيرًا لما حدث . ثم أنه لا يستطيع أن يستدرج النوم إلى عينيه . . طار النوم والعقل أيضًا . وراح يفكر أن كانت هذه حيلاً تقوم بها هذه العجوز . ولكنه لا يصدق ذلك . ثم أن العجوز لم تستدرجهما إلى البيت . وإنما هما اللذان ذهباإليها . . وليسا من الأغنياء . ولا هى فى حاجة إلى مال . ولا أحد سمع عن قصة هذا البيت .

ثم أن الطبيب رجل ملحد . ما فى ذلك شك أنه الدكتور الفونسو روجيرو أشهر أطباء هذه المنطقة وهو الذى استدعاه البابا أكثر من مرة لعلاجه . ثم أنه من أشهر

اللاعبين بالسيف . واتجه الطبيب إلى النافذة وفتحها بشدة . وكان الجو دافئًا . ثم أنه استطاع أن يرى على ضوء النجوم أن حصانه ما يزال فى مكانه . ثم نظر إلى غرفة زميله الطبيب فوجدها مقفلة . . ووضع أذنه على الحائط وعلى الدولاب لم يجد أية حركة . . وليس أمامه سوى أن يتمدد فى الفراش وينتظر حتى يطلع النهار . .

وفى الصباح جلس الرجلان على مائدة الافطار . واضح تمامًا أنهما لم يناما جيدًا . وقال أحدهما للآخر : هل عندك ما تقوله . . أو هل أقول لك أنا ماذا حدث ؟

رد عليه الآخر : أنت أيضًا .

ـ وأنت رأيت نفس الشىء .

ـ تمامًا .

ـ ولكنك لم تحاول الاتصال بى .

ـ لقد سمعتك وأنت تروح وتجىء ولم تحاول الاتصال بى . فأدركت إنك استطعت أن تتحكم فى أعصابك .

ـ لم أتحكم فيها بهذه السهولة . .

ـ ولكنك استطعت على أى حال .

ثم سكت الاثنان . ولكن الدكتور الفونسو قال : أخشى أن أكون قد رأيت شيئًا آخر غير الذى شاهدته . ولذلك لابد أن أقول لك ما حدث . . أنا رأيت نصف فتاة فى الثلاثين من عمرها .

ـ هذا صحيح .

ـ ويبدو أنها تشكو من شىء فى صدرها .

ـ هذا صحيح . فقد رأيتها تضع يدها على صدرها وتحاول أن تمنع سعالا عنيفًا .

ـ صحيح أيضًا .

ـ وهل حاولت تقبيلك .

ـ لا أظن ربما لم تعجبها لحيتى .

ـ وهل رأيت لحيتك فى المرآة .

ـ أبدًا .

ـ لم تبق منها شعرة واحدة سوداء . . كلها قطعة من الثلج .

ومد يده وأخرج مرآة من جيبه . . ونظر إلى وجهه . . لقد أبيض شاربه ولحيته وكل شعر رأسه !

وجاءت العجوز . ودخلت . وجلست . ونظرت إليهما وهى تتأمل كلا منهما . ثم قالت : أبادر فأشكركما . . فلم يحاول واحد منكما ايقاظى . وهذه أخلاق الرجال ـ بعض الرجال !

ثم عادت تقول : إن ضابطًا كبيرًا نزل فى إحدى الغرفتين . وكان أكبر حمار عرفته فى حياتى . لقد استيقظ عند منتصف الليل يصرخ كالأطفال . ثم نزل بملابسه الداخلية ـ هذا الوقح . وراح يحطم باب غرفتى . وصحوت من نومى الهادئ . وعرفت منه أنه رأى نفس الشبح الذى ظهر لكما أمس . .

ونظر الطبيبان كل منهما إلى الآخر فى دهشة .

قال أحدهما : إذن كنت تعرفين ما سوف يحدث لنا .

ـ طبعًا يا ولدى .

ولماذا لم تخبرينا .

ـ أنتما الآن تعرفان . . فهل ستغادران بيتى .

ـ أعتقد ذلك .

ثم أشارت إلى الطبيب الآخر وسألته : وأنت أيضًا ؟

ـ أعتقد ذلك !

ـ ولكن ما الذى أصابكما ؟ لا شىء . . شعور ببرودة الجو ـ واختناق فى الغرفة . . ثم برودة شديدة فى العنق . . وبعد ذلك يعود كل شىء إلى ما كان عليه . .

ـ وهل يحدث لك نفس الشىء .

ـ أظن ذلك . . ولكنى تعودت على كل شىء هنا . . اننى فى بعض الأحيان أنهض من النوم وأجد الدماء تسيل من يدى . . ولا أعرف السبب . . وأحيانًا أجد النار تشتعل فى ملابسى . . ولكن فى معظم الأحيان أجد ملابسى تمامًا مثل ملابسكما .

ـ وكيف تجدين ملابسنا ؟

ـ مقلوبة . .

وينظر كل منهما إلى ملابسه فيجدها مقلوبة !

وضحكت العجوز وهى تنظر إليهما وقد ظهر عليهما الخوف .

فقالت لهما : أعرف ماذا يدور فى رأس كل منكما . لابد أنكما تقولان اننى أيضًا واحدة من هذه الأشباح . أنا كالشبح فقط . . ولكنى كائن حى مثل أى أحد . . وتعيسة مثل معظم الناس . . وشجاعة مثل أقل الناس . ولا أهاب الموت مثل الموتى !

ولكى يسمع الطبيبان قصة هذا الشبح قررا أن يبيتا ليلة أخرى وفى غرفة واحدة . جلس الاثنان فى السرير ينتظران قدوم الشبح . كل واحد منهما نظر إلى ناحية . . وأحكما إغلاق الباب والنافذة والدولاب . واتفقا على أن ينظر كل واحد منهما إلى ناحية . . وعند منتصف الليل . امتدت يدان فى وقت واحد . . كل طبيب يحاول أن ينبه الآخر إلى أن الشبح قد جاء من ناحيته . ولكن أحدهما لا يحول نظره إلى الجهة الأخرى . . فقد رأى أحدهما فتاة بنصفها العلوى . . ورأى الآخر نصفها السفلى . . النصفان يتجهان إلى منتصف الغرفة . . ثم يلتصق النصفان وتصبح فتاة طويلة عريضة حزينة جامدة النظرة . . ثم تتجه إلى النافذة وتتلاشى وراء الستار . .

وطلع النهار عليهما ولم يناما . .

وجاءت العجوز تروى لهما أن هذه ابنتها . وانها كانت أجمل فتاة فى هذه المنطقة . وأنها تزوجت مدرس التاريخ الذى هجر التدريس واشتغل بتجارة الخنازير . . وكان يكبرها بعشرين عامًا . وكثيرًا ما قال له الناس انها ابنته وليست زوجته . وكثيرًا ما

قالوا له أنه اشتراها بفلوسه . . وأنه لو كانت عنده كرامة لتركها لشاب أجمل وأصغر .
وفى احدى المرات أقام الدوق الكبير حفلة . وأصرت زوجة الدوق على دعوة ابنتها وزوجها وضاق زوجها بهذه الدعوة وراح يشك فى الأمر . ولكنه لم يشأ أن يرفض دعوة الدوق . وذهب مع زوجته . . وكانت أجمل الحاضرات . وكان الضيوف يتهامسون على التاجر الذى يبيع الخنازير كيف أنه اشترى هذه التحفة الفنية . . وكيف أن الذى يفهم فى الخنازير يفهم فى النساء أيضًا . . أو كيف أن المرأة تفضل تاجر الخنازير على تاجر المجوهرات . وكان أشهر تاجر مجوهرات فى هذه المنطقة زوجا لامرأة دميمة . وكانت المقارنات لا تنتهى . . وكان غضب الزوج لا حدود له . . .

ولم تكن السنيورة بياتريشة تقيم مع ابنتها فى بيت واحد . . وإنما كانت تسكن بعيدًا عنها . .

ومنذ عشر سنوات قبل الحادث الأليم أحست الأم بقلب الأم انها تريد أن ترى ابنتها . وجاءت إلى هذا البيت . وقابلها الزوج فى حالة غضب وطردها من البيت بحجة أنها هى التى تشجع ابنتها على عصيان أوامره . وعادت الأم . ولم تر ابنتها . ولكنها عرفت من الخدم أن ابنتها قد اختفت منذ شهور . وأن الخدم كلما سألوا الزوج عنها قال إن الأطباء يعالجونها فى روما . . وأنها سوف تعود قريبًا . .

ولكن الخدم والجيران شكوا فى الأمر وواجهوا الزوج بكل ما يشيعه الناس عنه . . وفى اليوم التالى وجدوا الزوج ميتا فى فراشه . ولم يجدوا فى جسمه أية اصابة من أى نوع . . وإلى جواره ورقة بخطه . . أو السطور الأولى من اعتراف لم يكمله .

وبدأ الخدم يفكرون من جديد فى تصرفاته . .

واكتشفوا أنه فى أحد الأيام قد طلب إليهم جميعًا أن يعدوا له العربة وأنه هو الذى سوف يقودها بنفسه . ثم طلب إليهم ألا ينهضوا لتوديعه فهو لا يريد أن يرى أحدًا . . ولاحظ بعض الخدم أنه كان يحفر فى الحديقة . . وأنه لم يجرؤ على أن يقترب

منه . . ولم يجرؤ فى اليوم التالى على أن ينقب فى مكان الحفر ليعرف ما الذى كان يخفيه سيده . .

وعادوا إلى الحديقة فوجدوا أن سيدتهم مدفونة . . نصفها فقط . . ثم عثروا على المنشار الذى حطم به عظامها . . وبعد ذلك فتحوا الدولاب الذى يسد الباب بين الغرفتين فوجدوا فيه نصفها الآخر . . ثم وجدوا ملابسها التى غرقت فى الدماء مدفونة فى الحديقة أيضًا !

ومنذ ذلك الحادث الأليم وأمها ترى هذا الجسم الطائر كل ليلة فى نفس الموعد . .

ومنذ دفنت الأم ابنتها ـ نصفيها معا ـ لم يعد أحد يرى صورتها .

وإن كان الذين اشتروا البيت بعد ذلك يقولون إنهم كانوا يستمعون إلى أصوات ووقع أقدام ودقات على الباب عند منتصف الليل . ولكن أحدًا لم ير شيئًا .

وفى مارس ١٩٠٢ نشرت (صحيفة جنوة) اليومية أن سكان هذا البيت ظنت الأمهات أول الأمر أن الأطفال مصابون بجنون . . ولكن عندما نامت الأمهات فى غرف الأطفال ، حدث لهن نفس الشىء . .

وقيل فى تفسير ذلك : إن الفتاة ما تزال تبحث عن بقية ملابسها ومجوهراتها . . وإنها تريد دفنها معها . . فإذا حدث ذلك فإنها لن تزعج أحدًا . ويقال إن أحد سكان هذا البيت قد وجد دبلة ذهبية فى عنق عصفور سقط ميتا أمامه . . وأدهشه ذلك . . ولما امتدت يده إلى العصفور وجد هذه الدبلة الذهبية . ولما خلعها من عنق العصفور وقلب فيها وجد عليها اسم هذه الفتاة . . ونصحه بعض الناس أن يدفنها فى أرض الحديقة . . ودفنها .

وبعد ذلك لم يعد أحد يسمع أية أصوات فى هذا البيت عند منتصف الليل !

وفجأة سقطت كل ملابسه فحكموا بالبراءة !

لا أحد يلوم مدير المسرح إذا قرر وقف هذا الممثل . فقد تغيب فى مدى عشرين شهرًا ثلاث مرات دون إذن سابق . ثم أن غيابه عن الحفلة الأخيرة التى حضرها بعض الأغنياء ورجال السلطة ، غلطة لا يمكن أن يغفرها أحد ، ولكن مدير المسرح قرر أن يكون حليمًا فاستدعى الممثل . .

وأغلق عليهما الباب وسأله : هل من حقى الآن أن أعرف سر تغيبك عن الحفلة الأخيرة .

وقال الممثل بعد أن جلس هادئًا وكأنه عرف القرار ، وكان يتوقعه : من حقك طبعًا سواء كنت أعمل هنا أو فى أى مكان آخر . .

وقال المدير : يبدو انك لا تريد أن تعتذر ! هذا غريب ! كأنك مرغم على كل ما فعلت . أو كأنك مقتنع تمامًا بأنك على حق .

وأجاب الممثل : كأننى فعلاً !

ولم يكن مفهومًا هذا الحوار . وهنا قال له الممثل : هل عرفت اننى أكذب ؟

ـ لا !

ـ هل عرفت أننى أشرب الخمر حتى أفقد وعيى ؟

ـ لا !

ـ هل عرفت أننى مهمل فى عملى .

ـ لا !

ـ إذن ؟

ـ هذا ما أريد أن أعرفه .

ـ هل أطلب إليك شيئًا واحدًا يبدو غريبًا ولكنه حقيقى . هو أغرب من كل ما عرفت أنت وما عرفت أنا . . ولكن ما حيلتى . . إنها أمور هذه الدنيا . . ونهاية هذا القرن التاسع عشر !

ـ يبدو أننى سأوافق على ما تقول .

ـ اتفقنا . . سوف أروى للسادة المشاهدين بعد نهاية الفصل الأخير من مسرحية الليلة ما حدث لى فى الشهور الأخيرة . . وليس هذا عذرا عن الغياب . . ولكنها محاولة يائسة لإنقاذ سمعتى ، وإن كانت لن تؤدى إلى انقاذ حياتى . .

ـ كيف ؟

ـ لا أفهم !

ـ ولا أنا . .

ـ اتفقنا !

وفى اليوم التالى وبعد نهاية المسرحية وقف الممثل الأمريكى روبرت هوبل على أحد مسارح نيويورك فى يوم ١٣ أكتوبر سنة ١٨٧٩ أمام الستار . واندهش المشاهدون . ولكنه وقف صامتًا . يشير بيديه إلى كل الناس أن يجلسوا فلديه ما يقوله الآن ، ويبدو أن الأمطار الغزيرة فى شوارع نيويورك قد شجعت الناس على البقاء فى داخل المسارح . قدم نفسه على أنه الممثل الذى يعرفونه . . ولكن عاد يقول إن هناك صورة أخرى له لا يعرفونها . . أنه قرأ الفلسفة ودرس الأديان المقارنة . وله اهتمام خاص بالأرواح والأشباح . وأنه قرأ الكثير . وفى نيته أن يكتب معنى ما قرأ . وأكثر من ذلك أنه يريد أن يروى تجاربه الخاصة . . نعم تجاربه الخاصة . التى ما تزال تشغله حتى هذه اللحظة . نعم هذه اللحظة التى يقف فيهاعلى المسرح ويرى ويسمع أشياء كثيرة لا يدركها أحد سواه . .

قال إنه سمع عن بيت جميل فى أطراف مدينة نيويورك . وفى هذا البيت تحدث أشياء غريبة لا يصدقها أحد . ولكنه يصدقها بعقله . فى هذا البيت أسرة صغيرة مكونة من أب وزوجة . وأختين لهذه الزوجة واحدة منهما اسمها ماجدة . وماجدة عمرها ١٧ عامًا . وفى صحة جيدة . وجميلة جدًا .

وكل شىء حدث فى ذلك العام بسرعة فى إحدى الليالى ـ دائمًا فى الليل ـ كانت الأختان تنامان فى فراش واحد عندما صرخت ماجدة : فأر . . فأر !

وقفزت الأختان من السرير بحثا عن هذا الفأر . ولكنهما لم تجداه . ونامت الأخت ولكن ماجدة لم تنم . فهى على يقين من أن الذى كان يجرى تحت الغطاء فأر. لا شك فى ذلك !

وفى اليوم التالى جلست الأختان على السرير ولكن ماجدة استمعت إلى صوت موسيقى ينبعث من الصندوق الموسيقى الموجود بالغرفة . ولكن أختها لم تسمع هذه الموسيقى . وحاولت ماجدة أن تقنعها بذلك . ولكنها لم تصدقها . ثم تعالى صوت الموسيقى من الصندوق . وظنت أختها إنها هى التى لعبت فى الصندوق . ولكن فجأة ارتفع الصندوق الموسيقى فوق الأرض حتى رأته الأختان ثم هبط إلى مكانه من الأرض . وسارعت الأختان تفتحان الصندوق فلم تجدا فيه شيئًا .

وعندما تمددت ماجدة إلى جوار أختها أحست بانتفاخ شديد فى بطنها . . حتى أحست أن بطنها قد تضخم أكثر مما يجب . . وراحت تشكو من الآلام فى أحشائها . . ثم سمع كل من فى البيت صوت الرعد خارج البيت ولما فتحوا النوافذ وجدوا أن السماء صافية !

وعند الصباح اختفى الانتفاخ وأحست الفتاة أن جسمها يرتجف من البرد . فوضعوا فوق جسمها كل الأغطية . . ولكن هذه الأغطية كانت تنسحب وحدها وتتكوم فى مكان من الغرفة . وجلس أفراد الأسرة على أطراف الأغطية . ولكن الأغطية تنسحب من تحت الجميع !

ومع دهشة كل أفراد الأسرة يتعالى صوت الرعد فى داخل الغرفة !

أما طبيب الأسرة فكان الدكتور كاريت وهو أيضًا أديب ومن آماله أن تظهر احدى مسرحياته فى نيويورك وهو طبعًا يعرف الممثل روبرت هوبل . وجاء الطبيب وفوجئ بأن المخدة قد ارتفعت من تحت رأس الفتاة وأصابته فى رأسه . وكانت صدمة عنيفة . ولكن الدكتور كاريت لم يستسلم للدهشة . ولم يبرح الغرفة . ونظر إلى الفتاة فوجد الفزع والبراءة والضجر على وجهها . وانسحب بمقعده بعيدًا عنها . وتردد صوت السلاسل والأجراس فى الغرفة . . ونظر وراءه ووجد على الحائط هذه العبارة : يا ماجدة سوف أقتلك !

واقترب من الحائط ومد أصابعه إلى حروف هذا التهديد ومحا بأصابعه هذه الحروف . ولم يكد يجلس فى مقعده وينظر وراءه حتى وجد التهديد مكتوبًا من جديد . .

وفتح الطبيب حقيبته وأخرج بعض الحبوب المهدئة . . أعطى الفتاة حبتين وابتلع هو ثلاثا . وانسحب . وفى اليوم التالى عاد ليرى ماذا جرى . إنها شجاعة طبيب يريد أن يفهم . وفى اللحظة التى دخل فيها الطبيب غرفة الفتاة استقبلته المخدات والأغطية وتفادى بعضها ولكنه أصر على أن يعرف من الفتاة أى شىء . ولم يكن لديها ما تقوله . فهى أيضًا لا تعرف شيئًا .

وسمع رجال الدين بما حدث . وجاء واحد منهم وقال لابد من ضربها بالسياط لتخرج منها العفاريت . وحاول إقناع أهلها . ولكن عندما رأى الفتاة : البراءة واليأس والضعف والجمال ، عدل عن ضربها لأى سبب .

وجاء واحد آخر من رجال الدين وقال : عرفت السبب .

وتلفت الجميع فقال : انها الكهرباء !

وكانت أمريكا قد أكتشفت الكهرباء منذ ثلاث سنوات . أما أول ترام فقد سار فى شوارع أمريكا منذ سنة واحدة . وكثير من الناس قد صعقتهم الكهرباء . أو إنها مستهم فأحرقتهم أو أحرقت بيوتهم . .

وكان هناك شعور سائد بأن الكهرباء قوة خفية كالعفاريت تمامًا . بل إنها أقوى من العفاريت !

واقترح أحد رجال الدين أن الفتاة إذا نامت فى غرفة مضاءة بالمصابيح القديمة ، فأن شيئًا من ذلك لن يحدث واطفئت الأنوار . وعادت الشموع . ومع الشموع الهدوء والبهجة . وراح الناس يتحدثون عن بركات رجال الدين ومضار الكهرباء ، وفى احدى الليالى قرر رجال الدين أن يحتفلوا بهذا الاكتشاف . فدعتهم الأسرة إلى عشاء على ضوء الشموع . وكانت ليلة رائعة حقًا . فقد راحت السماء تمطر أعواد الكبريت المشتعلة ! ولم يعرف أحد من أين جاءت أو متى تتوقف هذه الألعاب النارية . ومن الغريب أن هذه الأعواد لم تصب أحدًا بضرر . إنها تتساقط فقط دون أن تحرق أحدًا . . ولكن الرجال هربوا جميعًا وأضيئت أنوار الكهرباء يأسا من سحر الشموع !

واقترح بعض أفراد الأسرة أن تذهب ماجدة إلى مدينة أخرى لزيارة بعض أقاربها للراحة . وذهبت الفتاة . ولم يحدث أى شىء . كانت تنام نوما عميقًا ليلاً ونهارًا . لا خوف عليها ولا خوف منها . وكان من الطبيعى أن تروى هذه الأشياء الغريبة التى وقعت لها وكان الناس يصدقون أو لا يصدقون . وعندما زارت جارة لها شبت النار فى هذا البيت . واتهمها أهل البيت بأنها هى التى أشعلت النار عن عمد . واعتقلها البوليس وحوكمت وصدر الحكم بالسجن . ولكن تقدم أناس كثيرون يدفعون عنها تهمة احراق البيوت . . ولم يجد القاضى دليلا أقوى من صراخ جمهور المحلفين . . فقد وجد كل واحد منهم منديله يحترق فى جيبه !

وعادت الفتاة إلى بيتها . . إلى غرفتها إلى فراشها لتنام وحدها فلم يعد أحد قادرًا على أن ينام إلى جوارها .

وسمع الناس حوادث هذه الفتاة . وجاء واحد من علماء الطبيعة واسمه البروفيسور الآن كراكود . أنه لا يؤمن بشىء من ذلك . ولكنه يريد أن يعرف

واستأذن أن ينفرد بالفتاة . وانفرد بها . . وبعد خمس دقائق خرج أصفر الوجه يتصبب عرقًا . وسألوه : أن كان قد اقتنع . فقال : أعتقد ذلك !

أما نظرية هذا العالم فهو أن هذه الفتاة بها قوة كهربية من نوع غريب . . وأنه أعطاها سلكًا من النحاس . ولم تكد الفتاة تلمس طرف السلك حتى أصابته رعشة شديدة . . ثم أعطاها عودًا من الحديد . . ولم يكد يلمسه حتى وجده حاميًا كأنه وضع فى فرن !

ثم روى أن السلك التف حول عمود الحديد بسرعة ثم طار فى الهواء ليقترب منه وإذا هو يذوب عرقًا . . ويكاد قلبه أن يتوقف !

ومضى الممثل زوبرت هوبل يقول إن واحدًا من أقارب الفتاة قد وجد أنها فرصة نادرة لكى يكسب من ورائها الملايين . وأخذها إلى مدينة واشنطون وهناك ذهب إلى أحد الأندية . وجاء الناس بالألوف يدفعون الألوف أيضًا . . ولكن عندما ظهرت الفتاة أمام الجمهور . لم تمطر السماء أعواد كبريت . . ولم يسمع الناس رعدًا . ولا تطايرت السندويتشات من أيدى الناس . . وأعاد الرجل الفلوس إلى الجمهور. .

ولكن أحد رجال الدين اعتقد أنه يستطيع أن يشفى الفتاة مما بها . . ودعاها إلى الكنيسة . . وهناك راح القسيس يردد الآيات الأخيرة من الإصحاح الثالث من سفر النبى حبقوق . يقول القسيس : « سمعت فارتعدت أحشائى . ومن الصوت ارتجفت شفتاى . . سمعت وارتعدت فى مكانى . . وارتجفت شفتاى » .

ولما سمع القسيس صوت الطبول عاليًا داويًا فى أرجاء الكنيسة . . وسمع الأرغن يعزف من تلقاء نفسه ارتجف وارتعد وسقط مغشيًا عليه . . وهرب كل من كان فى الكنيسة !

ولا أحد يعرف لماذا توقفت هذه الأشياء الغريبة ، ولم تحدث للفتاة . وإنما انتقلت إلى أخيها الأصغر والذى يقيم فى مدينة أخرى . . فقد كان يمشى فى الشارع وفجأة يجد ملابسه قد سقطت عنه كلها فى لحظة واحدة !

وقدم إلى المحاكمة بتهمة الفعل الفاضح . .

وحكم عليه بالسجن . لكن فى اللحظة التى سحبه الجنود إلى السجن . . فوجئ القاضى وكل الحاضرين بأن الجندى نفسه قد سقطت ملابسه كلها فى لحظة واحدة . . وصرخ الناس . . وعندما غضب القاضى وراح يدق المنصة بيده . . لم يجد المطرقة التى يدق بها . . وعندما حاول أن يجدها تطايرت الباروكة من فوق رأسه . . وازداد غضبه وأعلن رفع الجلسة لتسقط ملابسه كلها على الأرض . . وتم الإفراج عن الشاب الصغير !

وعندما وصل الممثل روبرت هوبل إلى هذا الجزء من حديثه الطويل المثير . توقف عن الكلام . وهو يقول : سيداتى سادتى . . أقدم لكم الآن الفتاة والأسرة التى وقعت فيها ولها كل هذه الأهوال . . أنهم وراء هذا الستار . .

وانفتح الستار . .

وانحنى الممثل روبرت هوبل . . ثم رفع رأسه ونظر وراءه يتطلع إلى الفتاة وأسرتها . . ولكنه لم يجد أحدًا . . فسقط على خشبة المسرح منهارًا .

وراح الناس يصرخون : أنظروا . . أنظروا . . لقد سقط الممثل روبرت هوبل بينما ظلت قبعته معلقة فى الهواء !

وتزاحم الناس على أبواب الخروج . وبعد لحظات خلا المسرح تمامًا من الناس . . أما الممثل روبرت هوبل فقد مات !

يكفى جدًا :
غرفة ومنضدة ومقعدان !

أنت لا تستطيع أن تشتم بيتا أو دكانا فى انجلترا . . لأن هذا الشتم نوع من السب العلنى يعاقب عليه القانون . مثلا : إذا قلت إن هذا البيت تنبعث منه روائح كريهة . أو إذا قلت أن هذا البيت منهار وربما سقط هذا العام أو غدًا . . أو إذا قلت ان هذا البيت مسكون بالعفاريت كل هذه أنواع مختلفة من السباب العلنى . والقانون يحمى البيوت من هذه التشنيعات التى تؤدى إلى أن يهرب منها السكان . وفى ذلك خراب على أصحاب البيوت . .

ولذلك فإن الكونت لوى هامون عندما كتب قصصه المشهورة عن البيوت التى تسكنها الأوراح والأشباح لم يشأ أن يذكر عناوينها إلا بعد أن أثبت ذلك بمحاضر البوليس مرة واحدة اعتذر رسميا عن كل ما قاله عن أحد البيوت . مع أنه هو الذى رأى وسمع بنفسه كل مايجرى فى داخل البيت . ولكنه لم يذهب إلى البوليس ويسجل ذلك ويأتى بغدد من شهود الإثبات على كل ماحدث !

وأكثر البيوت التى ذكرها الكونت هامون فى كتبه المنشورة قد أكلتها « الحرب الخاطفة » على مدينة لندن فى سنة ١٩٤٠ وما بعدها . ولكن بقيت بعض القصص المؤكدة .

وهذا الكونت مشهور فى التاريخ بأنه من علماء الأرواح ومن علماء الكف أيضًا

ولذلك قد اشتهر بين الناس باسم « كايرو » . . كلمة يونانية معناها : الكف . .

ورغم متابعة الكونت للبيوت المسكونة فانه نفسه كان يخاف ويرتجف وأحيانًا يكاد يفقد القدرة على التنفس . ولكنه مصر على أن يعرف بأى ثمن . ولم يكن يتردد فى دفع الثمن من صحته وأرقه الدائم .

آخر تجارب الكونت أنه ذهب إلى بيت سمع عنه كل شىء ولكنه يريد أن يرى بنفسه . وكانت فى البيت سيدة ثقيلة السمع . قال لها : أريد أن أسكن فى هذا البيت . ولم تعارض السيدة . وإنما قالت له : لكى أريح ضميرى يجب أن أقول لك أن هناك أصواتًا عنيفة تحطم الأبواب فى الساعة العاشرة من مساء كل ليلة . . أنا شخصيًا لم أسمعها . ولكن الخدم لا يبقون هنا أكثر من يوم واحد . ولابد أن أصدقهم .

قال الكونت : أعرف ذلك . .

واستأجر البيت . . وقام بتنظيفه وطلائه . . وأخذ معه سكرتيره الخاص . وأقام كل واحد منهما فى غرفة . .

وجلس كل منهما ينتظر ما سوف يحدث . ولم يطل الانتظار . ففى الساعة العاشرة مساء سمع الكونت وقع أقدام على السلم . . خطوات هادئة . . متتابعة . . ثم متعجلة . . ثم اقترابا من الباب . . ودقا عنيفا على الباب . . كأن إنسانًا يدق الباب لا بيده ولكن بعظام يده . .

وأضاء الكونت غرفته . . ثم أقترب من الباب وفى يده سيخ من الحديد . . وبسرعة فتح الباب . . ولم يجد إلا الظلام البارد والصمت الرهيب . . لا أحد . . لا شىء . .

وظن أول الأمر أن هذه حيلة من حيل السيدة العجوز ثقيلة السمع . . ولكن هذه العجوز لا تستطيع أن تدق الباب بهذه القوة . . ومن الغريب أن وقع الأقدام على السلم كان على خشب السلم . . مع أن السلم مغطى بالسجاجيد .

وعاد الكونت إلى سريره ولكن وحده فقد ذهب النوم بعيدًا عن عينيه . . وعندما

جلس الكونت وسكرتيره إلى مائدة الافطار كان الارهاق واضحًا على وجهه . . وعلى وجه السكرتير . ونظرت العجوز إليهما : ماذا حدث ؟ يبدو أن شيئًا قد حدث !

وقال الكونت : نعم حدث شىء !

وروى لها ما حدث . . وفوجئ بأن نفس الشىء قد حدث لسكرتيره .

وقرر الاثنان أن يناما فى غرفة واحدة . وأمام المدفأة جلس الاثنان يشربان القهوة . . ويأكلان السندوتش . . وعند العاشرة توالت الأقدام على خشب السلم . . ثم أسرعت الخطوات . وجاءت الطرقات على الباب أعنف من اليوم السابق . . وقفز الاثنان وفى يد كل منهما سيخ من الحديد . . وفتحا الباب . . لا شىء . . لقد أضيئت كل مصابيح البيت . . السلالم . . والصالة . . وقاعة الطعام . . بل انهما كانا يسمعان مفاتيح النور تتحرك واحدًا واحدًا . . وفى حالة من الخوف الشديد راحا يتحركان بين الغرف . . وينظران إلى ترابيس الأبواب والنوافذ كل شىء محكم تمامًا . ويستحيل أن تكون هذه الدقات قد صدرت من أى إنسان !

وقرر الكونت أن يشترى كلبًا ضخما . فهذا الكلب إذا شم رائحة إنسان فسوف ينبح . والكلب هو المقياس الصحيح على أن هذه الأصوات قد صدرت من إنسان أو من شبح .

وقرر الكونت وسكرتيره أن يناما فى غرفة واحدة ومعهما الكلب . وليس من المعقول ـ طبعًا ـ أن يؤدى وجود كلب فى البيت إلى أن تخاف هذه القوى الهائلة التى لا تهاب إنسانًا ولا يخيفها نار ولا شرار . .

وفى الساعة العاشرة حدث كل شىء بنفس الترتيب والعنف . . ونهض الاثنان يفتحان الباب . . وانفتح الباب . وخرج الكلب . . لا يتبع أحدًا . ووجدوا أن المصابيح قد أضيئت كلها . وراح الرجلان يفتشان كل غرفة . . غرف الطابق العلوى وغرف الطابق السفلى . .

وكانت هناك غرفة صغيرة لم يشأ الكونت أن يأمر بتنظيفها أو تجميلها . وإنما تركها كما هى . . وفتح الغرفة . . مظلمة رطبة . ثقيلة . . ولم يكد يدخلها حتى

أحس بقشعريرة وضيق منها . . ففيها شيء غريب كريه مخيف أيضًا . . وكان ذلك نفس شعور السكرتير . . وحاول الكونت أن يدخل الكلب . ولكنه كان يرتجف من الخوف وكان يلوذ بهما ويعوى . . وينظر إلى أشياء غريبة لا يراها أحد . . وحاول الكونت أن يدفع الكلب بالقوة إلى داخل الغرفة ولكنه لم يستطع . فالكلب يكاد يموت من الخوف . . ثم أقفل الكونت الغرفة الصغيرة . وجلس هو والسكرتير يفكران فى الأمر . . قال الكونت : هل شعرت بالخوف والقرف معًا ؟

يقول السكرتير : تماما !

ـ حتى الكلب خاف . .

ـ إنه مثلنا تمامًا . ثم ان الكلب لم ينبح . أن شيئًا جعله عاجزًا عن الوقوف أو النباح . .

وفى هذه اللحظة سمع الاثنان ضحكة مجلجلة . جافة لا أحد يعرف مصدرها .

لم يعد لدى الكونت أى شك الآن فى أن الذى يفزعه هى روح شريرة . . أو روح معذبة . .

وكانت الخطوة التالية : هى كيف يتصل بهذه الروح ؟

هو يعرف الطريقة طبعًا . وقد جربها مئات المرات . وكأن هذه الروح تعرف ما يدور فى رأسه . فلم تعد تظهر أسبوعًا . . وأسبوعًا آخر . وفى بداية الأسبوع الثالث أتى الكونت بالوسيط الذى يستعين به عادة فى مثل هذه الظروف المخيفة . وجاء الوسيط وكان أعمى . .

وجلس الكونت وسكرتيره وعشرة آخرون على شكل دائرة . وفى منتصف الدائرة جلس الوسيط إلى منضدة . وعلى المنضدة مصباح أحمر . .

وفجأة تعالت الطرقات على الباب وبنفس الحدة . وكان الكونت قد أدرك ما تريده هذه الروح . فطلب من الحاضرين أن ينصرفوا وأن يعودوا فى اليوم التالى .

وعندما تركوا البيت جلس الكونت إلى المنضدة وحده وكتب الحروف الأبجدية أمامه على ورقة كبيرة . وراح يمر بأصابعه على الحروف . وعند بعض الحروف كان

يسمع طرقًا على الزجاج . . أو يسمع صوتا كأنه طرق على زجاج كريستال . . ثم جمع هذه الحروف معًا فاذا هى هذه العبارة الطويلة : أنا اسمى كارل كلنت . ولدت ومت هنا منذ ١٢٠ عامًا . ولا أعرف لماذا لا تتركونى وحدى فى هدوء .

وقال الكونت : اننا نريد مساعدتك

وكان رد كارل بالحروف أيضًا :

لا أحد يستطيع مساعدتى . فأنا سوف أعيش هنا إلى الأبد .

وقال الكونت : ولكن لابد أنك معذب وإلا ما ضطررت إلى ازعاج الناس . .

وقالت الحروف : هذا شأنى !

وفى اليوم التالى انعقدت جلسة دائرية . وجلس الوسيط فى مركز الدائرة . .

وفجأة رأى الجالسون سحابة سوداء كثيفة تدخل من الباب . . ثم إذا بهذه السحابة تتحول إلى دخان أبيض . . ثم شىء أبيض . . ثم ملامح واضحة تمامًا . . إنه النصف العلوى لرجل ألمانى فى الخمسين من عمره يقول : أنا اسمى كارل كلنت. عشت هنا منذ ١٢٠ عامًا . وقتلت صديقى . . لأنه كان يعاكس زوجتى . وتعاونت أنا وزوجتى على دفنه فى الحديقة . . صببنا على جسمه الجير الحى . ثم غطيناه بالتراب . . أما زوجتى فقد دفنت وراء التل القريب . . وأنا فى هذا البيت منذ وجدت نفسى ميتا .

وقال الوسيط : وهل نستطيع مساعدتك ؟

قال كارل : لا أريد مساعدة أحد . أريد أن تتركونى وشأنى . لا أريد أحدًا أن يجىء هنا . . أن وجودكم يضايقنى . .

وسأله الكونت : صحيح اننى لا أحب أن أساعد قاتلا مثلك . . ولكن أريد أن أنهى هذا الوضع المخيف بالنسبة لأى أحد يسكن هذا البيت . . فما الذى نفعله لك؟

قال كارل : إذا ذهبت إلى الغرفة الصغيرة وحدك فسوف أقول لك كل شىء . . وسوف يكون صوتى أوضح . أريد أن نكون وحدنا . . أنت وأنا . .

ورفعت الجلسة . . وتلاشى الشبح .

وذهب الكونت إلى الغرفة الصغيرة وجلس وأمسك ورقة عليها الحروف . وراح يحرك أصبعه ومع الصوت الزجاجى كان يسجل الحروف .

وكانت رغبة كارل أن يترك له هذه الغرفة . وألا يدخلها أحد . ثم رجاه أن يترك بها منضدة ومقعدين . فهو سوف يلتقى بروح زوجته . وإنه لن يترك المكان الذى عاش فيه سعيدًا منذ وقت طويل .

وفى اليوم التالى نقل الكونت إلى الغرفة الصغيرة منضدة ومقعدين . وأقفلها تمامًا .

وأقام الكونت فى هذا البيت بعد ذلك عشر سنوات لم يسمع فيها صوتا على السلالم أو على الباب . .

ثم قرر الكونت أن يترك هذا البيت نهائيًا . ورأى من المناسب أن يستدعى روح كارل كلنت قبل رحيله . وذهب إلى الغرفة الصغيرة . وجلس ومعه ورقة عليها الحروف الأبجدية . وهو يقول : سوف أترك هذا البيت هل تريد منى أية خدمة .

وقالت الحروف : خذنى معك .

وقال الكونت : ولكن لماذا ؟

ـ لأنك الوحيد الذى كنت رقيقًا معى .

ـ ولكن كيف آخذك ؟

ـ فى الدولاب الذى إلى جوارك صورة لزوجتى . . خذها معك . . وسوف أكون حيث توجد هذه الصورة .

ـ ولكن أين أضعك ؟

ـ فى أية غرفة صغيرة مهجورة . .

ـ ولن نزعج أحدًا .

ـ طبعًا لا . .

ـ ولكن هل زوجتك تريد نفس الشىء ؟

ـ طبعًا .

ـ ولماذا لا تكلمنى هى أيضًا ؟

ـ فى استطاعتها أن تكلمك . .

ـ أتمنى ذلك .

ـ أنا اسمى شارلوت . . زوجى يحبنى وأنا أحبه أيضًا . وكان هذا الرجل يعاكسنى كثيرًا . واحتملته أول الأمر . ولكن وجدت أن صبرى قد نفد ، فقلت لزوجى على كل شىء . . فقتله ودفناه معًا . . كان زوجى يبكى وهو يدفنه . . يبكى صديقه العزيز وخيانة الصديق شىء فوق الاحتمال .

ـ وهل حزنت أيضًا ؟

ـ وأنا حزنت على عذاب زوجى . . فقد كانت صدمته لاقرار لها .

ـ وهل يسعدك أن ترافقيه إلى بيتى ؟

ـ أتمنى ذلك . . إذا لم يكن هذا يضايقك . .

ـ ولكن أخشى أن يضايقكما أحد . .

ـ لن يحدث ذلك . .

ـ وكيف تقطعين بذلك ؟

ـ أنا كارل الذى يتكلم . . أننا هنا نعرف أشياء كثيرة . . وليس من الضرورى أن تعرفها أنت . . لن يضايقنا أحد بعد اليوم لقد انتظرنا قدومك بفارغ الصبر . .

ـ وهل كنت تعرف اننى سوف أجىء ؟

ـ أعرف تمامًا .

ـ كيف ؟

ـ هذه قصة طويلة . .

ـ لا أستطيع أن أعرفها ؟

ـ لا أستطيع أن أقولها ؟

ـ سر .

ـ ربما كان سرًا . . ولكنى لا أستطيع .

ـ هل لديكما أية أقوال أخرى ؟

ـ هذا يكفى .

ونهض الكونت فقد تصبب وجهه بالعرق البارد . . ثم فتح الدولاب . ووجد صورة لفتاة جميلة ألمانية الملامح أيضًا إنها إذن زوجة كارل . .

وعندما انتقل الكونت لوى هامون إلى بيت آخر ، أخذ هذه الصورة معه . . ثم وضعها فى غرفة صغيرة . . وأغلق الباب . . ولم يعد يفكر فى كل ما حدث . .

وبعد وفاة الكونت شبت النار فى هذا البيت . . ولم يبق منه شيء . . أما الآن فهو جزء من حديقة كبيرة فى احدى ضواحى لندن . ومن الصدف العجيبة ـ أو هكذا يقال ـ أن البيت الذى يبعد عن هذه الحديقة عشرين مترًا مكتوب عليه : بيت شارلوت .

وشارلوت هذه سيدة ألمانية عمرها الآن ستون عامًا . وأغرب من ذلك أن زوجها اسمه كارل كلنت وهو صاحب محل بقالة وله ولد وابنة . الولد اسمه كارل . . والبنت اسمها شارلوت أيضًا ! !

أيها الإنسان أنت معجزة

نزيف من النور !

قبل أن يموت العالم الرياضى اينشتين أوصى بأن يتولى الأطباء تشريح مخه . ليعرفوا إن كان مخ الرجل العبقرى يختلف عن مخ أى إنسان عادى . .

وبعد وفاته حملوا هذا الكنز الثمين . . ووزنوه وصوروه . . وشرحوه . . وتداولوا النتائج . وكانت كلها مخيبة للآمال . مخ العبقرى مثل مخ العبيط لا فرق بينهما فى الوزن أو فى الحجم . تمامًا كما إنه لا يوجد أى فرق بين شريط مسجل عليه سمفونيات بتهوفن وأغنية « البحر بيضحك ليه » . .

ورأس بيتهوفن فى حجم البطيخة ، ورأس أوبنهايمر الذى اخترع القنبلة الهيدروجينية في حجم القلقاسة .

وكلاهما عبقرى . .

ولكن أين تكمن العبقرية ؟ أين توجد هذه القوى الابداعية الخارقة عند بعض الناس ؟ وما هو الفرق بين الذكى والغبى والذكى جدًا والغبى جدًا ، من الناحية التشريحية ؟

لا يوجد عند العلم الحديث أى دليل على الفرق بين الاثنين . .

إن هناك صورًا فوتوغرافية دقيقة لمخ مضىء كأنه مصباح أحمر شفاف . . لا هو

نار ولا هو نور . . وإنما هو وسط بين الاثنين . وفى نفس الوقت يكاد من شدة لمعانه أو توهجه أن يضىء . .

وقد آمن العلماء بعض الوقت أن الذكاء نور باهر . . وإن العبقرية نار متأججة ـ من واقع الصور الفوتوغرافية . .

وإن العقل عندما يفكر أو يستغرق فى التفكير يصبح مثل الراديو أو التليفزيون ترتفع درجة حرارته . .

مثلاً : هل عندك تفسير لهذه الظاهرة الغريبة التى تكررت عشرات المرات بين موسكو ولينينجراد فيما بين سنتى ٦٦ و ١٩٦٧ ؟ لقد جلس اثنان من الأشخاص العاديين أحدهما فى موسكو والآخر فى لينينجراد . . ـ كالإسكندرية وأسوان ـ كل واحد فى غرفة منعزلة تمامًا . لا يسمع صوتًا ولا يرى أحدًا . ولكن أحيط بكل أجهزة التسجيل لحركاته ودورته الدموية والهوائية ودرجات حرارته والعرق الذى يفرزه وتصوير لمخه أثناء التفكير أو الكلام : .

ومطلوب من الرجل الذى يجلس فى موسكو فى ربيع سنة ١٩٦٦ أن ينقل «فكريًا» إلى الرجل الآخر الذى لا تربطه به أية صلة فى لينينجراد ، كل ما يراه . . فقد أعطوه كرة معدنية ملونة . وطلبوا إليه أن ينقل احساسه إلى الرجل الآخر . .

وفى الوقت المتفق عليه ، وبعد مرور عشر دقائق كتب الرجل فى لينينجراد : جسم كروى ثقيل . يزن نصف كيلو جرامًا ولونه أحمر . .

والرجل الذى كان يجلس فى موسكو هو ممثل معروف اسمه نيكولاييف .

ولم يصدق العلماء هذه التجربة . ولذلك أعادوها عدة مرات . وغيروا الأشياء التى طلبوا إليه أن ينقلها « فكريا» . . وكانت التجربة فى جميع المرات ناجحة .

هذه ظاهرة مؤكدة !

ولكن لابد أن يجدوا لها تفسيراً علمياً . ولابد أن يعرف العلم الحديث كيف يستطيع إنسان أن يفعل ذلك . كيف ينقل أفكاره إلى إنسان آخر يبعد عنه مئات الأميال بمجرد أن يفكر فى الأشياء التى أمامه ، وأن يفكر فى الشخص الآخر . ما

هى هذه القدرة الهائلة على الارسال ؟ وما هى هذه القدرة الخارقة على الاستقبال ؟

وهل هذه القدرات « مزايا خاصة » لبعض الناس ولا يمكن تنميتها . . أو غرسها ثم تنميتها بعد ذلك ؟ وهل سببها موجود فى المخ نفسه أو فى الغدد نفسها ، ثم كيف يمكن الاستفادة منها ؟ كيف يمكن ـ مثلاً ـ ايصال معلومات لأشخاص فى أماكن مختلفة دون حاجة إلى اتصالات سلكية أو لاسلكية أو « شفرية » لا تتعرض لأجهزة التجسس المعادية القادرة على التقاط أى شىء وتفسيره ؟

أما هذا الرجل الروسى القادر على الارسال واسمه نيكولاييف فيقول إن كل ما يعمله هو : أنه يركز عينيه وتفكيره على الأشياء التى أمامه ثم يعمق هذا الاحساس أو هذا التفكير أى يجعله يملأ كل جوانبه .

أو بعبارة نيكولاييف نفسه : اننى ألقى بهذه الاحساسات فى أعماقى وأتركها هناك وفى نفس اللحظة أتخيل صورة الرجل الآخر وأركز تفكيرى عليه وبكل قوة . . والباقى لا أعرف كيف يتم أو كيف ينتقل . .

ويقول نيكولاييف أيضًا : ولكن فى استقبال معلومات الرجل الآخر . . فأننى أركز عقلى عليه . . وعلى وجهه وعلى عينيه . . وفجأة أشعر بشىء قد تسلل إلى داخلى فجأة . . كأن يدا خفية قد ضغطت على زرار فأضاء فى داخلى . . وأنار . . وإذا بى أكتب أو أقول . . ولا أعرف كيف !

هو لا يعرف كيف يتم كل شىء . ولكن العلماء بأجهزتهم الدقيقة المعقدة يريدون أن يعرفوا كيف !

والغريب أن دراسة مثل هذه الظواهر « الخارقة » تجرى فى الاتحاد السوفيتى . والغرابة هى أن السوفيت عقولهم علمية معملية ـ وليس من العلم أن تتجاهل أى شىء . ولكن يجب أن يعرف الإنسان كل ما حوله . أن يفهمه . وأن يستفيد من كل ما فهمه وبذلك يدفع الآفاق العلمية إلى مجالات أوسع .

وقد انعقد لذلك مؤتمر دولى فى موسكو سنة ١٩٦٧ وحضره عدد من العلماء من دول كثيرة . .

وفى سنة ١٩٦٥ نشرت المجلات العلمية فى أمريكا وفى روسيا أيضًا صورًا فوتوغرافية للنباتات وحول هذه النباتات هالات من الضوء . يمكن أن يقال إنها اشعاع حرارى . . أو اشعاع ضوئى . .

ولكن بعض العلماء نشروا صورًا لنباتات قد قطعت أوراقها . . ولوحظ أن هناك «نزيفا من النور » يخرج من الأماكن التى نزعت منها الأوراق . .

ونشرت صور لنباتات فى حالة « خوف » أو عندما تقترب منها الفراشات التى تحمل حبات اللقاح . ومن الغريب أن « الهالة » التى تحيط بهذه النباتات تختلف فى شدتها . . فعند الخوف تكون الهالة قوية مركزة وعند فترة اللقاح تكون الهالة أكثر اتساعا وأكثر شفافية وأميل إلى أن تكون وردية أو تحت الحمراء . .

ومن الشخصيات الغريبة المعروفة رجل اسمه ادجار كايس وهو أمريكى . هذا الرجل يتمدد فى فراشه ويغلقون عليه الباب والنوافذ . ولكنه يستطيع أن يقول من الذى يقف وراء الباب والنافذة . ويصف ملابسهم تمامًا . وإذا أخرج واحد منهم ورقة من جيبه فانه يستطيع أن يقرأها . . ولكن إذا سألت هذا الشخص : وما الذى تستفيده من ذلك ؟

ويكون الجواب عادة : لا شىء . . تمامًا كما لو كانت لى عينا صقر . والصقر يستطيع وهو طائر على ارتفاع ألف متر أن يرى الدود على أوراق الشجر ! .

أى أنه لا حيلة له فى هذه القوة الغريبة . ولا يعرف من أين جاءت له .

ويبقى دور العلماء أن يعرفوا وأن يفهموا وأن يواصلوا البحث . .

وهناك الرجل الهولندى سريوس ـ أو الذى اختار لنفسه هذا الاسم . أنه أيضًا مخلوق غريب . هذا الرجل يستطيع بمجرد النظر إلى شىء أن يحركه . . فاذا نظر إلى الورقة تحركت الورقة وظلت تتحرك تحت عينيه لتستقر على المكان الذى توقفت عنده عيناه ، ثم ينظر إلى القلم فيتحرك القلم إلى ما فوق الورقة .

وقد أجريت فى موسكو سنة ١٩٦٨ تجربة على سيدة اسمها ميخائيلوفا لها هذه القدرة الخارقة . فهى إذا نظرت إلى برتقالة تحركت إليها . إن لديها هذه القدرة على

تحريك الأشياء عقليًا . أى بعقلها أو برغباتها النفسية . ويسمونها حالة سيكوكنيس .

ـ أى تحريك الأشياء نفسيًا ، أى بالتأثير النفسى عليها !

وفى أمريكا رجل معروف اسمه آلان برويك . وهو رجل متوسط الطول ووزنه ٧٥ كيلو جرامًا . . وفى الخامسة والأربعين من عمره . . ونظره ضعيف إلى حد ما . وهو يضع منظارا من الزجاج الغليظ على عينيه . . وهو يعمل فى أحد المحلات التجارية بائعًا . وليست له رياضة مفضلة . أحيانًا يسبح . وأحيانًا يقرأ . ولكنه يجلس أمام التليفزيون ساعات طويلة رغم أن هذا يضعف نظره . وهو يشرب فى المناسبات . ويدخن . وزوج وله أربعة أولاد ذكور . وقد أنجبت له زوجته ثلاث بنات توفين فى ظروف متشابهة . فقد متن جميعًا بالسكر . وهو ابن وحيد . وحالته المادية لا بأس بها . والشىء الوحيد الذى يضايقه هو أن العلماء يستدعونه كثيرًا وفى ساعات مزعجة . أحيانًا بعد أن يدخل فراشه للحظات . وأحيانًا بعد الغداء مباشرة . وأحيانًا فى عز النوم . . وأحيانًا بعد ساعات من السهر والأرق ـ ولكنه يتقاضى على ذلك أجرًا كبيرًا . فكأنه اتفاق بينهما على الإزعاج من أجل العلم !

فما الذى يستطيعه هذا الرجل ولا يقدر عليه أحد سواه من الناس . .

هذا الرجل يطلب إليك أن تأتى بكاميرا . والكاميرا فيها فيلم ملون . ثم يطلب إليك أن تقف أمامه . وأن تجعل عدسة الكاميرا فى مواجهة عينيه . ثم يشير إليك بيده لتلتقط صورة لعينيه . وبعد ذلك عليك أن تقوم بتحميض الصورة وطبعها . أما الذى سوف تجده فهو شىء عجيب . سوف تجد صورة لبرج ايفل أو للأهرام أو للكرملين . كيف حدث ذلك عشرات المرات . . أو مئات المرات !

أما هو فيقول : أنه يركز انتباهه تمامًا على الأهرام . ويملأ نفسه أو عقله تمامًا من هذه الصورة . ثم يعلو أو يهبط بهذه الصورة وينقلها إلى عينيه . . ويركز كل شىء فى عينيه . . ثم « يدفع » الصورة من عينيه إلى العدسة . .

فكأنه يستطيع أن ينقل إلى الكاميرا صورة أى شىء يخطر على باله بمجرد التفكير المركز فى هذا الشىء !!

ولكن أحدث تجربة قام بها آلان برويك هى أنه طلب إلى ثلاثة من المصورين أن يقفوا أمامه فى وقت واحد . ونظر إلى العدسات الواحدة بعد الأخرى . ومن الغريب أن كل واحد منهم قد التقط صورة لمبنى الأمم المتحدة من ثلاث جهات مختلفة !

وكان ذلك يوم ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٦٩ .

ما الذى فى عينيه ؟ ما الذى فى عقله ؟ ما الذى عنده من قدرة هائلة على الإرسال؟ ما الذى يرسله من صور وكيف تلتقطها العدسات ؟ إن العدسات لا تلتقط إلا موجات . . كيف يمكن قياس هذه الموجات وهى تخرج من عينيه ؟

هذا ما يشغل العلماء الآن ، وفى الغرب وفى الشرق ، والعلم لا يقول : لا . . لأى شىء . أنه يجب أن يقول : نعم . . ألف مرة حتى يفهم . ويسجل ما يفهمه . ويكتبه ويعلمه للناس . وينميه ويذهب إلى أبعد من كل ما وصل إليه ، عامًا بعد عام . . نحن لا نعرف الآن ما الذى يمكن أن نكتشفه من القدرات الخفية للطاقة الإنسانية .

ويظهر أن الممثل الروسى نيكولاييف قد تطورت تجاربه النفسية إلى أبعد وأعمق . فهو يروى أن ابنه طلب منه أن يقوم برحلة فى احدى المدن القريبة من موسكو . ووافق الأب . وبعد أيام من سفر الابن ولسبب غير واضح شعر الأب بقلق على ابنه فركب القطار وذهب إلى هذه المدينة ليلاً . وهو لا يعرف أين يقيم هذا الابن . ولا يعرف من الذى يمكن أن يسأله فى هذه الساعة المتأخرة من الليل . وقرر أن يعتمد على حاسته الغريبة . فراح يمشى فى الشوارع ويفكر طول الوقت فى ابنه . ويركز قواه كلها على صورته وأخيرًا يجد نفسه فى شارع معين ، ثم ينعطف يمينا ثم يسارًا . . ويقف أمام أحد البيوت . ويدق الباب . ولكن أحدًا لا يرد . ويدفع الباب بعنف . ويدخل . ويجد ابنه أمامه ملقى على الأرض وحوله زجاجات الفودكا والطعام . لقد شرب الابن حتى سقط على الأرض . وأيقظه . وفى اليوم التالى عاد به إلى موسكو .

ويقول الأبن أنه فى الليلة التى شرب فيها وتشاجر مع أصدقائه سمع صوتًا يقول له : سوف تسافر غدًا . . ويقول أن هذا الصوت يشبه صوت والده إلى حد كبير !

ولذلك لم يندهش الابن عندما وجد والده يوقظه ويضعه فى الفراش . . وهو يقول له : سوف نسافر غدًا إلى موسكو !

ومن الطبيعى أن يصبح هذا الرجل نيكولاييف « فريسة » للعلماء . فقد درسوه عضوًا عضوًا . وحللوا دمه ورسموا مخه وقلبه . . ودرسوا طعامه وشرابه وعاداته اليومية . وعالجوه وأمرضوه . وشفوه .

وفى حديث نشرته الصحف له يقول إن سر قدراته هذه أنه يمارس رياضة اليوجا . وهذه الرياضة تجعله قادرًا على التحكم فى كل شىء . وأنه عن طريق هذه الرياضة يستطيع أن ينظم تنفسه ونشاطه ويتحكم فى دقات قلبه . . وأنه قادر على أن يرخى عضلاته وأن يشدها . . ولولا ممارسته المستمرة لهذه اليوجا فان قدراته غير العادية على الارسال والاستقبال كان مصيرها التلاشى . . وأنه يستطيع أن ينمى قدراته هذه إذا تفرغ تمامًا لذلك . ولكنه لا يستطيع لأن هوايته وحرفته هى التمثيل . ويقول إنه يحدث كثيرًا جدًا وهو يمثل على المسرح أن يشعر أن واحدًا فى الصف الثالث سوف ينهض لسبب ما . . وإذا نظر إلى الصف الثالث وجد نفس الشخص الذى أحس به قد جمع ملابسه لينهض !

وهذا الرجل نيكولاييف يعتمد على شخص آخر اسمه كاتشسكى . فهما قادران على الارسال والاستقبال . والمطلوب الآن ، أو الذى يريده العلماء الآن هو : كيف يصبح هناك أكبر عدد ممكن من هذه الأجهزة البشرية للاستقبال والارسال .

إن العلم بقدرات الإنسان وطاقاته ما يزال فى مراحله الأولى . وما دام عمر الإنسانية ما يزال أمامها : ملايين السنين . فنحن على العتبات الصغيرة لسلم المعرفة اللانهائية !

إذا ضربت الطفل بكت أمه..؟!

أنت عالمك محدود . وسوف يظل كذلك حتى نهاية عمرك . وإذا أردت أن تتحقق من ذلك فعليك أن تفكر فى كل الذى شغلك أمس واليوم . وإذا كنت دقيقًا فأمسك ورقة وقلمًا ، وأكتب ، واقرأ ما الذى كتبته .

وأناأعرف النتيجة مقدما . لأننى أيضًا مثلك . فنحن جميعًا مشغولون بأشياء «عادية » أى أشياء اعتدنا عليها . فنحن نعيش بحكم العادة . ولذلك فالعادات قد جعلت عالمنا محدودًا . وحركتنا محدودة والدنيا التى نتحرك فيها أيضًا محدودة . ونحن نريدها أن تكون محدودة ضيقة حتى لا نتعب . فأنت تمشى فى نفس الشارع كل يوم، وتجلس على نفس المكتب وتقابل نفس الوجوه . وتذهب إلى نفس المقهى أو النادى . . وتضع حذاءك إلى جوار الباب ، والصابونة والفوطة فى نفس الأماكن . .

وبعبارة أخرى : أن الحلاق ينظر إلى قفاك والبوهيجى إلى حذائك ، والترزى إلى ملابسك ، ورجل المرور إلى رقم سيارتك ـ كل إنسان قد اتجه بعينيه وأذنيه وتفكيره إلى أشياء محدودة !

هكذا ضيقنا الدنيا علينا . وخنقنا أنفسنا . وإذا حاولنا أن نهرب ، فإننا نضع لأنفسنا قيودا أخرى جديدة . .

وهناك طريقتان لكى ينفتح الإنسان وأن يتفتح : أن يتنفتح إلى الداخل . . وأن تنفتح إلى الخارج . والانفتاح إلى الخارج هو أن تتنقل بين الناس وبين الأشياء وبين

البلاد . . وبذلك تمتلئ حواسك بأشياء جديدة . وهناك الانفتاح إلى الداخل بالقراءة والتذوق الفنى .

والذى فى داخلنا أعجب وأروع من الذى حولنا . وكل تاريخ الإنسان هو محاولة مستمرة لكى يسيطر بعقله على الطبيعة وعلى الناس . أى يسيطر بقواه المعروفة وغير المعروفة على كل ما حوله . .

وهذه القوى الداخلية الخفية لا نعرف منها وعنها إلا القليل . ولكن القليل الذى نعرفه سوف يكون كثيرًا . وقد أنشئت معاهد علمية فى أمريكا وفى روسيا لدراسة هذه القوى الغريبة العجيبة التى تظهر بين الناس ولا يمكن حسابها بالورقة والقلم أو الترمومتر. . . أو بمقياس الأشعة . . ولكن سوف يحدث ذلك فى المستقبل . .

إن أجدادنا قد ملئوا دنياهم بالقوى الخفية من السر والسحر والأرواح والأشباح والطلاسم ووصفنا أجدادنا بأنهم لا يعرفون . . وإن السحر ليس إلا المحاولات الساذجة لأن يكون هناك علم . فالسحر هو الخطوة الأولى فى الطريق إلى العلم . فلما جاء العلم ذهب السحر . ولكن العلم الحديث يؤكد أن السحر والأشباح هما صميم علوم المستقبل !

ففى العقل الإنسانى قوى هائلة لا نعرف عنها إلا نماذج قليلة . . ولكن هذا القليل هو الذى سوف يهدينا إلى الكثير . وما أوتينا من العلم إلا قليلاً . ونحن نحاول أن نجعل القليل كثيرًا . .

مثلاً . . ألم يحدث أنك وصديقًا لك نطقتما بنفس الشىء فى وقت واحد ؟ ألم يحدث أنك قلت شيئًا وإذا بصديقك يقول لك : يا سلام . . كانت على لسانى . . أو عمرك أطول من عمرى . .

ألم يحدث أن تنظر إلى يمينك أو يسارك وأنت تتثاءب فتجد إنسانًا آخر يتثاءب فى نفس اللحظة ؟

هذا الذى حدث يسمونه توارد الخواطر . . أو وجود رغبات فى وقت واحد عند اثنين من الناس بلا اتفاق بينهما . . أو دون أن تكون بينهما صلة من الصلات .

ولكن عندما تربطك صلة قوية بانسان . . فان مثل هذه الأشياء تحدث كثيرًا . . بين المحبين . . بين الأخوة . . بين الآباء والأبناء . .

فى مستشفيات الولادة مئات الأحداث . . فعندما يبكى الطفل فأن الأم التى تبعد عنه عشرات الأمتار تشعر به . . أن هناك حالة معروفة لممرضة خطفت طفلاً جميلاً وفى لحظة اختطاف الطفل صرخت الأم . . وقفزت من السرير بلا سبب واضح . . وعندما ذهبوا يحضرون لها الطفل وجدوا الممرضة قد سرقته ـ مع أن المسافة بين الأم وطفلها مئات الأمتار !

وقد أعلن د . بول ليموتوف فى المؤتمر الدولى الذى عقد فى موسكو سنة ١٩٦١ عن « المشاكل العلمية لتوارد الخواطر » أنه لاحظ أن الأم عندما تتألم فان طفلها البعيد عنها يبكى . . وقد جرب ذلك عدة مرات . وكانت النتيجة واحدة !

وهناك حادثة معروفة للأستاذ لوموتوسوف فى سنة ١٨٠٠ وهو الذى أسس جامعة موسكو . يقول إنه كان فى طريقه من ألمانيا إلى لينتجراد وقد رأى فى النوم أن والده يغرق . وأن والده يطلب منه فقط أن يدفنه فى مكان مناسب . ولما وصل إلى لينتجراد سأل أخاه عن والده . فعلم منه إنه ذهب فى سفينة إلى البحر . وأرسل الأستاذ لوموتوسوف بعض الصيادين لإنقاذ والده ، أو للعثور عليه . ووجدوه غريقا . ثم دفنوه فى إحدى الجزر !

وروى الأستاذ باكستر مدير « معهد الكشف عن الكذب » فى أمريكا أن احدى الأمهات أحست فجأة بوجع فى بطنها . ونقلوها إلى المستشفى ولم يجدوا عندها شيئًا . ولكن الأم قالت : اننى أحس كأن بطنى فتح وكأن عملية الزائدة الدودية قد أجريت لى فى أقل من ثانية . ولذلك صرخت !

وبعد ساعات دق جرس التليفون وكانت ابنتها تحدثها من أحد المستشفيات وتقول إن عملية الزائدة قد أجريت لها منذ ساعات وإنها الآن أحسن حالاً !

يقول د . جارنر مورفى رئيس « جمعية الأبحاث النفسية الأمريكية » أن الناس يشبهون الجزر . . تبدو منفصلة على سطح الماء ، ولكن الأرض كلها متماسكة . .

فكل الناس على صلة بعضهم ببعض . . هم لا يشعرون بذلك . . ولكنها الحقيقة !

ومن الحوادث المؤكدة التى يرويها أن رجلاً خرج من بيته . ركب سيارته . وابتعد عن بيته أكثر من مائة كيلو . وفجأة أحس بشىء من الانقباض . وتوقف بسيارته . . وراح يضع يده على بطنه وصدره يتحسس الألم . ولكنه لم يجد أى مكان موجع فى جسمه . وعاد واستأنف السير . ولكن الضيق قد ازداد وفجأة رأى صورة أبنائه الصغار يصرخون . .

وقرر أن يعود إلى البيت . .

وعندما عاد إلى البيت وجد أن زوجته قد حزمت أمتعتها وقررت الهرب . ولم يكن هناك أى سبب واضح لذلك . ولكنها قررت أن تعيش مع رجل آخر . ومن الغريب أنه لم يدر بين الزوجة والزوج شجار حول هذه القضية !

أما تفسير ما حدث فهو أن الضيق والخوف الذى أحس به الأطفال ، هو الذى انتقل إلى الأب !

وليس بين البشر فقط . . ولكن بين الحيوانات أيضًا . وقد قام العلماء الأمريكان بتجربة بسيطة . فقد أتوا بأرنبة ووضعوا هذه الأرنبة فى أحد المعامل . ووضعوها فى داخل صندوق من الرصاص لا تنفذ منه أو إليه موجات الراديو أو الأشعة السينية أو أشعة جاما . ثم وضعوا على رأس الأرنبة عدادات الكترونية شديدة الدقة . ونقلوا صغارها من الأرانب إلى احدى الغواصات . ونزلت الغواصة تحت الماء . وراح أحد العلماء يقتل صغارها واحدًا واحدًا . ويسجل اللحظة التى تم فيها قتل الأرانب . . ومن الغريب أنه فى كل لحظة يموت فيها أرنب صغير يظهر أثر ذلك على مخ الأم وبصورة عنيفة ، مع أن المسافة بين الأم وصغارها تعد بمئات الكيلومترات ومئات الأمتار تحت الماء !

وفى القرن الثامن عشر قال الشاعر الرومانسى بليك : أن مقتل أرنب واحد ، هو خنق لبقية الأرانب الأخرى !

وهناك عبارة مشهورة لأمير شعراء انجلترا روبرت جريفز : أن أكثر من عشرين فى المائة من الناس أصحاب مواهب خارقة ولكنهم لا يعرفون !

وفى التاريخ مئات الناس لا يعرفون إنهم على هذه الدرجة العجيبة من الشفافية : يرون ما لا يرى الناس ، ويسمعون ما لا يسمع الناس . . ويتألمون عن بعد ، ويفرحون عن بعد . . وفى النوم يرون أحلامًا صادقة !

مثلاً : ذلك القس الشرير راسبوتين . الذى عرفه تاريخ روسيا . كانت لهذا الرجل قدرة هائلة على الاقناع وعلى التأثير . وعلى شفاء المرضى بمجرد الايحاء . وكان قادرًا على أن يسيطر على عقول النساء . على أكثرهن طهارة وإيمانًا . وكانت المرأة تخرج من أحضانه لتعلن وكأنها فى حالة تنويم مغناطيسى : لم يحدث شىء . اننى كنت أنام فى أحضان الله ! !

وكانت لهذا الرجل قدرات شريرة .

ولكن بين رجال الدين ، كل دين ، أناس لهم كرامات . . أو قدرات خارقة . . كيف يحدث ذلك ؟ أنهم لا يعرفون ! ولماذا ؟ لا أحد يعرف . . هل هى قدرات أناس على درجة عالية من العلم ؟ ليس هذا ضروريًا . فكثير من البسطاء والسذج لهم قدرات لا يصدقها العقل لأنها فوق إدراك العقل . فالعقل لا يفهم إلا عن طريق أدوات عاجزة قاصرة وقصيرة هى : العين والأنف والأذن واللسان واليد . . ولكن هذه القدرات . . هذه الطاقات . . هذه الإشعاعات . . هذه الهالات ، كلها فوق العقل . . أو أبعد من أن تدركها الحواس العادية .

ومن بين هذه الشخصيات القوية التى امتلأت بها كتب علم النفس والدراسات الروحية رجل اسمه : فولف مسنج هذا الرجل وقف على أحد مسارح موسكو سنة ١٩٤٠ . . والناس فى ذهول من الحيل التى يقوم بها أمام الناس . وفجأة قفز إلى المسرح اثنان من رجال الشرطة ، قال له أحدهما : انزل .

- إلى أين . .

- لا تسأل . .

ونقلاه إلى خارج موسكو . وأدخلاه فى أحد المعتقلات وفجأة وجد نفسه أمام ستالين . وكان ذلك فى ابريل سنة ١٩٤٠ . ارتبك الرجل ولكن ستالين قال له : أريد أن أتأكد من هذه الأعمال الغريبة التى تقوم بها .

وطلب إليه ستالين أن يأتى بمائة ألف روبل من أحد بنوك موسكو فورًا وذهب الرجل ومعه رجال المباحث . ووقف الرجل أمام الصراف وأخرج من جيبه ورقة بيضاء وكتب عليها : يصرف مائة ألف روبل !

وأخذ الصراف الورقة وأعطاه المبلغ . وعاد مسنج إلى ستالين !

وطلب إليه ستالين بعد ذلك أن يعيد الفلوس إلى البنك وعاد الرجل إلى الصراف وأعطاه الفلوس ولم يكد الصراف ينظر إلى الفلوس حتى سقط على الأرض ميتًا !

لقد فوجئ الصراف بأن الفلوس التى أعطاه إياها ، ليست إلا أوراقًا بيضاء !

وفى أحد الأيام فوجئ ستالين بهذا الرجل قد دخل إلى غرفة نومه . واندهش . ولما سأله : وماذا قلت للحراس ؟ أجاب : لم أقل شيئًا وإنما أوهمتهم أننى وزير الداخلية !

وهذا الرجل مسنج قد رآه اينشتين ورآه فرويد أيضًا . وتمنى فرويد أن يعرف سر هذه القدرة الغريبة عند فولف مسنج . ويقول مسنج فى مذكراته التى نشرت سنة ١٩٦٥ : لقد طلب منى فرويد أن أذهب إلى اينشتين وأن آخذ شعرتين من شاربه دون أن يشعر بذلك .

وذهب إلى اينشتين ورآه ثم خرج ولما سأله اينشتين : لماذا خرجت بهذه السرعة . قال له : انتهت مهمتى ـ ثم فتح يديه ليريه شعرتين من شاربه !!

وسافر مسنج إلى الهند قبل ذلك فى سنة ١٩٢٨ وجلس إلى غاندى . وطلب إليه غاندى أن يعرض عليه بعض هذه الأعمال الغريبة . . فنظر إلى غرفة غاندى فوجد نايا . . وضع الناى بين شفتيه دون أن ينفخ فيه . وفجأة تحرك شىء تحت ملابس أحد الحاضرين . . لقد خرج ثعبان يتلوى ويرقص !

وقد درس العالم السوفيتى د . فاسيليف هذه الظواهر أكثر من أربعين عامًا .

وكانت لديه هذه القدرة الفائقة على أن يوحى للناس بأن يناموا . وأن يستغرقوا فى النوم . دون أن يكون على صلة بهم . . أو دون أن يشعروا بذلك . بل إنه كان قادرًا على أن يوحى إليهم بحركات معينة أثناء النوم . وكانوا ينفذونها بالضبط !

أما مؤرخ الفلسفة جلبرت مورى فقد كانت له تجارب عديدة على ابنته ، التى تزوجت فيها بعد المؤرخ العظيم أرنولد توينبى ـ وكان من تجاربه أنه يجلس فى غرفته ويطلب إلى ابنته التى تبعد عنه أن تفتح دائرة المعارف فى صفحة معينة . ثم تنقل له بضعة سطور . . وكان ينهض من مكتبه ليجد ابنته قد كتبت بالضبط ما أراد . ولم يكن يبذل جهدًا كبيرًا فى التركيز ولا كانت ابنته تفعل ذلك . وإنما كانت تحس أو تسمع صوت والدها فى أعماقها يقول لها انهضى واتجهى وافتحى هذا الكتاب . وقفى عند هذه السطور وانقليها !

وكثيرًا ما اختلطت موهبة توارد الخواطر مع موهبة الاستشفاف ـ أو رؤية الأشياء عن بعد . . وهناك قصة معروفة . قصة الطيار الأمريكى ولكنز الذى عبر القطب الشمالى أكثر من مرة . فقد حدث أن ضل أحد الطيارين الروس طريقه . وتولى الطيار الأمريكى البحث عنه . وكانت لدى هذا الطيار قدرة فائقة على أن يبعث ويتلقى المعانى والاحساسات . وكانت لدى الكاتب الأمريكى المعروف هارولد شيرمان هذه القدرة أيضًا . واتفق الاثنان على أن يتوجه كل منهما للآخر فى ساعة معينة . وأن يسجل كل منهما ما يشعر به ويكتبه .

وكانت النتيجة مذهلة لكل منهما ، ولكل العلماء أيضًا . فقد جلس العلماء حول الكاتب الأمريكى يقرأون ما يكتب . فقد كتب مثلاً : آه . . أنه الآن يرتدى بدلة كاملة ويتحرك بين المناضد فى قاعة مضاءة . .

ولم يكن هذا معقولاً بأى حال . . فهو قد اتجه إلى القطب الشمالى . ولا يمكن أن تخطر على بال أحد أنه سوف يضطر إلى الهبوط بسبب الضباب . . وأن يدعو بعض الروس إلى العشاء . .

وكتب هارولد شيرمان أيضًا : أوه . . هذا فظيع أن لديه حالة اسهال شنيعة . . اننى أشعر بنفس المغص . .

وليس هذه مجرد توارد خواطر فى رأسى رجلين . . بل إن أحدهما يرى على بعد مئات الأميال ما يحدث لزميله . . ويرى كل شىء بوضوح ويحس به كأنما يلمسه ويسمعه ويشمه !

إن بعض الحيوانات لديها هذه القدرة الغريزية على الشم عن بعد ، والرؤية عن بعد ، والاحساس بقرب العواصف والبراكين ، ولكن هذه الحيوانات لا تعرف . . أو لا تفهم . . ولا تستطيع أن تذهب إلى أبعد من الغريزة . . ولكن الإنسان يستطيع . . وسوف يرى أبعد ، ويسمع أعمق . . أن فيه شلالات من القدرات لا يعرف مداها !

لم تعد تقرأ بأصابع قدميها !

أمل كل إنسان هو أن يهرب من هذا « الضيق » الذى وجد نفسه فيه . فى البيت وفى المكتب وفى أى مكان آخر . ولذلك كان الهرب هو نوعًا من « الخروج » أو الانطلاق إلى أى مكان آخر . . فساكن المدينة يهرب إلى الريف ، وساكن الريف يهرب إلى المدينة ، والجميع يهربون إلى البحر . . ويهربون من الحاضر إلى الماضى وإلى المستقبل . . ومن الأرض إلى الكواكب الأخرى . . ومن الواقع إلى الخيال . . ومن قوانين العالم إلى تهاويل الفن . . ومن العقل إلى الذوق . . ومن كل شىء إلى السحر والسر والدين . . إلى الأدب والموسيقى والفن والفلسفة . .

الكل هارب من شىء إلى شىء آخر .

والأدباء والشعراء أكثر الناس احساسًا بذلك ، وأقدرهم على إقامة قصور وجنات فى كل وقت . . وهم أيضًا أكثر الناس شفافية . . ولذلك فهم يرون البعيد ويسمعون الأبعد . . وينقلون ذلك إلى الناس . . ولا يصدقهم الناس . . ولكن الناس يستمتعون بموسيقى الكلمة وموسيقى اللون . . ويكتفون بذلك . ولكن الشعراء استطاعوا أن يسبقوا العلماء إلى كل المعانى وإلى كل القوانين . ولكن بطريقتهم الخاصة . وهذه الطريقة الخاصة لا يعرفون كيف اهتدوا إليها . أو كيف ركبت فيهم بعض المواهب أو القدرات . لا يوجد سبب واضح لأن يولد الإنسان

شاعرًا . ولا أن يولد موسيقارًا أو فنانًا . لا التربية ولا الوراثة . لا شيء . إنه هكذا .

ومن العجيب أن العلم الحديث يرى الآن أن كل الخيالات المجنونة للشعراء والفنانين ليست إلا نوعًا من التنبؤات العلمية . إن صرخات الشعراء فى الليل من أشياء يرونها ويخافون منها ليست جنونًا . وإنما هؤلاء الشعراء قد أحسوا بكائنات أخرى غريبة باهرة . ولكنهم لم يفهموها . وإنما أحسوا بها فقط . إن العلم الحديث يؤكد أن هذا الجنون هو منتهى العقل . .

وإن الإنسانية قد كسبت كثيرًا عندما اعتدت على منطق العلماء ، وخسرت كثيرًا جدًا . فليس بالعلم وحده يفهم الإنسان . وليس بالمنطق أو العقل يفهم الإنسان . وليس الفهم هو الوسيلة الوحيدة لفك طلاسم الكون . هناك مشاعر أخرى . .

هناك « أذواق » أخرى . .

هناك « اتحاد » شعورى .

هناك « ذوبان » وجدانى عند الصوفية وعند كثير من المؤمنين والعشاق . .

إن هذا اللقاء النادر بين اثنين من الشعراء الألمان : جيته (١٧٦٩ ـ ١٨٣٢) وشيلر (١٧٥٩ ـ ١٨٠٥) فى أواخر سنة ١٧٩٤ قد كشف عن حقيقة باهرة . فقد التقى الاثنان فى « مؤتمر العلم الطبيعى » . واختلف الاثنان . وأحس أبو الشعراء جيته أن زميله هذا شخصية كريهة . وأنه من الصعب أن يجلس إليه أو يستمع إليه . وقال جيته فى تفسير ذلك : أعتقد أن فى داخلى قوة ترفضه !

ولكن عندما وقف الشاعر شيلر ليقول : إن العلم قد أخطأ كثيرًا فى فهم الإنسان . أن العلم يحطم الإنسان قطعة قطعة ليعيد تركيبه بعد ذلك . . فى حين أن الإنسان ليس إلا قطعة صغيرة من الحقيقة الكبرى . من الكون . . من الله . .

ثم قال أيضًا : أن الكون كله ليس إلا الثوب الجميل الذى يرتديه الله ! .

فقط أحس الشاعر جيته أن شاعرًا آخر قد عانقه فكريًا يقول جيته : إنما أردت أن أقول ذلك تمامًا . وأن الإنسان هو أعظم وأروع وأعقد مخلوقات الله . ومن الإنسان ومن خباياه وخفاياه الباهرة تبدأ المعرفة الحقيقية لمعجزة الخلق والإبداع ! من

هنا يبدأ كل شيء . وهنا ينتهى كل شيء . ومن يعرف الإنسان يعرف الله . ونحن لا نعرف الله بعد . . فما زلنا نجهل الإنسان !

أما الأديب السويدى استرندبرج (١٨٤٩ ـ ١٩١٢) فهو صاحب العبارة المشهورة : أحسد الطيور . ولا أحسدها . إنها تطير . ولكنها تعود . آه لو طارت ولم تعد . .

وقد اتهم استرندبرج بالجنون . والذى فعله مع زوجته وابنه قد ملأ كتب التاريخ الأدبى والنفسى أيضًا . وكان استرندبرج قادرًا على شفاء المرضى بمجرد النظر إلى الصور. كان يفعل ذلك مع ابنته . . ومع احدى قريباته . كان يطلب إليها أن تجلس فى غرفة ما . ويجلس هو فى غرفة أخرى تبعد عنها مئات الأمتار . وكان يفسر ذلك بقوله : لاشيء أكثر من أننى أتمنى أن أهرب بها أو معها إلى مكان آخر. وأتصور المكان الآخر . أرسمه بعناية : طرقاته وأشجاره وطيوره وموسيقاه وأهبط فى وديانه وأتسلق جباله ثم أهوى بها إلى البحر . . أعماق البحر . .

من الغريب إنه عندما كان يصل إلى هذه اللحظة من صورته الخيالية كان يهوى على الأرض . وكانت الفتاة أو السيدة التى يعالجها أو يتخيل أنه يعالجها ، تحس بشيء من الاهتزاز . أما هو فكان يغرق فى غيبوبة طويلة !

ودخل أسترندبرج التاريخ عبقريًا مجنونًا . ولكن الدراسات الروحية الحديثة تضعه فى باب العباقرة . أو فى باب أصحاب المواهب الفذة فى الشفافية أو فى «الاحساس عن بعد » بأشياء لا يحسها عامة الناس !

أما الشاعر الفرنسى بودلير (١٨٢١ . ١٨٦٧) فقد كان أسبق الشعراء فى تعاطى المخدرات وبأسراف شديد . تم تسجيل ذلك فى كتابه « الجنة الزائفة » وكان بودلير قادرًا على أن يشم الأصوات ويسمع العطور . وفى ذلك يقول : شممت لحنا جميلاً ، وسمعت عطر الزهور . أما هذه الفراشات فهى مجموعة من قوانين المنطق ونظريات الفلسفة . .

والذى قاله بودلير فى القرن التاسع عشر يقوله عن يقين هؤلاء الذين يتعاطون

حبوب الهلوسة . ولكنهم فى الحقيقة لا يهلوسون . . وإنما هم يزودون الحواس بقدرات مكبرة . . تمامًا كما يضع الإنسان على عنينه عدسات مقربة . . أو عدسات مكبرة . . أو يضع على أذنيه «سماعات فلكية » فيسمع صوت الكواكب والنجوم فى دورانها . . أو يسمع تلك الرسالات الغريبة التى تتردد بين الكواكب على مدى ملايين السنين الضوئية . .

فقد اعتدنا جميعاً على « مستوى شعورى » معين . . هو مستوى الإنسان الذى صحا من نومه . . ثم راح يتعاطى عشرات من فناجين القهوة ليفيق . . أو ليزداد يقظة . هذا أقصى مستويات الوعى عندنا . . ولكن هناك مستويات أخرى يمكن خلقها كالتى يعرفها من يتعاطى المنبهات الكيميائية . كأن يبلغ أقراص الرتالين والبنزدرين والبريلودين والأديااليب والأبوزان وغيرها . . إنها « تشحذ » الوعي . . أو تجعل الوعى كالسكين لامعًا حادًا قاطعًا . .

وهناك مستويات شعورية أخرى كالتى يحس بها الإنسان قبل النوم أو عند الكابوس . . أو بعد أن يتعاطى بعض المخدرات أو المنومات أو المهلوسات . . إنها تهبط بالإنسان « دون الشعور » العادى . . تهبط به إلى الأعماق . .

كل هذه مستويات متنوعة من الشعور . . وأيا كان هذا المستوى ، فان الإنسان سوف يجد أشياء أخرى جديدة غريبة . . لم يعتد عليها ، ولذلك لم يعرفها . . ثم أن الإنسان لا يلجأ دائمًا إلى الفوضى فى أعماقه أو بعبارة أخرى : أن الإنسان لا « يتعمق أعماقه » كما يقول العالم الأمريكى رابين الذى تابع دراسة الادراك الحسى عن بعد عشرات السنين . .

والشاعر بودلير يقول : الشقاء هو أن تجد ما اعتدت عليه . والسعادة أن تبحث عن الذى لا تعرفه . فاذا عرفته ، فالسعادة مرة أخرى أن تلوذ بشىء آخر بعد ذلك . . موجة وراء موجة فى بحر لا نهاية له !

أما الشاعر الايرلندى ييتس (١٨٦٥ ـ ١٩٣٩) فقد اتجه تمامًا إلى هذه « الأشياء الخارقة فى طبيعة الإنسان البسيط» ـ كما يقول . فقد كانت عنده خادمة غريبة

العادات . ولكنها طيبة . ولذلك فهو لا يناقشها فيما تفعل . فهى تتصرف بتلقائية غير مفهومة . كأن يطلبها تليفونيًا ويقول لها : أعدى الطعام لأربعة .

وعندما يعود يجدها قد أعدت الطعام لثلاثة فقط . ومن الغريب أنه لم يكن قد أخبرها أن أحد المدعوين قد اعتذر . وكان يقول لها أعدى الطعام لثلاثة ، فيعود ويجدها قد أعدت الطعام لأربعة . ويكون المدعوون أربعة .

وفى احدى المرات دعا خمسة من أصدقائه . وأمام الباب طلب إلى اثنين منهم أن ينصرفا . ويوالى الدق على الباب . وبعد لحظات تفتح له الباب . ويسألها عن سر التأخير ويكون جوابها : أنه ما دام لن يحضر سوى ثلاثة فكان من الضرورى أن أرفع أطباقهما من المائدة !

كيف ذلك ؟ لا جواب عند هذه الخادمة .

ويقول الشاعر ييتس إنه فى احدى المرات طلب إلى هذه الخادمة أن تأتى له بقميص . وأتت به . وعندما ارتداه عادت فسحبت القميص وهى تقول : توجد به بقع من الدم فى الجانب الأيسر سوف آتى لك بغيره !

ووقف هو لا يعترض على شىء . .

وخرج . وأثناء سيره بسيارته . توقف المرور كله فجأة . ونزل من السيارة ليرى . فوجد أحد أقاربه قد صدمته السيارة فعاونه الناس فى نقله إلى أحد المستشفيات . وتلوث قميصه بالدم فى نفس المكان الذى أشارت إليه الخادمة !

وعندما عاد إلى البيت قالت له الخادمة أن القميص الذى نزعته منه فى الصباح لم تكن به بقعة دم . وهى فى ذهول لذلك ـ إنها لا تعرف كيف رأت الدم الذى سوف يكون بعد ذلك !

ويروى الشاعر ييتس أنه عرف رجلاً فى اسكتلندا كان يطلب إليه أن يضع ورقة سوداء على جبهته . ثم يغمض عينيه بعد ذلك . يقول الشاعر ييتس : وفجأة أجد أمامى ، أمام عينى جبالا شاهقة ووديانا سحيقة ومساقط مياه مدوية وطبولا وأبقارًا

وأزهارًا وفاكهة وهواء منعشًا وأرفع يدى عن الورقة . . وأجد الرجل أمامى . . وأشعر بصداع عنيف . كيف ذلك ؟ لا أعرف !

فى سنة ١٩٣٠ كتب أبو الصواريخ السوفيتى تسيولكفسكى : أن الرحلات الفضائية سوف تكون تحولاً خطيرًا فى معرفتنا بالكون . ولكن أهم من ذلك أن نوقظ قدرة توارد الخواطر والصور عند رواد الفضاء . لو فعلنا ذلك فاننا سوف نعرف حقيقة العقل الإنسانى الذى هو أخطر بكثير من معرفة الكواكب والنجوم . فان تعميق هذه القدرات سيجعل من السهل عليهم التفاهم بعضهم مع بعض ومع المحطات الأرضية ، وسوف يصبحون قادرين على التنبؤ بالخطر قبل وقوعه .

وفى سنة ١٩٦٧ نشرت مجلة « الأخبار البحرية » السوفيتية : أن رواد الفضاء عندما يكونون فى مدارهم حول الأرض يسهل عليهم التفاهم دون كلام . وقد حدث أكثر من مرة أن اتجه الرواد فى وقت واحد إلى التحقق من بعض الصمامات . فى الوقت المناسب . وقد أذهلهم ذلك . . وقد تدربوا طويلاً على ذلك . ويمكن مع تدريبات أخرى منوعة ، أن تصبح هذه الشفافية أعمق وأقوى !

ومن الأحداث المعروفة فى عالم الطيران أن اثنين من الطيارين الأمريكان كانا يقومان بتجارب على مستويات عالية فى الجو . وكانا فى طيارتين جديدتين . يقول واحد منهما أنه سمع زميله يقول له : ما هذا الدخان الذى ينبعث من طيارتك !

وكان من المستحيل أن يسمعه بهذا الوضوح . ثم أنه لم يقل له شيئًا من ذلك . وبالفعل التفت الطيار ووجد تسربا للغاز . وأقفله بسرعة !

ويقول أحد الطيارين وكان قد تخصص فى دراسة اللاهوت أنه يستطيع فى بعض الأحيان أن يمد يده إلى جيبه فيعرف ألوان بعض الأوراق أو المناديل . . ولا يعرف سببا لهذه القدرة الغريبة التى اكتشفها فى نفسه عند الطيران على ارتفاعات عالية !

وقد قال الدكتور راين الأستاذ بجامعة ديوك بأمريكا فى مقدمة كتاب له بعنوان «آفاق جديدة للعقل » أنه اهتدى إلى سيدة لا تحسن القراءة والكتابة ، ولكنها تستطيع إذا وضعت الصحيفة على وجهها أن تقرأ بعض العناوين . أو تصف بعض

الصور . وقد أجرى عليها هذه التجارب عشرات المرات . وعندما هاجمه أساتذة علم النفس ، دعا هذه السيدة إلى مؤتمر عام . وعصبوا عينيها تمامًا . ثم وضعوا أمامها ألوانًا وأحجامًا من المجلات والصور . فاذا وضعت يدها على واحدة من هذه الصحف قالت : العنوان الرئيسى أحمر . . أو أسود . . الصورة لفتاة تلعب التنس . . الصورة لحصان يجر عربة . . لا توجد صور . . هذه الصحيفة مقلوبة . . هذه لغة لا أعرفها !

ولكن فى سنة ١٩٦٠ اهتزت الدوائر العلمية فى روسيا والعالم كله عندما تردد اسم السيدة روزا كوشيفا . فهى من إحدى مدن جبال الأورال . ومن أسرة كل أفرادها من العميان . وقد اعتادت أن تقرأ لكل أفراد أسرتها . ثم كانت أيضًا تقرأ مثلهم على طريقة برايل ـ أى الحروف المكتوبة بشكل بارز . وفى إمكان أى إنسان طبعًا أن يقرأ ذلك ليلاً ونهارًا .

ولكن حدث تطور غريب فى ربيع سنة ١٩٦٢ ، لقد استطاعت روزا هذه أن تقرأ الصحف العادية بمجرد أن تمر بأصابعها على الورق . وكانت تفعل ذلك وهى معصوبة العينين .

وتقول إنها اكتشفت هذه الموهبة الغريبة عندما كانت تلميذة فى المدرسة فقد كانت تضع أوراقًا مكتوبة فى جيوبها وبمجرد أن تمر بأصابعها على الورق كانت تعرف كل ما فيها . .

وفى مؤتمر « الدراسات النفسية » الذى عقد فى منطقة الأورال ذهبت روزا أمام عدد كبير من العلماء الذين لا يصدقون ذلك . . وعصبوا عينيها . وعرضوا عليها الصحف والكتب والرسائل الخاصة . وكانت تضع أصابعها على الورق وتقرأ . .

أكثر من ذلك أنهم كانوا يضعون النوتة الموسيقية تحت لوح من الزجاج وكانت تمر بأصابعها على الزجاج وتقرأ ـ وهى معصوبة العينين !

أما الصور فكانت تمر عليها بأصابعها وتصفها بمنتهى الدقة . بل إنها كانت تقول مثلاً : أن هذه السيدة تضع عقدًا أحمر . . أو فى أصبعها خاتم من الماس !

وتطورت هذه القدرة عند روزا لدرجة أنها كانت تقرأ الصحف بأصابع قدميها . . كل ذلك أمام عدد هائل من العلماء الذين لا يصدقون . . ولكن عليهم أن يبحثوا عن سر هذه القوى الخفية فى الإنسان . .

وتطورت فى قدرتها بعد ذلك إلى أنها كانت تستطيع أن تقرأ الصحف إذا جلست فوقها . . فيقال لها مثلاً : ما هى السطور الأولى فى الصحفة الخامسة ؟ أو صور من هذه الموجودة فى نهاية الصفحة السابعة ؟

وكانت تجيب بمنتهى الدقة !

وتحولت مدينة تأجيل فى منطقة الأورال إلى مركز ساحر مسحور باهر لكل العلماء الذين يؤمنون بالروح والذين لا يؤمنون إلا بالمادة .

وأعلن العالم الألمانى رايشنباخ : إذا صح هذا ـ وهو صحيح ـ فمن الواجب أن نلقى بكل ما تعلمناه وما علمناه فى البحر !

وفى سنة ١٩٦٤ أوفدت مجلة « لايف » الأمريكية أحد مراسليها لرؤية « روزا » هذه . . ولكنها فى ذلك الوقت كانت قد مرضت . وضعفت تمامًا . ولم تعد قادرة على القراءة بقدميها إلا نهارًا !

وهنا ربط العلماء بين القدرة على القراءة بالنهار والعجز عن القراءة بالليل . وسألوها وما الفرق ؟

وكانت تجيب بأن اللون الأسود فيه خشونة واللون الأزرق فيه نعومة . . واللون الأخضر فيه برودة . . واللون الأصفر فيه ميوعة ! !

وكلها معان لا يدرى أحد كيف يقيسها أو يضبطها أو يحسبها بمعادلات رياضية أو يزنها بالدرهم والجرام . .

إنها هذه القدرات الخافية الخفية هى أعمق أعماق الإنسان !

الفراعنة ...
عرفوا هذه العصا السحرية

كأننا فى بئر عميقة ولكننا عاجزون عن الرؤية إلى أبعد من أطراف أصابعنا . . كأننا فى داخل مبنى ضخم وأعيننا معصوبة تمامًا ولكننا نرى من خلال ثقب دبوس . . كأننا مثل السلحفاة سجناء هذا القفص المصنوع من العظام . . ولا نتحرك إلا وهذا القفص فوقنا . . كأننا سجناء جدران عالية خانقة . . وكأن الدنيا كلها عبارة عن ظلال تظهر على الحائط ونحن نحاول أن نفهمها . . أى أن نفهم العالم البعيد عن طريق هذه الظلال . .

هذه هى دنيانا مغلقة علينا . . ونحن سجناؤها . . أو نحن كلما حاولنا أن نحطم جدران سجن نبت هناك سجن آخر . .

وتاريخ الإنسانية كله ليس إلا محاولة مستمرة لكى نقفز إلى ما وراء هذه الجدران . . أو محاولة لأن نتسمع ماذا يجرى وراءها . .

ونحن لا نستعين فقط بعقولنا . . ولكن نستعين بهذه القوة الخفية فى أعماقنا . . ونحن نتمنى هذه القوة لكى نعرف أكثر ونسيطر أكثر على دنيانا . . وأن نتلمس من بعيد أو قريب ما وراء هذه الدنيا ومن المؤكد أن هناك آخرة وراء هذه الدنيا !

نعود إلى الرسومات التى نقشها الفراعنة على جدران معابدهم وقبورهم ـ وما الذى لم يقله الفراعنة فى كل كتاب عن العلوم والأديان والفنون والسحر ؟ ما الذى لم

يحاوله الفراعنة فى معرفة الحياة وما بعد الحياة ، وهذه الكواكب ، والكواكب الأخرى ، والذين هبطوا من السماء ، والذين بعد أن هبطوا عادوا اليها . . .

وأسهل إجابة هى أن نقول إنهم يرمزون بها الى أن هؤلاء الناس أرواحهم شفافة وأنهم نورانيون . . سماويون . . ملائكة أو قديسون . . إنهم عباد الله ورسله إلى الناس . . فكأن هذه «الهالات » الضوئية هى دلالات نفسية وروحية . ولكن العلم الحديث له رأى آخر

ففى سنة ١٨٢٥ صدر كتاب فى ألمانيا لعالم كيميائى معروف اسمه البارون فون رايشنباخ . . الكتاب عنوانه طويل جدًا ، على عادة العلماء الالمان . . وعنوانه هو : الأبحاث النفسية الطبيعية للمغناطيسية وعلاقتها بالقوة الحيوية من واقع التجارب الشخصيه للمؤلف وآخرين . . وكان لصدور هذا الكتاب دوى فى اوربا . ولو صدر هذا الكتاب مرة أخرى وبعبارة سهله لكان من أكثر الكتب انتشارًا . وهو كتاب غير معروف الآن . والنسخ الموجودة منه فى المكتبات العالمية محدودة . . والذى يريد أن يبحث عنه يجب أن يقلب فى الفهارس تحت كلمة « كيمياء » مع أنه ليس فى الكيمياء . يقول العالم الألمانى البارون رايشنباخ أنه ذهب لزيارة احد أصدقائه من الأطباءفى مدينة فينا . وكان الصديق قد أعد له عددًا من المرضى . . من بينهم مريضة عمرها خمسة وعشرون عامًا . . وهى ذات خصائص غريبة . أو على الاصح ذات «أطوار» غريبة . . أما هذه الأطوار فهى إنها إذا لمست المعادن فمن الصعب أن تتخلص منها . . الملعقة تطير إلى يديها . . والأطباق . . والمفاتيح . . وكل شيء معدنى . . لا يكاد يقترب منها أو تقترب منه حتى يلتصق بها ولا يتركها إلا بصعوبة .

واقترب البارون رايشنباخ من هذه الفتاة وأعطاها المغناطيس ـ الذى على شكل حدوة الحصان ـ ثم أتى بأعواد حديدية تزن عشرات الكيلوجرامات . . وتعلقت كلها فى حدوة الحصان . . ثم أتى بخمسين كيلوجرامًا . . وتعلقت كلها فى حدوة

الحصان . . مع أن هذه الحدوة ليست إلا مغاطيسًا بسيطًا لا يقوى إلا على الأوزان الصغيرة جدًا . .

وقام البارون رايشنباخ بتجارب أخرى على هذه الفتاة . . فقد وضعها فى حجرة مظلمة ثم أتى لها بمغناطيس على شكل حدوة الحصان ولكنه أكبر حجمًا . . وكانت الفتاة تقول إنها ترى براكين نورية تخرج من هذا المغناطيس . . ومن أجسام كل الذين حولها . . وتقول إن هذه النافورة الضوئية تخرج من كل جسم . . وبدرجات متفاوتة . .

وتعددت تجارب البارون رايشنباخ وأطلق على هذه القوة الخفية الموجودة فى جسم الإنسان : القوة الأودينية أو الأودية ـ نسبة للآله الجرمانى أودين !

هذه القوة الأودية موجودة عند كل إنسان . . وهذه القوة يمكن تنميتها ويمكن استخدامها فى الاحساس بالأشياء البعيدة . . السماع عن بعد والرؤية عن بعد . . والتأثير على الآخرين من الناس ومن الأشياء . .

ويقول البارون رايشنباخ : أن هذه القوة الأودية ليست حبيسة الجسم الإنسانى ، ولكنها تشع منه دون أن يكون له أى سلطان عليها . . وان كانت هذه القوة تتفاوت فى الإنسان حسب حالته النفسية !

والعلم الحديث لم يذهب إلى أبعد مما اهتدى إليه هذا العالم الألمانى فى منتصف القرن التاسع عشر .

ولكن بظهور نظرية داروين فى التطور وأصل الحياة والاحياء توارت نظرية القوة الأودية ودخلت فى عالم الخزعبلات . . ولم يجرؤ أحد على أن يشير إليها من قريب أو من بعيد . فقد ظهر داروين وتحولت كل العلوم إلى أقزام وتحول رجالها إلى الظل . . فلا شىء إلا داروين وإلا التطور الهادئ أو التطور المفاجئ وإلا الحلقة المفقودة بين الإنسان والقرد !

هذه القوة هى التى تهدى الاسماك من جانب المحيط الأطلسى إلى الجانب الآخر

فى موسم الاخصاب . . وتهدى الفئران فى اسكندناوه إلى أن تلقى بنفسها فى البحر . . والديدان الصغيرة تزحف بين الأعشاب ألوف الأمتار لكى تتلاقى لأسباب خفية . . وتموت معًا . . وهى التى تهدى حمام الزاجل فيعبر المحيطات معتمدًا على ملوحة الماء أو على جاذبية الأرض أو ضوء النجوم . . وهى التى تهدى النحل والنمل فى ضوء الشمس وبسبب جاذبيتها أيضًا . .

إن قوانين ثابتة راسخة قد استقرت فى هذه الحيوانات والحشرات . هذه القوانين هى التى نسميها الغريزة . . وهى التى تجعل لهذه الحيوانات والحشرات هالات ضوئية فى الليل . . وتجعل للنباتات أيضًا هالات متباينة الألوان تهدى إليها الحشرات أو تجتذبها أو تتصيدها لكى تحصل منها على حبوب اللقاح . . أن النباتات تتجمل وتضع أجمل زيناتها الضوئية لكى تغرى الفراشات والنحل وتسرق منها حبوب الحياة . . لتستمر الحياة فى النبات والحيوان أيضًا !

وفى سنة ١٩٣٨ أصدرت الدكتورة هارييت جاريت أستاذة علم النفس الأمريكية كتابًا عنوانه « الإنسان وقواه الخفية » تقول : «كان من عادتى وأنا صغيرة أن أنظر إلى النباتات . وأظل مبهورة بهذا الضوء أو الضباب الرقيق الأبيض الذى يخرج منها على شكل دوائر تتصاعد وتتداخل . . فإذا هززت هذه النباتات أو الزهور ظلت ألوانها وأنوارها تتسايل . . فإذا نزعت زهرة أو ورقة لاحظت أن المكان الذى قطفت منه الزهرة أو الورقة ينزف نورًا غريبًا عجيبًا . . واكتشفت أن سبب حبى للحيوانات هو شىء من ذلك . . فمن هذه الحيوانات الصغيرة تتصاعد أعمدة دقيقة ناعمة من الضياء . . فإذا داعبت القط فإن هذه الأعمدة تتصاعد بسرعة وتتلون . . ولم أعرف أن هذه القدرة عندى وحدى . . وأن الناس لايرون ما أرى . ولذلك التزمت الصمت . . ثم اكتشفت أيضا أننى أشم روائح غريبة لكل هذه النباتات والزهور وأن الناس ليسوا مثلى . . وأكثر من ذلك أننى رأيت دموع الزهور إذا نزعت وريقاتها . وكنت أبكى أنا ايضًا » . ويبدو أنه مكتوب على الإنسان أن يكتشف هذه القوة وأن ينميها أيضًا . وأن يستعين بها على حياته . . وعلى مشاكل دنياه . .

ونعود مرة أخرى إلى الرسومات الفرعونية . . ففى هذه الرسومات نجد أناسا يمسكون عصا فى أيديهم . وهم لا يتوكئون على العصا . وإنما يسحبونها على الأرض . . وينظرون أليها باهتمام شديد . . إن هذه العصا ليست إلا وسيلة « لجس » التربة . . لمعرفة ما فيها من معادن . . أو مياه . . وكان الناس يفعلون ذلك أيضًا فى الصين . . ففى عهد الملك يو (٢٢٠٠ قبل الميلاد) نجد أن بعض الرجال كانت لديهم القدرة على معرفة أين يوجد الذهب فى الأرض بمجرد أن يمسكوا عصا خشبية ويمرروها على وجه الأرض! إن العلماء السوفيت قد جربوا هذه العصا فى العشرين عامًا الأخيرة . فقد اكتشف علماء النفس فى مدينة لنينجراد أن سيدة فى مدينة « آلما آتا » فى جمهورية كازاخستان تستطيع اذا أمسكت عصا من شجرة من التى تنمو فى الظل، فانها تستطيع أن تعرف أماكن المياه والمعادن اذا مرت بعصاها على وجه الأرض . وقد نجحت هذه السيدة فى كل التجارب .

وأدخل السوفيت تعديلا على فرع الشجرة واستخدموا عودا حديديا . وكانت النتائج ايجابية أيضًا . فقد لاحظ العلماء السوفيت أن اغصان الشجرة إذا جفت فقدت قدرتها على توصيل اشعاعات المعادن الى جسم من يحمل العصا . . ولكن الأعواد الحديدية كانت أقوى فى بعض الأحيان .

وفى ١٩٣٠ لجأ وزير المعادن فى مستعمرة كولومبيا البريطانية الى سيدة استرالية اسمها بتروز . . هذه السيدة كانت عندها المقدرة الغريبة على أن تستخدم هذه «العصاالسحرية » فتعرف بالضبط أين توجد المعادن على أعماق سحيقة فى الأرض . . وقد أجريت عليها تجارب عديدة فحددت نفس الأماكن التى سجلها المهندسون قبل ذلك !

وفى كتب الجريمة والمباحث الجنائية الفرنسية نجد شخصًا شهيرًا هو جان ايمار . . هذا الرجل كان يستطيع وهو يمسك عصا خشبية ان يهتدى إلى جثث القتلى . . وإلى المجرمين وإلى الاماكن التى ترددوا عليها . . وكانت له خاصية

غريبة : إذا ذهب إلى حيث تدفن الجثة فأن العصا تلتصق بالأرض ، ثم أنه يرتجف ويتصبب عرقًا !

أما القسيس المعروف الأب مرميه فكان قادرًا على أن يكتشف جثث القتلى والمفقودين باستخدام عصاه . وفى حديث له قال : انه اكتشف هذه الموهبة فى نفسه فى سن صغيرة واخفاها عن الناس . وقد تحدث الى البابا بذلك . . وأوصاه البابا أن يسخر قدراته لخدمة الناس !

وفى مايو ١٩٣٤ بلغ عدد ضحايا الانهيارات الجليدية فى سويسرا أربعة وثلاثين شخصًا وقد اهتدى اليهم الأب مرميه بعصاه واحدا بعد واحد !

وكان الأب مرميه لا يفرق بين الأرض والجليد أو الماء . فهو إذا ركب زورقا فانه وهو جالس فى الزورق يستطيع أن يهتدى إلى أماكن الغرقى . . وإذا ركب سيارة أو عربة فانه وهو جالس يلاحظ أن العصا فى يده ترتجف . . ويوقف العربة وينبش فى الأرض ليجد الجثة !

وفى أمريكا استطاع واحد من أصحاب « العصا السحرية» هذه ان يكتشف وهو راكب احدى الطائرات منجمًا من النحاس فى لاس فيجاس الأمريكية . ونشرت صحيفة (نيويورك تايمز) فى اغسطس سنة ١٩٦٤ أن المهندس جورج باكرى قد اكتشف بعصاه السحرية منجمًا من النحاس . . أما طريقة اكتشاف هذا المنجم فعجيبة . . فقد كان يتناول طعامه فى احدى الطائرات . . وفجأة اهتزت الكأس فى يده وسقطت على ملابسه . . هو وحده . . فلم يحدث ذلك لأحد من الركاب وظن بعض الركاب أنه مخمور أو أنه مريض . ولكن الذى يشربه كان عصير الأناناس . . وأدرك جورج باكرى هذا أنه يوجد تحت الطائرة منجم معادن . . ولكنه لم يستطع أن يحدد المكان بالضبط . . ولكنه نظر فى ساعته فأدرك أنه قد غادر المطار منذ أربعين دقيقة . . وعاد إلى هذا الطريق من جديد بطائرة خاصة . . وحدثت نفس الرجفة فى يديه . . وألقت الطائرة مظلة بها برميل . . وسقطت المظلة بالقرب من المنجم . .

ولما نزل هذا المهندس إلى مكان المنجم كانت كل الأشياء التى يمسكها ترتجف أو تتناثر. وكان كل إنسان يقترب منه يحس كأنه مس سلكا كهربيا . . وتحول هذا المهندس إلى «صاعقة» تضرب كل من يقترب منه !

إنها هذه القوة الخفية . . أو هذه الألغاز الإنسانية التى تجعل بعض الناس يشعرون بمغناطيسية الأشياء والناس فى أعماق الأرض ، أو تحت الماء . . ويرون النور يتفجر من كل شىء حى !

يظهر في مكانين .. في وقت واحد !

« هذا الذى أراه بركان من الدم . . سيول من النار . . ألسنة من اللهب . . مع أن الذى فعلته ليس أكثر من أننى مررت بسكين على هذه الأشياء الصغيرة » .

هذه العبارة قالها رجل أرمنى ليست صناعته الأدب ولا نظم الشعر ، ولا حتى حفظ الشعر . . انه رجل كهربائى بسيط . وهذا الذى يصفه لم يره بعينه . وإنما رآه على أحد الأفلام الملونة التى التقطها بكاميرا من تصميمه هو .

أما هذا الذى رآه فهو مجموعة من أوراق الشجر وأوراق الزهر قد مزقها بيديه . . ثم سجل بالكاميرا هذا الذى فعله . .

إن الأوراق تنزف ألوانا حمراء . . والورود تسيل دما قانيا ـ ألوانها هكذا .

حدث ذلك فى مدينة تفليس بالاتحاد السوفيتى سنة ١٩٤٩ .

وذهب عشرات من العلماء يرون هذه الصور ويطلبون إلى هذا الرجل كريليان وزوجته أن يعيدا تسجيل نباتات وزهور أخرى . . وكانت النتيجة واحدة : شىء من النار ، الدم يتصاعد كالنافورة من الأوراق التى تمزقت . . من أية ورقة تمزقت . .

وفى سنة ١٩٠٠ استطاع عالم أمريكى أن يرى بعينه المجردة إننا إذا قطعنا غصن شجرة فإن مكان القطع يبدو داميًا . . ولم يصدقه أحد فى ذلك الوقت . . ولولا أن

اسمه والتر ليكز أستاذ الفيزياء باحدى الجامعات ، وأن أحدًا لم يشك فى قدراته العقلية ، ما صدقه أحد . .

وذهب علماء لا يصدقون كريليان . . واستدعوه إلى كليات متعددة . . وعزلوه تمامًا عن كل الناس وطلبوا إليه أن يصور أجسام البشر . . فما الذى رأوه ؟

لقد رأوا أن الجسم الإنسانى تخرج منه ألسنة من الألوان المتداخلة . . الأحمر والأزرق والأخضر والدموى . . وأغرب من ذلك أن هذه الألوان لها شكل واحد . . إنه شكل الجسم الإنسانى . . وهذا الشكل يحيط بالجسم الإنسانى وقريب منه . . وأحيانًا يكون هذا الشكل الضوئى بعيدًا عنه . . ولكنه ملازم له . . أو الملون هو الذى يقولون عنه : الجسم بديل له . . هذا الشىء الشفاف اللطيف . . أو الجسم النورانى أو السماوى . . أو الطاقة الحيوية . . أو الطاقة . .

وقد دلت الصور التى أخذت لبعض الموتى ، بعد الوفاة بساعات على أن هناك شكلاً ضوئيًا . . ملاصقًا للجسم وقريبًا منه . . ويظل هذا الشكل الضوئى . . أو هذا الغشاء المضىء موجودًا بعض الوقت ، ثم يختفى تمامًا . . إنه يشبه البخار الذى يتصاعد من إناء يغلى . . ويظل هذا البخار واضحًا ما دامت درجة الحرارة مرتفعة . . ويتلاشى كلما انخفضت . . حتى ينعدم تمامًا . .

وبعض الناس عندهم طاقة كامنة . . هذه الطاقة فى استطاعتهم أن يتحكموا فيها ويوجهوها إلى الآخرين . . بصورة نافعة أو ضارة . . وفى كل كتب التاريخ : كتب الدين والسحر فى كل العصور ، نجد أناسًا لهم القدرة على شفاء الآخرين بمجرد الاقتراب منهم . . أو بمجرد أن يلمسوهم !

وليس غريبًا أن نجد عند المؤمنين الذين لهم دين أمثلة من ذلك . . ولكن الغريب أن نجد فى روسيا مثلاً ضابطًا متقاعدا فى الجيش اسمه كريتوتروف قادرًا على أن يعالج آلام الروماتزم وأوجاع الظهر . وهذه التجارب التى قام بها الضابط شهدها عشرات من العلماء الذين لا يؤمنون بدين . . ولكن أمام هذه التجربة التى تكررت

عشرات المرات ، لا يسعهم إلا أن يفكروا . ويعاودوا النظر فى كثير من نظرياتهم الجامدة .

يقول المرضى الذين عالجهم هذا الضابط إنهم كانوا يشعرون بلهب من النار يخرج من يديه . . مع أن الذى يلمس يديه يجد إنهما باردتان ترتجفان . . وبعض المرضى كان يقول إن النار كانت تلسع أماكن الألم فى الظهر أو فى المفاصل أو فى العنق . . وبعض المرضى كان يقول إنه يشعر بأن هذه النيران كانت تجىء من بعيد . . وإنهم كثيرا ما سمعوا صوت فرقعة أو طرقعة . . كالتى يسمعها الإنسان عندما يضع الخشب فى الفرن . . أو عندما يخلع ملابسه الصوفية . .

وفى كندا قام أستاذ جامعى اسمه برنارد جيل بتجربة من نوع آخر . . لقد اكتشف أن بعض المواطنين لديه قدرة غريبة على حفظ الطعام دون أن يفسد . . إلى جانب قدرته على علاج المرضى . . فقد وجد فى الريف الكندى رجلاً مؤمنًا إذا لمس قطعة اللحم مرة كل يوم فإن هذا اللحم لا يتعفن مهما طال به الوقت . . وقد قام بهذه التجربة فى أماكن مختلفة . وعلى لحوم منوعة . . وقد وضعت هذه اللحوم بعد ذلك فى صناديق من الخشب فى أماكن دافئة . . ومن العجيب أن اللحوم لم تفسد !

واشترك عدد من العلماءالأمريكان فى تجربة مثيرة . . فقد أتوا بعدد من هؤلاء الناس الذين يشتغلون بعلاج المرضى . وأجروا عليهم تجارب متعددة . . من بين هذه التجارب إنهم كانوا يضعون البذور فى أيديهم بعض الوقت . . ثم يضعونها فى التربة . . وقد أكدت التجارب أن البذور التى وضعوها فى أيديهم تنمو أسرع وأقوى من البذور الأخرى التى لمسوها !

ما هذا ؟ فى استطاعتك ان تقول أن هذه هى البركة . . أو لمسة البركة .

ولاحظ بعض العلماء الأمريكان أن البذور التى يمسكها المعالجون وهم فى حالة من الغضب أو الثورة ، لا تنمو . . وإذا نمت فأنها تكون متخلفة ذابلة . . وبعد ذلك تموت !

ما هذا ؟ فى استطاعتك أن تقول : إنها لمسة النقمة . . أو اللعنة . . أو الحسد . .

وفى بلجيكا طلب الدكتور أريرا مستشار الدولة لشئون المواد المشعة إلى أحد هؤلاء المعالجين أن يقوم بتجربتين فى وقت واحد . سأله : لو كان لك صديق وأردت أن تعطيه حفنة من البذور فماذا تفعل ؟

قال الرجل : أعطيه هذه الحفنة .

ومد يده إلى إناء به بذور القمح وأعطاها للدكتور أريرا . .

وعاد يسأله : وما الذى تعطيه لعدوك ؟

وقال الرجل : أعطيه هذه الحفنة !

ومد الرجل يده إلى نفس الإناء واخذ حفنة وأعطاها له .

ووضعت كل حفنة من البذور فى تربة واحدة وفى بيئة واحدة . . ونبتت البذور التى باركها الرجل ، ولم تنبت البذور الأخرى ! ـ (اقرأ كتاب الدكتور أريرا الذى عنوانه « الأجسام النورانية الأخرى » وقد طبع فى لندن سنة ١٩٦٩) .

فما هذا الذى فى الجسم الإنسانى ؟

هناك طاقة أخرى . . قوة ثانية . . لها سبل أخرى لا نعرفها . تظهر عند بعض الناس بصورة عنيفة . . ويمكن تسجيلها بالصورة الحساسة .

ولقد اهتدى أهل الصين منذ خمسة آلاف سنة إلى ذلك . ففى الجسم الإنسانى اثنتا عشرة قناة . . أو دهليزا . . أو ممرًا . . وهذه الممرات تتخللها ٧٠٠ عين . . أو نقطة . . وهذه النقط إذا وخزناها بالأبرة الذهبية أو الفضية فإن هذا يساعد هذه القوة على أن تعدل مسارها . . أو تنطلق أكثر . . أو تتوقف ـ وفى السنوات الأخيرة انتقل أطباء الصين من العلاج بالابرة إلى التخدير بالابر . . أى استخدام هذه القوى استخدامًا نافعًا . . وإذا نحن شرحنا الجسم الإنسانى فإننا لا نجد مكانًا لهذه القنوات . . ولكن التجربة الصينية الطويلة تؤكد بصورة عملية صحة هذه الخريطة السحرية للجسم الإنسانى . .

والصينيون يقولون : الجسم الإنسانى له طاقتان : كهربية وحيوية .

والطاقة الحيوية هى التى يعتمدون عليها فى الوخز للعلاج أو التخدير تمهيدًا للعلاج .

والمثل الصينى يقول : الطبيب الممتاز هو الذى يمنع الداء قبل أن تظهر أعراضه . .

والطبيب الفاشل هو الذى يعالج الداء الذى كان من الواجب أن يمنعه .

ومن عادات الصين القديمة : أن الطبيب الذى يفشل فى علاج المريض كان يرد إليه ما دفعه من المال . . لو طبقت هذه الحكمة الصينية العظيمة ، ما عاش طبيب ولا صيدلى ولا مؤسسة أدوية فى العالم كله !

والصينيون يرون أن هذه الطاقة الحيوية شديدة الحساسية وأنها تتأثر بالبيئة . . بالجو . . بالرعد والبرق . . ودورة القمر . . والمد والجزر . . والشمس . . والرياح والضوضاء . . ولذلك فأكثر الناس اقتدارًا هم الذين يعيشون فى معزل عن هذه المؤثرات اليومية .

صحيح نحن جميعًا حيوانات : أمام الخبز والقبلات .

ولكن من المؤكد أننا لسنا آلات . . فهناك فى داخل الإنسان قدرات هائلة لم يهتد إليها حتى الآن . . ولكن سوف يفعل ذلك بتقدم العلم ، وإحساس الإنسان بأنه فى حاجة إلى من هو أقوى منه . . إلى الله !

وفى العشرين سنة الأخيرة انشغل العالم كله بالمسرح الحديث الذى اسمه « مسرح العبث » أو مسرح اللامعقول . وهو لا معقول لأننا نرى شيئًا غير مألوف . يصدمنا . يشككنا فى عقولنا . فليس من المعقول مثلاً : أن ترى شخصًا واحدًا فى مكانين فى وقت واحد . . هنا وفى نفس الوقت هناك . . أو ترى شخصًا واحدًا فى زمانين فى وقت واحد . . أى تراه وهو طفل وتراه فى نفس الوقت وهو رجل . . أو تراه وهو ميت . . منذ سنوات . . ونراه حيًا أمامنا . . أو نجد إنسانًا يتحدث إلى نفسه . . ونراه شخصين فى وقت واحد . .

واعتدنا أن نرى ذلك . . فى العشرين سنة الأخيرة . . وأن نقرأ ذلك من مئات السنين . . ونضع عنوانًا لهذه الغرائب هو : كل شىء جائز .

وفى ديسمبر سنة ١٩٦٢ نشرت مجلة « القدر » الانجليزية أن طبيبًا بيطريًا استدعى فى ساعة متأخرة من الليل لعلاج عدد من الفيلة فى تنزانيا وأن حالة الفيلة خطرة . وأنه من الضرورى أن يذهب فورًا . واستعد الطبيب لعلاج هذه الفيلة . فأحضر الأدوية والحقن واتجه إلى سيارته . وقبل أن يضع ساقه فيها ظهر له واحد من السحرة البدائيين . وتحدث إليه بلغة إنجليزية سليمة جدًا . . وقال له : لا داعى لأن تذهب . سوف أعالجها أنا . .

وجلس الساحر . . وتمدد . . وأخذته دوخة خفيفة . . فى استطاعتك أن تسميها : لحظة نوم . . غفوة . . غشية . . سنة من النوم ـ بكسر السين . . وبعد لحظات أفاق الساحر وقال للطبيب : انتهى كل شىء . . لقد وجدت فيلاً انكسرت ساقه وعالجتها . . ووجدت فيلاً يشكو من التهاب حاد فى حلقة . . وعالجته . . ووجدت أنثى فى حالة ولادة عسرة . . وساعدتها . . انتهى كل شىء .

ولم يذهب الطبيب . . وفى اليوم التالى اتصلوا به وشكروه على أنه أرسل طبيبًا آخر متنكرًا فى أزياء بدائية . . وأنه استطاع أن يعالج الفيلة وحيوانات أخرى . . ووصفوا ملامح الرجل . . وكان هو هو نفس الساحر !

وهناك حادثة مشهورة فى التاريخ . فقد استطاع الراهب الفرنسى الفونس وليجوران وهو فى الدير سنة ١٧٧٤ أن يصف بكل دقة الساعات الأخيرة للبابا كلمنت الرابع عشر . . وماذا كان يرتدى . . ومن الذى ألتف حول فراشه . . وما الذى اكله وما الذى شربه . . وماذا قال . . ثم ما هى وجبته الأخيرة . . وكانت المسافة بين الراهب وبين البابا طويلة جدًا . . يقطعها الحصان فى خمسة أيام . . ولما توفى البابا . . جاء الرهبان يصفون ساعاته الأخيرة ، وكانت مطابقة تمامًا لما قاله الراهب الفونس !

وهناك حادثة القديس اكزافيه فقد كان فى رحلة بين الصين واليابان . . وهاج

البحر . وقرر بعض المسافرين أن ينزلوا فى زورق خوفًا على أنفسهم . . واختفوا عن عيون بقية الركاب ولكن القديس اكزافيه أكد لهم إنهم سوف يرونهم بعد ثلاثة أيام . وبعد ثلاثة أيام ظهر الزورق بمن فيه . وقالوا : لقد كان القديس معنا طول الوقت . . أى أنه كان فى مكانين فى وقت واحد ولمدة ثلاثة أيام !

وهناك الحادثة الغريبة التى يرويها الشاعر الألمانى جيته . . يقول إنه كان يمشى مع صديق له . . وفجأة لاحظ أمامه شخصًا آخر . . ويبدو أنه صديق . . وهذا الصديق قد ارتدى ملابس الشاعر نفسه . . وارتدى الجوانتى الأحمر . . ويرتدى حذاء الشاعر . . ولكن صديقه الذى كان يمشى معه لم ير هذا الشخص الذى يسبقهما . . ولما عاد الشاعر إلى بيته فوجئ بأن صديقًا فى بيته . . وقد ارتدى بعض ملابس الشاعر بما فيها الجوانتى الأحمر . .

والأديب الأمريكى مارك توين يقول إنه شهد هذه الواقعة الغريبة . . واحد من أقاربه كان قبطانا . ولم يكد ينزل إلى الشاطئ حتى قالت له زوجته : لقد أرسلت إليك فتاة هل رأيتها ؟ وقال الزوج : فتاة شقراء ترتدى فستانًا أزرق وقد لفت حول عنقها منديلاً أحمر ؟

قالت الزوجة : تمام . . وأين قبلتك ؟ على خدك الأيسر . . وحاولت أن تقبلها فى فمها . . ولكنها رفضت .

وقال الزوج : تمام . . ولكن كيف حدث ذلك !

أما الذى حدث فهو أن الزوجة تخفت فى الليل وزارت زوجها وهو نائم ثم قبلته . . وحاول أن يقبلها فى فمها ولكنها رفضت وكانت سفينة الزوج فى عرض المحيط وتبعد عن الزوجة أكثر من ثلاثة آلاف ميل !

يروى الكاتب الأسبانى دى روخاس إنه رأى فى مدينة ايسالا فى السويد رجلاً يستطيع أن يأتيك بأخبار أناس يبعدون عنه ألوف الأميال . . وقد سأله الكاتب الأسبانى : أريد أن أعرف منك الآن ما الذى تفعله زوجتى ؟

وغاب الرجل السويدى عن وعيه لحظات ثم أفاق ليقول : لا شىء إنها تصنع

بعض الحلوى . . ولكى أثبت لك صحة ما أقول فقد اخفيت خاتمها الذهبى فى دولاب قديم فى غرفتك . .

واتصل الأديب الأسبانى بزوجته . . فأكدت له كلام الرجل السويدى . . وأنها فعلاً لا تعرف أين أختفى خاتمها . . ثم وجدته فى الدولاب !

ومن الحكايات العجيبة التى يرويها الأديب الألمانى العظيم توماس مان أن مهندسًا من أقاربه عاد إلى بيته فى الليل . . ولم يكد يفتح النور حتى وجد شخصًا جالسًا إلى مكتبه . . وهذا الشخص غارق فى عمله . . ولما اقترب المهندس من هذا الشخص الجالس وجد انه هو . . هو نفس الشخص . . ولم يكد يقترب منه . . حتى نهض من المكتب . . وخرج . . وتلاشى . . وعندما جلس المهندس مذهولاً إلى مكتبه . . قرأ فى ورقة على المكتب حلاً لإحدى المشكلات الرياضية التى شغلته فى الأيام الأخيرة !

أما الأب مريميه البلجيكى فهو صاحب قدرة فائقة على الاهتداء إلى الأشخاص والأشياء . . وكان الأب مريميه يستخدم « البندول » والبندول عبارة عن خيط يتدلى منه جسم معدنى . . وفى أحد الأيام جاءت فتاة إلى الأب مريميه تقول له ان أخاها قد أختفى منذ أسبوع . فطلب منها أن تأتى له بأى شىء يخص أخاها . . وأتت الفتاة بصورة لأخيها . . وقال الأب مريميه : دعينى أحاول !

واتى بخريطة لمدينة بروكسل ونشر الخريطة أمامه . . ووضع يده على صورة الأخ الضائع . . وأمسك باليد الأخرى بندولاً . . وراح يحرك البندول على الخريطة . . ثم وضع ورقة بيضاء وكتب عليها الأرقام من واحد إلى عشرة . . وعندما يتوقف البندول على مكان فى الخريطة ، فأنه بسرعة ينقل البندول إلى صفحة الأرقام . . ثم يقول لها : أخوك فى هذا المكان . . يحمله شخص طوله ١٧٨ سنتيمترًا . . أخوك سرقوه . . فليس معه ذهب ولا فضة . . وقتلوه . . ووضعوا حجرًا فى عنقه فى النهر عند عمق أربعة أمتار . . هيا معًا !

وذهب الأب مريميه . . وعثر على القتيل !

كيف استطاع أن يعرف ذلك عن طريق صورة القتيل والخريطة !

نعود مرة أخرى إلى هذا الشكل الضوئى . . النورانى الذى يحيط بكل جسم إنسانى . . ونعود إلى هذه المقدرة الخارقة عند بعض الناس فى أن يكونوا فى مكانين فى وقت واحد . . ونعود إلى أن كل إنسان له ذبذبة أو طاقة أو لون . . وكل ما يتعلق بأى إنسان يختلف عن أى إنسان آخر . . إنهم يعرفون الأجزاء المريضة . . فى الجسم الإنسانى عن طريق البندول . . عندما يهتز بسرعة أكثر . . أو سرعة أقل . . أما العلاج فعن طريق اعطاء ذبذبات أخرى أكثر أو أقل . . أى عن طريق «تعديل» عام للذبذبة . . أو تيسير للطاقة لعلها تتجه وجهة أخرى كما تفعل الأبر الصينية . .

أليس عجيبًا هذا الإنسان ؟!

إنه واحد من ملايين الملايين من مخلوقات الله . . وما أوتينا من العلم إلا قليلاً جدًا !

نعم ... كنت هنا من قبل

ألم يحدث وأنت تزور مكانًا لأول مرة أن قلت لنفسك : يخيل إلىّ أننى رأيت هذا المكان من قبل ؟

ألم يحدث ـ مثلاً ـ أن قلت لنفسك : أن فى نهاية الشارع رجلاً يبيع السجائر . . وأن هذا الرجل بكرش . . وإنه دائم الضحك . . ثم ذهبت إلى بائع السجائر فوجدته تمامًا كما تخيلت !

كثير من الناس يشعرون بذلك . ويندهشون . ولكنهم لا يذهبون إلى أبعد من الدهشة . وبعضهم يقول لنفسه : أن الأماكن متشابهة . . أو لعلى رأيت صور هذا المكان . . أو أنه شعور غامض لا أعرف له سببا !

وبعض الناس يقابل شخصًا ويسأله : أليس اسمك عبد الحميد ؟ .

ويجىء الجواب : بلى . هذا اسمى !

أما الذى بعد ذلك فهو شىء مضحك . . لأن التعارف لن يتم . . فالذى سأل لا يعرف لماذا سأله ولا لماذا اختار هذا الاسم بالذات . . والشخص المسئول لا يعرف ما معنى هذا السؤال .

ولكنه احساس لدى السائل لا يعرف مصدره . وهذا الاحساس يؤكد له أن هذا الشخص اسمه كذا . . وينتهى الحوار القصير عند هذا الحد . وكل منهما مندهش لما سمع !

وبعض الناس يستطيع أن يقول أكثر من ذلك وبتفصيلات مذهلة . .

ومن يقرأ كتاب فرانك إدوارد الذى عنوانه « أغرب من العلم » يجد قصة الفتاة الهندية المشهورة شانتى ديفى التى ولدت سنة ١٩٢٦ والتى دخلت كل كتب الدراسات الروحية ، والتى رآها وفحصها عدد كبير من العلماء . وكانت النتيجة : أن كل كلمة قالتها هذه الفتاة صحيحة مائة فى المائة . فقد أعلنت هذه الفتاة وهى فى التاسعة من عمرها أنها كانت زوجة قبل ذلك . وأن لها ثلاثة أولاد . وأنها ماتت أثناء ولادتها للطفل الثالث . وقالت إن زوجها فلان ويسكن فى البيت رقم كذا فى شارع ومدينة كذا . .

وظن أبواها أنها ككل الأطفال تخترع قصصا خيالية . ولكن نبرة الفتاة جادة . والذى تقوله اليوم تؤكده فى اليوم التالى . .

وفى إحدى المرات فوجئت بشخص يزور أسرتها وهجمت عليه وعانقته .

وهى تقول : أنت صديق زوجى فلان !

واندهش الرجل لأن له صديقًا بهذا الاسم الذى ذكرته . وأنه يقيم فى نفس الأماكن التى حددتها الفتاة .

وأن زوجته توفيت أثناء ولادة ابنها الثالث !

وذهبت الأسرة إلى المدينة التى حددتها الطفلة . وتركوها وحدها . وذهبت الفتاة إلى الشارع والبيت ودقت الباب . . وفتح لها شاب فقالت : هذا هو ابنى الأكبر .

وجاء طفل فقالت : وهذا هو ابنى الثانى . .

وتقدم رجل وقالت : وهذا زوجى !

ثم عصبوا عينيها بمنديل وراحت تصف كل محتويات البيت الذى لم تره قط . وراحت تذكر أسماء كل الصديقات والأصدقاء . . وأخذت تروى للرجل حوادث هامة جادة دارت بين الرجل وزوجته . .

إن هذه الطفلة تؤكد أنها عاشت قبل ذلك ثم حلت روحها فى جسم هذه الطفلة الصغيرة !

وسافر إلى الهند الطبيب السويدى المشهور ستوره لونرشراند . وفحص الفتاة .

وتأكد من كل ما قالته الفتاة . واختبرها . وفحصها . ورافقها فى أماكن مختلفة كانت الزوجة المتوفاة قد ترددت عليها من قبل .

وانتهى الطبيب السويدى وعشرات من العلماء إلى أن ما تقوله الفتاة الهندية صحيح : لقد عاشت قبل ذلك . ثم ماتت . وعادت روحها إلى الحياة فى جسم آخر!

وفى نفس الوقت نشرت الصحف الأمريكية أن ابنة أحد المهندسين عندما بلغت السادسة من عمرها تكلمت لغة أخرى غريبة ـ وعرف الأب بعد ذلك أنها اللغة العربية. وسافر الأب وابنته وزوجته إلى السعودية . وفى السعودية التقى الأب بعدد من رجال البادية . وفوجئ الأب أن ابنته لا تتكلم اللغة العربية فقط ، وإنما هى تتكلم لهجة عربية بدوية جاهلية . . وأن الذين يتكلمون هذه اللهجة الآن نادرون . وسجلت الأم على شريط هذه المناقشات التى دارت بين الفتاة وبين رجال البادية . ومن المؤكد أن هذه الفتاة لم تبرح أمريكا ولم تقابل فى حياتها شخصًا واحدًا يعرف العربية !

وفى يناير سنة ١٩٥٢ نشرت مجلة « القدر » قصة أحد الضباط الإنجليز فى الهند. يقول الضابط إنه رأى فى نومه أنه بين عدد من الجنود الإغريق . وأنه فى الهند . وأنه يتحدث اللغة اليونانية مثلهم . . وأنه عثر على حجر . وأن الحجر منقوش عليه عبارات إغريقية . . وأن هذا الحجر يرجع إلى سنة ٣٤٠ ق . م عندما زار الإسكندر الأكبر هذه المنطقة وأنه قرأ النقوش الإغريقية وعرف معناها . .

ثم صحا من النوم . وهو فى ذهول . واتجه من تلقاء نفسه إلى مكان خارج المدينة. ورأى الأشجار التى كان قد رآها فى الحلم . ودار حول إحدى الأشجار ، ووجد حجرًا . وراح يقلب فى الحجر . ووجد على الحجر نقوشًا قديمة لا يعرف معناها ـ لأنه لم يتعلم اللغة اليونانية . وعندما قرأها بعض الأثريين وجد أن الكلام المنقوش على الحجر يطّابق المعنى الذى سمعه الضابط فى الحلم !

وفى كتاب « معجزات الإرادة » للمؤلفين ديشاتيل وفاركولييه نجد قصة الجراح

الايطالى الذى فقد ابنته الوحيدة فى ظروف غامضة سنة ١٩١٠ . ولكن زوجة هذا الجراح رأت فى نومها ابنتها المفقودة . وقالت لها الابنة : سوف أعود إليك صغيرة جدًا .

وبعد شهرين حملت الأم . ووضعت طفلتين . وكانت احداهما صورة حية للابنة الضائعة !

وقد سمعت من الدلاى لاما وهو آله التبت قصة نشرتها فى « أخبار اليوم » من ١٢ عامًا . . ثم عاد الدلاى لاما ونشرها فى كتابه الذى عنوانه « بلادى وشعبى » . . يقول إن أخا ولد له . ولكن هذا الأخ مات وهو فى الثانية من عمره . . وحزنت أمه وأبوه على هذا الطفل . ولكن أحد رجال الدين قال للأسرة لا داعى لدفن الطفل . بل يجب أن يبقى على وجه الأرض لأن طفلاً آخر سوف يولد . وسوف تكون له نفس العلامات الموجودة فى ساقه اليسرى . ونفس العلامة الموجودة على قفاه . أما العلامتان فهما بقعتان حمراوان خضراوان . وبعد شهور حملت الأم . ووضعت طفلها الثالث . أنه نسخة كاملة للطفل الذى مات وله نفس العلامتين البارزتين . وكان من الضرورى دفن الطفل الميت بعد ذلك !

وهناك بعض العلماء يفسر ظهور العبقريات المبكرة للأطفال ، بأن هؤلاء الأطفال صغار الأجسام فقط . ولكن الأرواح التى حلت بهذه الأجسام كبيرة فى السن ، ذات نضج ـ بعض العلماء يرى أن النبوغ المبكر للموسيقار النمساوى موتسارت هو شيء من هذا . . ويرى العالم الأمريكى ادجار وطسون أن الطفل البلجيكى أندرية لنور لابد أن يكون نموذجًا حيًا لهذه النظرية . فهذا الطفل كان فى الثانية من عمره وكان قادرًا على أن يعرف حاصل ضرب خمسة أرقام فى خمسة أرقام ، مع أنه لا يعرف الأرقام . ولا يعرف كيف يعد من واحد إلى عشرة ـ أليس فى الثانية من عمره ؟!

إن انتقال الروح من جسم إلى جسم مثل انتقال النار من شمعة مشتعلة إلى شمعة أخرى إلى ثالثة وهكذا ـ فالشمعة نفسها لا تنتقل إلى شمعة . . وإنما نارها أو

نورها . . وكما تتضارب كرات البلياردو . . أن واحدة تدفع أخرى فتندفع . . أن الكرة الأولى لا تنتقل إلى داخل الكرة الأخرى . . وإنما الحركة فقط . .

وفى سنة ١٩٥٦ أصدر كاتب برازيلى كتابًا بعنوان « كانوا هناك وأصبحوا هنا » . المؤلف اسمه مورى برنشتين . وأهم ما فى الكتاب أن سيدة برازيلية قالت إنها كانت تعيش قبل ذلك فى ايرلندا . ولم يترك المؤلف شيئًا من حياة هذه السيدة لم يعرضه على العلماء . ثم سافر مع السيدة إلى ايرلندا . .

وتركها تتعرف على الأماكن التى عاشت فيها . .

ومن الغريب أن هذه السيدة كانت تدخل المتاحف وتقول : هذه كانت موجودة فى المكان الفلانى . . وهذه كانت جزءًا من بيت فلان الفلانى . .

وكان علماء الآثار يؤكدون كل ما تقول . مع إنها لم تبرح البرازيل قط !

وأغرب وأعجب وأصدق الكتب التى صدرت عن حوادث التجسد ما كتبه بان استيفنسون بعنوان « عشرون حالة تجسد » . وفى هذا الكتاب قصة عن سيدة قالت لاحدى صديقاتها : اسمعى سوف أموت قريبًا . ولكنى سأعود فى جسم احدى بناتك . . فلا تنسى ! .

وفى ظروف غريبة ماتت السيدة . وانجبت الصديقة طفلة . وجاءت الطفلة صورة مطابقة تمامًا للسيدة التى ماتت !

وأنقل عن كتاب « الشىء الخفى » للأديب الانجليزى الممتاز كولن ويلسون فهذا الكتاب هو أحدث وأمتع ما كتب وقد صدر فى ٧٠٠ صفحة سنة ١٩٧٢ . يقول الأديب كولن ويلسون أنه يعرف قصة رجل قال لابنه عندما أموت فسوف أظهر فى صورة ابن لك . . وسوف أموت فى سن صغيرة !

ومات الأب . وأنجب ابنه ولدًا وأعطاه نفس اسم الجد . ومن الغريب إنهم كانوا يعرضون على الطفل بعض أشياء الجد . فكان يقول : هذه الساعة أهديتها لزوجتى فى يوم كذا وتاريخ كذا وبمناسبة كذا !

وكان الطفل يقصد أنه ـ عندما كان حيًا قبل ذلك ـ قد أهدى هذه الساعة لزوجته ! مع أن هذا الطفل لم يكن قد رأى هذه الساعة أو كل متعلقات الجد الذى مات !

يقول الأديب كولن ويلسون : « من المؤكد أن هذه الأرواح تحل فى أجساد أناس كثيرين ، أو تعود إلى الحياة فى أجسام أخرى . . ولكن الشىء النادر هو أن هذه الأرواح لا تحتفظ بقوة ذاكرتها . . كما أن بعض الأرواح لها حرية الاختيار فى أن تحل فى جسم معين . . ومن الملاحظ أيضًا أن كل الأرواح التى تحتفظ بذاكرتها تكون قد ماتت فى ظروف عنيفة . . كما أن من المؤكد علميًا أنه فى الامكان أن تسكن روحان أو أكثر فى جسم واحد . . وأن عبارات كثيرة للعالم النفسى الشهير ما كدوجال تدل على أن بعض الأمراض سببها تزاحم الأرواح أو تصارعها فى الجسم الواحد ، ولأسباب لا نعرفها الآن بوضوح » .

والذين يشتغلون بالتنويم المغناطيسى يواجهون الكثير من هذه الأحداث والنوادر. فمن الممكن أن يطلب المنوم المغناطيسى إلى الشخص الذى نومه أن يعود إلى طفولته وأن يروى ما حدث فى ذلك الوقت . . ويفاجأ المنوم المغناطيسى بأن طفولة هذا الشخص النائم كانت فى القرن العاشر أو الحادى عشر أو كانت قبل ميلاد المسيح . . ثم أنه يروى أحداثًا عجيبة وبلغات لا يعرفها الشخص إذا صحا من هذا النوم . .

وهناك سجلات لحوادث لا أول لها ولا آخر فى أوربا وأمريكا . . وهى جميعًا تستحق الدراسة والاهتمام .

ويقول كولن ويلسون فى كتابه هذا (صفحة ٥٢٣) :« من المؤكد أن بداخل الإنسان قوى خفية ، لا يدركها الآن بوضوح . . وهذه القوى تظهر أمامه على شكل أرواح أو أشباح تؤدى إلى ظواهر متنوعة ابتداء من رؤية الأفكار وتصويرها بالكاميرا . هذه القوى على صلة بقوى أخرى لا نعرفها . . وهى التى تجعلنا قادرين على التنبؤ

وعلى الاحساس بالأشياء عن بعد ، نراها ونسمعها . . كما أن الأشباح أو الأرواح لها حياة مستقلة . وهذه الأرواح على درجة غريبة من البلادة أو الكسل . ولذلك ظلت تتردد على نفس الأماكن أو على صلة بنفس الأشخاص الذين كانت تعرفهم وهى حية فى جسم إنسان . وهذه الأرواح تكون فى حالة تشبه الهذيان أو كأنها محمومة أو فى حالة انفصام بين الإرادة والعجز عن التمييز بين الواقع والخيال . ومن المؤكد أن التنبيه إلى ما سوف يقع لنا من أخطار يرجع إلى هذه القوى الخارجية أكثر مما يرجع إلينا . . وأنا أعرف قصة سيدة كانت تمسك مظروفًا به أوراق مالية . . واتجهت هذه السيدة إلى المدفأة لترمى المظروف . وفجأة أحست كأن يدا تمسكها . وهنا تنبهت إلى أنها كانت ستلقى بالأوراق المالية فى النار وليس المظروف . . إنها ـ إذن ـ تلك القوى المحيطة بنا والتى على صلة بقوانا وأجسامنا ، هى التى تنبهنا . وهى تربطنا بعوالم أخرى . . لا ندريها بوضوح » .

وليست أرواح الإنسان فقط ، وإنما أرواح الحيوانات أيضًا . .

فالطبيب الأمريكى إدجار كايس أستاذ الفيزياء النووية يقول إنه كان فى نزهة نهاية الأسبوع عندما توقفت سيارته فجأة . ومن الغريب أنه وجد أنها خلت من الوقود تمامًا . ولم يحدث هذا قبل ذلك . فهو رجل دقيق . وعندما وقفت السيارة قفز الكلب من المعقد الخلفى وظل يجرى . ووراءه أحد الأبناء . ودخل الكلب بيتا . ثم اتجه إلى احدى الغرف . . ثم اتجه إلى السلم وصعد السلم إلى السطوح . . وراح يجرى ويدور . . سعيدًا بما لا يراه أحد . .

وجاء الطبيب وزوجته وأولاده . . ودقوا الباب . . ووجدوا عجوزًا . ووجدوا الكلب قد تعلق برقبتها . مع أن هذا الكلب لم يكن قد رآها قط . . وسمعوا من السيدة العجوز قصة غريبة . تقول إنها منذ عشرين عامًا . أصيب زوجها فى حادث سيارة . وانطلقت تبحث عنه حتى وجدته فى أحد المستشفيات . وأقامت العجوز إلى جوار زوجها يومين . ثم عادت إلى البيت . وكانت قد نسيت أن كلبتها قد وضعت

عددًا من الكلاب . وإنها نسيت هذه الكلاب فى غرفة فوق السطوح . أما أم هذه الكلاب فقد نسيتها فى الشارع وعندما عادت العجوز إلى البيت وجدت الكلبة تبكى أمام البيت . . وهنا تنبهت العجوز إلى ما حدث . . وصعدت الدرج ووجدت الكلاب الصغيرة قد ماتت . . أما الكلبة الأم فقد ألقت بنفسها من فوق السطوح وماتت . .

أما كلب الدكتور ادجار كايس فهو يشبه أم الكلاب تمامًا . . وقد سار فى نفس الطريق الذى سارت فيه الكلبة الأم . . ثم أن هذا الكلب هو أيضًا قد ألقى بنفسه من السطوح ومات !

مصرى هبط من كوكب الزهرة !

يوم ٣١ أكتوبر سنة ١٩٣٨ أحس أهل نيويورك أن القيامة قامت . . وأن على كل إنسان أن يهرب بجلده إلى أقرب سيارة أو طيارة أو سفينة . ولا يهم أن يترك بيته مفتوحًا . فالراديو يعلن أن أهل المريخ قد هبطوا إلى الأرض . . وأنهم على الأبواب . . على كل الأبواب . .

ولم يعرف الناس إلا متأخرًا أن الذى سمعوه هو برنامج إذاعى للممثل أورسون ولز . . وأن هذا البرنامج مأخوذ عن رواية « حرب العوالم » لأديب انجلترا هـ . ج . ولز !

ولكن خوف الناس وفزعهم يدل على أن لديهم استعدادًا هائلاً لتصديق أن أهل المريخ من الممكن أن يهاجموا أهل الأرض . وأن يحطموا الأرض بما ومن عليها ! [1]
وفى الكتب القديمة أدلة كثيرة على أن أهل السماوات قد هبطوا إلى الأرض . . ففى الكتاب المقدس يصف النبى حزقيال سفنا تتفجر بالنار من الأمام والخلف . . ويصف أناسًا هبطوا منها يشبهون رواد الفضاء . . وفى أوراق البردى القديمة وعلى أيام رمسيس الثالث نقرأ وصفًا لكرات من النار تحوم فوق سماء العاصمة !

ويوم ١٧ يونيو سنة ١٩٠٨ (الموافق ٣٠ يونيو بالتوقيت الأوروبى) حدث زلزال

---

(١) أقرأ كتابى « الذين هبطوا من السماء » .

وبركان فى سيبريا . . وظلت السماء مشتعلة . . والسحب البيضاء تغطى أوروبا . . ورأى الناس هذه النيران بعيونهم فى دائرة قطرها ٦٠٠ كيلومتر . وكانت روسيا فى ذلك الوقت مشغولة بأمور أخرى . . ولكن هذا الحدث الغريب العجيب دخل كتب التاريخ على أنه زلزال . وفى سنة ١٩٢٧ حدث شىء آخر وذلك بالقرب من نهر التونجوسكا الحجرى - هناك ثلاثة أنهار روسية لها نفس الاسم - وهذا الانفجار قد اشعل الأشجار والأحجار وأباد كل شىء . . وقال بعض العلماء إنه واحد من تلك الشهب الهائلة التى تسقط على الأرض من السماء . . ولكن العلماء لم يجدوا أى أثر لهذا الشهاب . . وإنما وجدوا تراب الأرض له نشاط اشعاعى . . ولم يجدوا أى تجويف فى الأرض كما يحدث عندما تتساقط الشهب . . واهتدى العلماء الروس إلى أن الذى حدث هو انفجار أعلى من سطح الأرض . . وأنه ليس كالانفجارات النووية . . وإنما هو أقرب إلى أن يكون انفجار احدى سفن الفضاء عندما دخلت الغلاف الجوى - والسبب لا يعرفه أحد - اختلت السفينة فاحترقت !

إننى أتحدث عن سفن الفضاء القادمة من عوالم أخرى . أما علاقة هذه السفن بالأرواح والأشباح ، وعلاقتها بالإنسان ، فسوف أتعرض لذلك بعد لحظات !

ولعل أول حادث شغل الرأى العام الأمريكى كان فى ٢٧ يونيو سنة ١٩٤٧ عندما أعلن أحد الطيارين أنه رأى تسعة أطباق طائرة . . أو تسعة أجسام مجهولة طائرة وبسرعة هائلة . . وأن هذه الأجسام تتحرك بسرعة خارقة فى كل الاتجاهات . .

وفى مايو سنة ١٩٤٨ أعلن طيار أمريكى أنه رأى عن قرب جسمًا غريبًا يطير فى محاذاة الطائرة . . وأنه عندما حاول الابتعاد عنه ، اقترب منه . . ثم سبقه وأختفى . .

ويوم ٧ يوليو سنة ١٩٤٨ اتصل أحد الأمريكان يعلن عن ظهور جسم اسطوانى فى سماء شيكاغو . . وانطلق أحد الطيارين وراء هذا الجسم . . وكان يذيع تحركاته وتحركات الجسم الغريب أولاً بأول . . وفجأة انقطع صوت هذا الطيار على ارتفاع عشرين ألف قدم . . وفى اليوم التالى وجدت الطائرة والطيار رمادا على مدى مائة

كيلو متر من مدينة شيكاغو . . ويقال أن الطيار قد اختنق بسبب نقص الأوكسجين . .

وفى سنة ١٩٥٠ أصدرت وزارة الدفاع الأمريكية قرارًا تحرم فيه على كل رجالها أن يتحدثوا عن هذا الموضوع الذى شغل الناس . . وأعلنت وزارة الدفاع أن هذه الأجسام الطائرة حقيقة مؤكدة . . ولكن لا أحد يعرف من أين جاءت أو لماذا جاءت؟

وفى يوليو سنة ١٩٥٢ فوجئت وزارة الدفاع الأمريكية بأن هذه الأجسام الطائرة قد حلقت فوق مبنى وزارة الدفاع . . وسجلت الأجهزة أن هذه الأطباق الطائرة ذات أشكال مختلفة وذات سرعات خيالية . .

وفى سنة ١٩٥٢ بلغ عدد الأجسام الطائرة التى شوهدت فى كل العالم ١١٥٠١ جسمًا . . أما عدد الأشخاص الذين رأوها فأضعاف هذا العدد . . ومعظم هذه الأجسام قد ظهرت فى سماء شمال أوروبا . .

وربما كان الحدث الذى هز أمريكا كلها ، وبعد ذلك العالم كله هو الذى وقع يوم ٢٤ فبراير سنة ١٩٥٩ .

فى ذلك اليوم كان الطيار بيتر كيليان ـ والاسم مهم لأنه حدث تاريخى ـ كان يقود طائرته ذات الأربعة محركات دوجلاس ٦ . . وفجأة وجد إلى جواره جسمًا اسطوانيًا . . وهذا الجسم تتحرك فيه أربع اسطوانات أخرى . . وعندما اقترب منه هذا الجسم ارتبكت كل الأجهزة اللاسلكية فى الطائرة . . وحاول الطيار أن يقترب من الجسم الغريب . . ثم اقترب . . وبعد ذلك اختفى الجسم الغريب . . والمهم فى هذه الحادثة أن كل ركاب الطائرة قد شاهدوه فى وقت واحد !

والسؤال الذى يجب أن نجيب عنه هو : هل هناك كائنات عاقلة فى كواكب أخرى ؟

والجواب : وما الذى يمنع أن تكون هناك كواكب أخرى صالحة للحياة . . وليس من الضرورى أن تكون الحياة مماثلة للحياة على هذه الأرض وليس من الضرورى

أن تكون الكائنات الأخرى فى مثل تكوين الإنسان . . فهناك ملايين الملايين من الكائنات الحية لا تشبه الإنسان من قريب أو بعيد . .

وسؤال آخر : وأين توجد هذه الكائنات ؟

والجواب : فى ملايين الكواكب الأخرى . . فنحن بمجموعتنا الشمسية هذه نعيش فى داخل مجرة . . وهذه المجرة التى نسبح فى داخلها بها ١٥ ألف مليون (خمسة عشر ألف مليون) مجموعة شمسية مثل مجموعتنا هذه . . ونحن نعرف حتى الآن حوالى مائتى ألف مليون مجرة أخرى !

وما دامت هناك حياة فى أى مكان ، فهذه الحياة لابد أن تتطور . . ولذلك فهناك كائنات أقل منا عقلاً ، وكائنات أكثر منا عقلاً . ولهم أساليب مواصلات أكثر تطورًا . ولابد أنهم لا يعرفون كيف يتفاهمون معنا . . أو لا يرون إننا شىء له قيمة أو وزن فى هذه الدنيا ـ طبعًا نحن نرى أنفسنا أهم ما فى الكون . . وهذه أوهامنا نحن . . خلقناها وصدقناها . . وعشنا لها وعليها !

وليس هذا خيالاً . . وإنما هو حقيقة . . فمنذ ابريل سنة ١٩٦٠ لم يعد أحد يشك مطلقًا فى أن هناك كائنات أخرى فى عوالم أخرى . . ولذلك اتجهت كل عدسات التلسكوب فى أوروبا وأمريكا إلى الكواكب الصغيرة .

وفى نفس السنة نشرت أكاديمية العلوم السوفيتية كتابًا للعالم الكبير يوسف اشكلوفسكى يناقش هذه القضية . . ويؤكد أن الكائنات العاقلة موجودة فى كواكب السماء . . وأعلن أيضًا أن الكوكب « س . ت ١٠٢ » يطلق موجات صوتية منتظمة . . وأن هذه الموجات فى غاية القوة رغم أن المسافة التى بيننا وبينه تعد بألوف الملايين من الأميال !

وقد يرى بعض العقلاء جدًا من الناس أن الكلام عن الاسطوانات الطائرة والأطباق الطائرة خرافات أو شائعات قوية . . ولابد أن يذكر على سبيل المثال أن نصف مليون من سكان لندن أعلنوا أنهم رأوا الروس فى الحرب العالمية الأولى قد دخلوا شوارع لندن . . مع أن أقرب جندى روسى يبعد عن لندن ١١٠٠ ميل .

ولكن الناس رأوا وأقسموا إنهم رأوا الجليد على أحذية الروس !

ويمكن أن ترد على ذلك بأن تقول إن خرافات كثيرة تحولت إلى حقائق علمية بعد ذلك . . بل إن كل الخرافات أصبحت حقائق . . وأن كل تاريخ العلوم به فصول كاملة تدخل فى باب الخرافات . . فالبحارة الأسبان عندما كانت تشتد بهم العواصف يرون ألسنة اللهب تلف أشرعة سفنهم . . وكانوا يصرخون قائلين : أن القديس قد جاء لنجدتنا !

وكانوا يقصدون القديس الموو « راعى البحار الأسبان » . ولكن بعد ذلك بمئات السنين عرفنا أن اللهب الذى رآه البحارة فى أشرعة السفن فى قلب العاصفة ، لم يكن إلا شحنات كهربية ولم يكن كرامة أحد من القديسين !

ولابد أن سفن الفضاء التى يراها الناس خرافة أو وهمًا أو مجرد شائعة سوف تصبح حقائق مؤكدة يومًا ما . . وهذا اليوم قريب جدًا . .

. . . ويقول العالم النفسى الكبير كارل يونج : إن هناك نوعين من الشائعات : شائعات صوتية . . حكايات يرويها الناس ، وشائعات ضوئية ، شائعة يراها الناس ويصدقونها ويضخمونها ويضيفون إليها على مر العصور . . أو يقول : إن هناك رغبة عميقة عند الناس أن يهربوا من الأرض . . وهذه الرغبة هى أن تجىء لهم سفن الفضاء القادمة من عوالم أخرى لانقاذ الناس أو لتحذيرهم من اللعب بالنار . . وفى التاريخ كله ينتظر الناس « المسيح » و « المنقذ » و « المهدى المنتظر » و « الفارس الأبيض على جواده الأبيض» . . وكلها أحلام البشرية تراها وتصدقها وهى مفتوحة العينين !

ولكن علماء الطبيعة والفلك لهم رأى آخر : انها حقائق لا شك فيها . . وأن هناك كائنات أعقل نريد أن نعرفها ولا نعرف إن كانت تريد أن تعرفنا !

فما علاقة الأطباق الطائرة بالتكوين الغريب العجيب لنفس الإنسان وجسمه وعقله ؟ .

قبل أن أجيب عن هذا السؤال أروى هذه القصة . . وانقلها عن الأديب

الانجليزى كولن ويلسون . . وقد ذكرها فى أحدث كتاب له الذى عنوانه « الخفى » أو « القوى الخفية » . . يقول ان شاعرًا صديقًا له يعرف رجلاً هولنديًا . من اليوجا . . هذا الرجل الهولندى من مواليد سنة ١٩٢٤ . واسمه ياك اشفارتس . . وهذا الرجل قد تدرب على رياضة اليوجا الجسمية والنفسية . . يمشى نصف عريان ويسهر الليل ويأكل القليل . . ويمضى الكثير من الوقت فى التأمل . . أو فى الصلاة الصامتة . . وينام على المسامير . . وسريره مكون من عشرين مسمارًا متباعدة تمامًا . وطول المسمار الواحد عشرة سنتيمترات . والرجل الهولندى يطلب من الجالسين معه أن يقف أثقلهم وزنًا فوق بطنه . . ويقف ثقيل الوزن فوق بطنه . . وتنفذ المسامير من ظهره إلى بطنه . . أو العكس . . ويجىء طبيب يشاهد الثقوب التى أحدثتها المسامير . . فيجد ما يذهله : أن المسامير نفذت من اللحم . . ولكن نقطة واحدة من الدم لم تنزل من جسمه ! ويتكرر الوقوف على بطنه عشرات المرات والنتيجة التى تذهل الأطباء : واحدة !

وفى سنة ١٩٥٨ مرت سفينة هولندية من قناة السويس . . وتوقفت السفينة فى بورسعيد . . السفينة اسمها « هولندا الجديدة » وكانت فى طريقها إلى اندونيسيا . . وعلى ظهر السفينة ألوف الجنود . . وكان من بين هؤلاء الجنود ذلك اليوجا الهولندى . . وكانت مهمته هى الترفيه عن الجنود . . وعندما توقفت السفينة فى بورسعيد صعد شاب مصرى . . وتقدم من اليوجا الهولندى . . وانحنى على يده يقبلها ويقول له : أنت أستاذى . . وعليك أخذت العهد . . السلام عليكم ورحمة الله !

وتركه الشاب المصرى . . ولكن دهشة الجنود كانت لا حدود لها . . فمن المستحيل أن يصعد أى إنسان إلى هذه السفينة . . وان يصعد درجاتها وأن يتمشى فى داخلها حتى يصل إلى حيث يجلس الجنود !

واندهش الجنود . . وأضافوا ظهور هذا الشاب إلى حساب اليوجا الهولندى . واعتبروا ظهوره واختفاءه احدى معجزات اليوجا الهولندى !

وبعد ذلك بسنوات كان اليوجا الهولندى يلقى محاضرة فى مدينة سيدنى بأستراليا . وبعد أن خرج من المحاضرة هو وزوجته . . تقدمت منه سيدة وهى تقول له : أريد أن أتحدث إليك فى أمر خاص . . تفضل !

ثم أشارت إلى سيارتها . . وركب اليوجا الهولندى . . وقالت السيدة : أنا الآن أعرفك جيدًا . . أنا الآن لم أخطئ . فأنت عندما جلست إلى جوارى أحسست بذبذبة جسمك . . أنت سيدى وعليك أخذت العهد . . ألا تعرفنى !

وقال اليوجا الهولندى : لا أعرفك !

وردت السيدة قائلة : أنا ذلك المصرى الذى صعد إليك فى بورسعيد . . ففى استطاعتى أن أظهر فى أى مكان وبأى شكل . . فقد كنت فى الهند وقبل ذلك كنت فى أمريكا . .

ولما سأله اليوجا : ومن أى البلاد أنت ؟

أجابت السيدة أو الشاب المصرى : اننى من أبناء قبيلة سقطت بها احدى سفن الفضاء على هذه الأرض من ألوف السنين . . أن لى رقمًا شفريًا أو سريًا هو. أب ـ ٥أ . . والتعليمات التى عندى تقول : ابدأ الآن فى الدعوة إلى رسالتك . . فنحن الآن كثيرون على الأرض . . هذه هى رسالتى التى كلفونى بها ! وسوف أتصل بك فيما بعد!

واختفت السيدة !

ومن الغريب أن سيدة كانت تعمل وسيطًا روحيًا . . هذه السيدة قد تحدثت إلى اليوجا الهولندى وأخبرته بأن الشاب الذى جاء إليه إنما هو من أبناء كوكب الزهرة . . وأن سكان كوكب الزهرة لهم أجسام غازية . . وهم أكثر تطورًا من سكان الأرض !

إذن هو من سكان الزهرة وقد حل فى جسم واحد من سكان الأرض . . أن لديه هذه القدرة الخارقة على أن يكون بجسمه أو بأى جسم آخر فى أى مكان وبأى شكل . . وأن مثله بين سكان الأرض كثيرون . . وأن « أرواح » سكان الكواكب الأخرى يحلون فى أجسام سكان الأرض !

وفى احدى جلسات تحضير الأرواح أعلنت الوسيطة لهذا اليوجا الهولندى أن الشاب المصرى الذى يظهر لك قد سقطت قبيلته إلى الأرض فى احدى سفن الفضاء فى سنة ١٨,٦١٧,٨٤١ قبل الميلاد . . ثم إنها ذكرت له الرقم الشفرى لهذا الشاب المصرى ! !

إن سكان الكواكب الأخرى قد سقطوا من ملايين السنين على هذه الأرض ويعيشون فى أجسام أرضية بعقول سماوية وبين الحين والحين يظهر واحد أو ألوف يقولون كلامًا غريبًا لا نعرفه الآن . . ولكن لابد أننا سوف نعرفه فيما بعد . .

ولنا أن نقارن بين ما فعله أبناء الحضارة الأوروبية أو ما فعله البعض فى أواسط أفريقيا وآسيا . . لابد أن أبناء الحضارة البيضاء قد أفسدوا الحضارات السوداء . . ولابد أن سكان الكواكب الأخرى عندما هبطوا إلى الأرض أفسدوها . . أو أحرقوها . . أو حذروها . أو هم يعملون الآن على تغييرها من جديد . . أو انقاذها منا ـ والله أعلم !

حكمة الثعبان وحيوانات أخرى !

من يعرف الحيوان يعرف الإنسان . ومن يفهم الإنسان يفهم الله . . ومن السهل أن نعرف الحيوان ومن الصعب أن نفهم الإنسان ، ومن الاصعب أن ندرك الله . . اليست كل العلوم إلا محاولات من أجل أن نعرف شيئًا عن أشياء كثيرة فى الأرض أو تحت الأرض فى نفوسنا أو خارج نفوسنا . .

والحيوان هو « الطبيعة الصادقة » . . أو هو « الفطرة » . . دون أن يتدخل فيها الإنسان ليغيرها أو يجعلها شيئًا آخر . . وهذا هو الفارق بين حيوان الغابة أو حيوان السيرك . . أو حيوان الأقفاص فى الحديقة . . فالحيوان فى الغابة يعيش على قدراته . . على غرائزه . يستخدمها فى الدفاع عن نفسه وفى الحصول على طعامه . . أما حيوان الحديقة أو حيوان السيرك فهو الحيوان الذى « أذله » الإنسان بلقمة العيش . . أنه حيوان « موظف » أو « مستخدم » أو « سجين » . . ونحن نعطيه الطعام بشرط أن يبقى فى مكانه . . بشرط أن يهدأ . . أو بشرط أن يقوم ببعض الحركات ليتفرج عليها الناس . . فهو حيوان قد دربناه على ألا يكون حيوانًا . . وإنما على أن يكون خادمًا للإنسان . . هذا الحيوان قد ضاعت منه فطرته . . ابتعدت عنه غريزته . . وإنما أصبح غريبًا فى عالم الإنسان الغريب . . فلا هو فى حاجة إلى أنفه لكى يشم المخاطر القادمة ولا فى حاجة إلى عينيه ليرى الفريسة . . ولكننا أعطينا لغرائزه اجازة . . أو عطلناها . . وقمنا بتشغيل عدد من الموظفين والحراس يقدمون الطعام والشراب والعلاج ويتولون الحراسة والدفاع عنه . .

ولذلك فحيوان الغابة هو الحيوان الذى يتصرف « بوحى» أو « بدافع » أو «بتوجيه» من غرائزه . . وهذا الحيوان لا يعرف من أين جاءت هذه الغرائز ولا كيف أكتسبها . . ولا كيف قام بتوريثها لصغاره مليون سنة بعد مليون سنة . . ثم أن الحيوان لا يستطيع أن ينمى هذه الغرائز ولا أن يطورها .

مثلاً : ثعابين البحر . . هذا الحيوان الصغير جدًا الذى ينتقل من أوربا وأمريكا إلى جزر فى منتصف المحيط . يهاجر إليها كل سنة . . ليتوالد . . وبعد أن يتوالد يظل الصغار فى هذه الجزيرة وبعد سنتين تهاجر الصغار إلى أماكن مختلفة من أوربا وأمريكا . . ولكن هذه الهجرة لها قاعدة . . فالثعبان الذى له ١١٥ فقرة فى ظهره يهاجر إلى أوربا . . والذى فى ظهره ١٠٧ فقرات يهاجر إلى أمريكا . . أما الثعابين الكبار ، من الأمهات والأباء ، فتبقى فى جزر الأزوريس حتى تموت !

فالحكمة كلها فى هذا الثعبان . .

والسلحفاة الخضراء . . إنها تهاجر من البرازيل إلى جزر «المعراج » على مدى ١٤٠٠ ميل فى قلب المحيط الأطلنطى . . رحلة منتظمة لا تخطىء دقيقة واحدة ذهابًا وإياباً . .

وهناك فأر ديموج الذى لا يزيد على عقلة الأصبع . . إذا أمسكته بعيدًا عن وكره بميل واحد ، فأنه يظل يتدحرج ويجرى ويتوارى حتى يصل إلى هذا الوكر .

والطيور تهاجر معتمدة على نجوم السماء . .

وأسماك السالمون تعتمد فى هجرتها مئات الأميال على طريق الرائحة . .

وقد أجرى العلماء تجربة فى المعمل على أحد القطط ، وضعوه فى غرفة خشبية لها ٢٤ فتحة ، وخرج القط من الفتحة التى هى فى اتجاه البيت الذى جاء منه .

مامعنى هذا كله ؟

معناه أن هذه القدرات التى تراها خارقة كانت من أهم خصائص الإنسان يومًا ما . . كان يعتمد على عينيه فى الرؤية . . وكان يعتمد على أنفه فى الشم ، وعلى أذنيه . . فقد كان الإنسان محاطا بحيوانات مفترسة شرسة ، فإذا لم يتنبه لها تلاشى

وانقرض ولكن بقاء الإنسان معناه أنه استطاع أن يواجه البيئة المعادية والحيوانات المتربصة .

إن الفيلسوف الألمانى كنت يقول إنه قد أتى على الإنسان حين من الزمن لم يكن يبكى فيه وهو طفل . . لأن الطفل لو بكى فإن الحيوانات المفترسة تتجه إلى مصدر الصوت وتقضى عليه . . ولكن بعد أن أصبح للإنسان بيت وباب ومفتاح لم يعد يخاف الطفل ولا أبوه ولا أمه أن يبكى . . فلا وحوش تنتظر هذا الصوت لتأكل صاحبه !

ولابد أن هذه الغريزة عند الإنسان أيام كان فى الغابة ، قد ضعفت أو تلاشت عندما انتقل من الغابة إلى الحقل ومن الحقل إلى المدينة . . أن « غريزة الغابة » هذه لم نعد نجدها إلا عند بعض الصيادين . . فكثير من الصيادين يشعرون بالوحوش تلقائيًا ويتفادونها أو يتصيدونها . . والصيادون يسمون ذلك : الحاسة السادسة . . أى الاحساس المباشر الواضح برؤية الوحوش أو سماعها عن بعد . . أو الاحساس بوقوع الحوادث فى الغابة قبل أن تقع بوقت طويل . . ان هذه الغريزة كانت مركبة فى رأس أو قلب كل إنسان عندما كان فى الغاية . . ولكنها « انخلعت » منه . . أو «انغرزت » فى لحمه حتى تلاشت . .

وقصص الصيادين لا عدد لها . . ولكن الصياد الشهير جيم كوربت يروى فى كتابه « حدث ولم يحدث فى الغابة » كيف أنه غير طريقه أكثر من مرة لمجرد أن لديه احساسًا بوجود نمر أو أسد . . وهو لا يعرف كيف حدث ذلك . . هل هى رائحة الأسد . . هل هو الصمت فى الغابة . . هل هو ابتعاد الزواحف والقردة . . إنه لايعرف . . ولا يمكن أن يقال أنه تدرب على هذه الأشياء بوعيه ، وبعد ذلك أصبح الاحتراس والحذر بلا وعى . . أى هل يمكن أن يقال أنه كصياد اكتسب عددًا من التجارب أصبحت لها قوة الغريزة . . فلم يعد يفكر كثيرًا فى الاحتراس من الوحوش . وإنما هو يتصرف تلقائيًا .

إن هذا ينطبق على كثير من العادات فى حياتنا . . كل عادة بدأت بأن تدربنا

عليها بوعى وتفكير . وبعد ذلك أصبحت لا شعورية . . فالذى يقود سيارة . . أو حتى الذى يمشى كان يحبو وهو طفل . . ثم تساند على الأشياء . . ثم راح يمشى ، وكان المشى مجهودا فرديًاعائليًا . ثم أصبح لا شعوريًا . . هذا يمكن أن يقال على بعض الناس . ولكن لا يمكن أن يقال على الحيوانات ، فهى تذهب الى أماكن لم تعرفها مطلقًا وهى مدفوعة أو مسحوبة بقوة خفية خارج الإنسان والحيوان .

بل اننا نرى بين الناس من يحس بوجود الماء تحت الأرض بمجرد أن يمشى فوق الأرض ، وقد ذكرت حوادث كثيرة فى هذا المكان فى الأسابيع الماضية . . ولابد أن غريزة البحث عن الماء والاهتداء إليه كانت احدى غرائز الإنسان من ألوف أو ملايين السنين . . ولكن هذه الغرائز أو حتى هذه المواهب . . أو هذه القدرات الخارقة موجودة عند « بعض » الناس . . ووجودها دليل على أنها كانت عند الكثيرين ولكنها بالوقت وأساليب الحياة المختلفة قد توارت فلم تعد حيوية بالنسبة لأحد .

وكان الفيلسوف العظيم سقراط يقول : اننا عندما نعلم الطفل ، نحن لا نضيف إليه شيئًا جديدًا ، وإنما نحن نذكره بما كان يعرفه من قبل !

وهذه العبارة صحيحة وتصبح عصرية لو كانت هكذا : نحن لا نعلم الطفل ، وإنما نحن نذكره بما كان يعرفه أجداده من ملايين السنين !

ولكن ما الذى جرى للإنسان فى ملايين السنين ؟

لابد أن أحد أجدادنا من ملايين السنين قد استطاع أن يصلب عوده . . أن يشد ظهره . . بعد ذلك راح يمشى عليها . . وفى استطاعته أن يمسك الأشياء بيدية . . أن يمسك حجرًا أو شجرة . . ومادام المشى أصبح أسلوبه ، فالأشجار لم تعد تهمة . . ولذلك اتجه إلى الأرض . . ومادام رأسه أصبح مرفوعًا ، فإن أنفه أصبح أوسع . . وما دامت عيناه فى وجهه ، وإلى الأمام ، وليست على الجانبين كبقية الحيوانات الأخرى ، فإن نظرته أصبحت أمامه ، وأصبحت ضيقة . . مركزة . . ومنذ ذلك الوقت وأجدادنا يمشون على ساقين وينظرون إلى الأمام بتركيز . . وربما كان التركيز هو الذى أدى إلى تطور هذا الحيوان أكثر من غيره من الحيوانات الأخرى . .

والتركيز هو الاهتمام بكل شيء . . أو بالأشياء واحدًا واحدًا . . وهذا التركيز وهذا الاعتماد على الوعى هو الذى جعل الإنسان لا يستند إلى غرائزه «الفطرية» أو إلى «طبيعته الصادقة » فى الحياة وفى الكفاح من أجل الحياة . . ولذلك فالإنسان قد ابتعد تمامًا عن غرائزه الأولى ، هذه الغرائز الموجودة عند الحيوان . . وعند بعض الناس فقط : الشاعر والساحر والراهب !

فهؤلاء الناس عندهم هذه الغرائز أو هذه القدرات الغريبة التى يعتمدون عليها . . ولعلهم يشعرون بقوى أخرى خفية خافية علينا . . منهم الذين يدركون الجمال واليقين فى كل الكون . . يرون ويسمعون الموسيقى وينبهرون للحقيقة الكبرى فى الكون ويرون أن الانغماس فى الحياة اليومية معناه : نفى لهم من رحاب الكون . . أو تبديد لقدراتهم . . أو تشتيت لملكاتهم . . ولذلك فإن الشاعر والساحر والراهب يغلقون عيونهم وآذانهم ووجدانهم عن « الحياة العادية » ويتجهون إلى الحياة غير العادية . . إلى الكون كله . . يرون ما لا نرى ، ويسمعون ما لانسمع ويعانقون الله ، أو الحقيقة المطلقة . .

والفيلسوف الوجودى مارتن هيدجر عندما قال : إننى أذهب إلى الحقيقة . . لا أسألها ولا أناقشها . . وإنما أحنى رأسى لها . . وانتظر ماذا تأمر به سيدتى !

إن هذه اللحظة الصوفية الساحرة : هى الاستسلام التام لقوى خارج الإنسان . . إنها لحظة طاعة مطلقة . . لحظة يتحول فيها الإنسان إلى حيوان غريزى . . يطيع ما لايعرف ومن لا يعرف وما يريد أن يعرف !

ولكن الإنسان فى سعيه لأن يعرف يريد أن يهرب من الضيق والتركيز وكلاهما يبعث على التعب الذى يؤدى إلى الملل . . ولكى يهرب الإنسان من الملل ، فأنه يفتش عن الجديد ، ويضع كل ما هو جديد فى قانون . . ومن مجموعة القوانين يكون لنفسه صورة جديدة من ابداعه أو من اكتشافه . . هذه هى الحضارة الإنسانية !

ورغم هذا الإبداع الهائل للإنسان فى كل شيء ، فإنه بطبيعته ضيق الأفق أو لابد أن يركز اهتمامه فى مجال محدود . . هذا التحديد هو الذى يخنقه .

تمامًا كما نتفرج على راقصة . . اننا ننظر إلى لحمها وليس إلى ثوبها . .

وكما نتفرج على عارضة أزياء : فإننا ننظر إلى ثوبها وليس إلى لحمها .

ولما أدركت بيوت الأزياء العالمية أن عارضات الأزياء يحاولن أن يكن راقصات ، فينشغل الناس بالثوب وصاحبة الثوب ،إختارت دور الأزياء فتيات نحيفات يابسات ، أى ليست لهن أجسام . . وبذلك لا ينظر الناس إلا إلى الثوب فقط !

هذا التضييق . . هذا التركيز . . هذا التحديد . . هذا الخنق والإختناق هو الذى يجعل الإنسان مستغرقًا فى شىء واحد . هو مستغرق فى شىء ونحن نجعله يتعود على ذلك . . كما ينشغل الحلاق بالشعر ، والجزمجى بالجزمة ، وكما ينشغل مفتش الجمرك بالنظر إلى الناس على أنهم أخفوا شيئًا . وأنه لابد أن يجده . . وكما يفعل رجل الشرطة فهو ينظر إلى الناس على إنهم يتسترون على شىء ، وأنه لابد أن يعرفه . . والذى ينظر إلى أحد رجال الشرطة وهو يعانق أحد المتهمين فمن الواجب إلا يرى فى ذلك حبًا وهيامًا . . وإنما هو فقط يريد أن يعرف ان كان المتهم يحمل سلاحًا فى جيوبه . .

كل واحد ينظر إلى شىء معين . . وتدور دنياه كلها حول ذلك . . وينشغل عن أى شىء آخر فى داخله أو فى خارجه . .

إلا بعض الناس الذين لديهم هذه القدرات الخارقة ، التى كانت موزعة بالعدل بين الناس . . واختفت فى النور . . أى كلما زاد النور ، وارتفعت المصابيح وتطورت صناعتها وتعددت المهن والمجالات ، ضاعت هذه المواهب . . وماتت كما تموت الأسماك عندما تخرج فى الهواء ، أو كما يموت الإنسان إذا وضع تحت الماء . . أو رائد الفضاء إذا خرج من السفينة بلا خوذة !

وما تزال هذه القدرات موجودة بشكل ما . . وفى استطاعتك أن تتذكر ولو مرة فى حياتك إنك تحدثت عن فلان فوجدته أمامك . . أو رفعت سماعة التليفون تطلب فلانًا فوجدته على الخط . . أو نهضت من النوم فزعًا لأنك رأيت فلانًا قد داسته

سيارة فوقع له حادث فى نفس الوقت الذى صحوت فيه . . أو سمعت صوت أحد يناديك وعرفت بعد ذلك أن صاحب الصوت كان فى محنة ، فى نفس الوقت الذى سمعت فيه هذا الصوت . .

وكثير من الأمهات يعرفن جيدًا إذا فكرت فى طفلتها التى تنام فى غرفة أخرى فأن هذه الطفلة تصحو . . أو إذا ذهبت إلى سريرها ووجدتها نائمة ثم نظرت إليها فإن الطفلة تصحو .

أذكر أنا شخصيًا ، أننى عندما ركبت القطار من الإسكندرية إلى القاهرة أغفيت ربما دقيقة أو دقيقتين . . وعندما فتحت عينى . . استغرق ذلك بضع ثوان ، رأيت فيما يشبه الضباب أن جرسون القطار قد وقف وفى يده لوح زجاجى أخضر . . وفجأة وجدت اللوح قطعتين . . واندهشت من سرعة ما حدث : أن أنام وأن أحلم .

وقلت لنفسى : ربما كان سبب ذلك إننى مشغول بدراسة النفس الإنسانية وأعماقها . . ولكن حدث بعد ساعة ، وهذا ما أدهشنى ، أنه فى نفس المكان الذى رأيت فيه الجرسون اصطدم به واحد من الركاب فسقطت الصينية من يده وتهشمت كل الأكواب !

ولابد أن أشياء من ذلك قد حدثت للكثيرين . . أو لكل الناس . . ولكننا ننسى . . أو لكننا مشغولون بما هو « عادى» فى حياتنا . . بما هو « ضيق » بما هو «خانق » لفكرنا ووجداننا . .

ولكن الإنسان فى العصر الحديث بدأ يضيق بهذا الضيق بدأ يحطم قيود « العادة » أو قيود « الحياة العادية » . . يريد أن يعرف . . يريد أن يفهم أعماقه هو . . يريد أن يسترد القدرات الخارقة التى كانت عنده . . والتى نراها فى صورها الواضحة الصادقة عند حيوانات الغابة . . وعند عدد كبير من الشعراء والمتصوفين والرهبان والسحرة .

إننى أتذكر مقدمة كتاب بعنوان : « صورة جديدة للكون » . . مؤلف هذا الكتاب الصحفى الروسى أوسبنسكى . . يقول فى المقدمة : « العالم كله مشغول الآن بمؤتمر لا هاى . . نحن الآن فى سنة ١٩٠٦ .

« كل الصحف التى تلقيتها اليوم . . كل الرسائل . . ولابد من أن أكتب شيئا . . أن أقول رأيا . . هذا طبيعى . . ولكن ما الذى يمكن أن يقال ؟ هل أضيف كذبًا إلى الكذب . . أضيف سطرًا إلى ألوف السطور . . أضيف غموضًا إلى بقية الطلاسم . . لغزًا إلى بقية الألغاز . لايهم أبدًا . . سوف يقال الكثير . . ولن يتغير الا القليل . . سوف يبقى الملل بحرًا بغير شواطئ . . ليلاً بغير نجوم . . معنى بغير محاولة لفهمه . . شيئًا بلا وزن ولا طول ولا عرض ولا ضرورة . . لقد مددت يدى الى درج مكتبى وسحبت الدرج فوجدت هذه الكتب التى شغلتنى هذه السنوات لأنها شىء جديد . . ولأنها تستحق كل الاهتمام . . عظيم الاهتمام . . وهذه الكتب عناوينها : العالم الخفى . . الحياة بعد الموت . . قارة اطلانطس الغارقة فى المحيط . . السحر الأسود . . عصر الشيطان . . من الذى يعيش فوق . . هناك عقلاء فى أماكن أخرى من السماء . . والإنسانية لن تخسر شيئًا إذا لم أكتب هذا المقال . ولكننى أخسر الكثير جدًا إذا لم أنحن على هذه الكتب لأنها طريقى إلى نفسى . . إلى أعماقى . . وأعماق كل الناس . . »

إن الذى أحسه أوسبنسكى من ستين عامًا هو بالضبط ما يجرف الفكر والوجدان فى العالم اليوم : يجب أن يعرف الإنسان ما الذى فى داخل الإنسان . . ففى داخله الكثير فإليه وإلى أعماقه يجب ان تتجه كل قدراته !

ولأول مرة فى تاريخ الإنسان نجد العلماء ابتدعوا عقاقير كيميائية مهمتها أن الإنسان يهرب من هذا الواقع الى عالم آخر . . فأساس هذه العقاقير هو : كيف نهرب من واقعنا . . كيف نرفض الواقع المؤلم ونعيش فى خيال بعيد . . كيف نصنع لأنفسنا جنات زائفة . . وفى هذه الجنات الزائفة تنفيس عن الحقيقة الأليمة . .

ولكن العلم الحديث خطا الى أبعد من ذلك . . فالعقاقير لم تكتف بهرب الناس وإنما اختارت « تهريب » الناس . . أى تهريبهم عن الوعى . . أى تهريبهم لكى يأتوا لنا بمعلومات جديدة . . إن الكاتب الكبير إلدوس هكسلى هو أول من ارتاد هذا المجال . فقد نشر فى كتاب له بعنوان : « أبواب الإدراك » تجربته عندما تعاطى مادة

المسكالين وراح ينقل إلى جهاز تسجيل كل ما يشعر به . . بينما راحت زوجته تصف ملامح وجهه . . إنه كالذى قرر أن يغوص فى الأعماق وأن يبعث إلى الشاطئ بمعلومات عن الحياة فى الأعماق . . أو مثل رواد الفضاء الذين يذيعون كل شىء يرونه أو يشعرون به أولاً بأول . . حتى إذا أصابهم شىء ، لم تخسر الإنسانية سوى أفراد ، ولكنها اكتسبت علماً . . فهم ذهبوا إلى فوق ليصفوا لنا ما الذى هناك . .

إن هذه العقاقير هى محاولات لرفع الأنقاض عن القدرات الحقيقية للإنسان . . هى جلاء للمرآة . . هى إزالة للصدأ .

ولكن لماذا هذا الصدأ ؟

نعود إلى قصة القط والفأر . . فقد أجرى بعض العلماء التجارب عليهما ، منها تجربة تقليدية على قط فى معمل . . ربطوا سلكًا يصل بين أذنه ومخه . وكانوا إذا أطلقوا صوتًا فإن المؤشرات ترتفع بشدة . . ولكن عندما أتوا له بمجموعة من الفئران وأطلقوا صوتًا لاحظوا أن المؤشرات لاترتفع . . لماذا؟ لأن القط قد تركز كل مخه على الفئران لدرجة أنه لم يسمع الأصوات المدوية الى جوار أذنيه . .

وكذلك فقد يشغلنا شىء عن كل شىء . . تشغلنا حياتنا السطحية اليومية العادية عن أعماقنا واكتشافها . . ولكن العلم الحديث يتجه إلى معرفة السر والسحر والقوى الخفية الخافية فى كل نفس .

وبعد هذه الصفحات التى كتبتها من أجل مزيد من الوضوح أعود الى نماذج من الناس الباهرين الساحرين ولكنهم بشر دائمًا !

"وردة المصرية" تصلى فى متحف القاهرة !

لا تأخذ رأى أم فى ابنها ، أنها تراه أعظم إنسان فى العالم ، اليوم وغدًا . ولا تأخذ رأى عدو فى عدو . . أنه يراه أسوأ إنسان فى أى مكان . ولا تأخذ رأى إنسان فى نفسه ، إنه عادة يظـلـم نفسه . فهو يبالغ فى قيمة قدراته ، أو إنه لا يرى لنفسه قدرة على الاطلاق . .

وهكذا ترى أن الإنسان ـ كل إنسان ـ ظالم لغيره ولنفسه . ولكن كيف اتفق كل الناس على هذا الرجل الانجليزى الذى اسمه ادوارد كراولى (١٨٧٥ ـ ١٩٤٧) . أجمعوا على أنه إنسان سافل وله قدرات خارقة ولا ضرورة لها . . إنه مثل إنسان غنى جدًا سفيه جدًا ويبدد أمواله على شراء أغطية الزجاجات الفارغة . . أو بأن يجعلها قراطيس لقشر اللب ـ أنه كشىء من هذا .

والذى يرى كراولى فى الصباح يمشى عاريًا تمامًا . . ويتسلق الجدران . . ثم يغمض عينيه ويقف على ساق واحدة ويقفز من جدار إلى جدار . . ثم يلقى بنفسه على الأرض فيهبط برفق وكأنه سقط بمظلة خفية ، يقول إنه ساحر قد تمكن من كل حيل الساحرين . . وفى الليل ينام على الأرض عاريًا تمامًا . . ولا أحد يدرى كيف أنه يشير بأصبعه إلى أحد لا تراه ، فإذا هو يرتفع من الأرض ويستقر على السرير . . ويجىء الغطاء يلتف حوله باحكام شديد . . وينطفئ نور الغرفة . . ويجىء النوم له ، ويهرب من أعين الذين شاهدوا ذلك !

وإذا سار كراولى فى الشارع فأن عينيه لا تستريحان على امرأة واحدة . أنه يدور حول كل امرأة ، وفى كل جسم . . ويقال لأمه : أبحثى له عن عروس ؟

وتقول الأم : وهل تكفيه واحدة . .

ويصرخ كراولى : واحدة لا تكفى سوف أذهب إلى أواسط أفريقيا ليكون لى حريم من أجمل الزوجات !

ويختفى كراولى بضعة أيام ليعود إلى لندن وقد تحول إلى شيخ قبيلة أفريقى : أسود اللون مجعد الشعر . . ووراءه عشر من نساء القبائل . . ومن الغريب أنه يتكلم لغة لا يعرفها أحد . . وأن له أولادًا يبلغون العاشرة والعشرين من العمر !

وقصة أدوارد كراولى هذا قد تناولها عدد كبير من الأدباء ؛ آخرهم أديب انجلترا كولن ويلسون فى كتابه الأخير « القوى الخفية » . وكولن ويلسون هذا هو من أكثر الناس حماسًا وتصديقًا لعجائب الأديب الشاعر الغريب أدوارد كراولى . . وفى مذكرات كراولى يقول : ما الذى لا أستطيعه ـ أو ما الذى لا تستطيعه تلك القوى الخفية فى أعماقى والتى تحركنى أو التى تلهو بى . . ليتها أعطتنى طعامًا أو شرابًا ومالاً . . بدلاً من هذه القدرة النافذة على تسلق الجدران والتلال والجبال .

إن كراولى لا يعرف كم عدد الأسطح التى سار فوقها ولا عدد التلال التى مشاها . . ولا عدد الجبال التى قفز من فوقها ، أو تدحرج إليها . . إنه لا يذكر أسماءها . . ولكن يستطيع أن يصف الطرق الصاعدة والهابطة حجرًا حجرًا . . وقد اختبره عدد كبير من متسلقى الجبال فى أوروبا والتبت والهند ـ فقد سافر إلى كل أركان العالم . وفى ظروف غامضة . .

يقول فى كتابه « كتاب القانون » : هذا الكتاب استوحيته من روح حوروس العظيم . . إننى أتطلع إلى وجهه . . وأعطى له نفسى . وهو الذى يملى من داخلى . . ما كتبت حرفًا إلا باذنه . . ولا قمت بشىء إلا تطبيقًا لمشيئته . . على هداه سرت . وعلى هداه كتبت . . وارضاء له أفعل كل ما أستطيع . .

ولم يكتف كراولى بعبادة حوروس ولكنه أقنع زوجاته بذلك . فقد تزوج أربعين

مرة . . فى احدى المرات تزوج عشرين فى وقت واحد . . ويقول إنه لم يعرف كيف يتخلص من العشرين زوجة . . ولكنه ترك هذه المهمة للزوجات أنفسهن . . فليس أقسى من المرأة على المرأة . . وليس أقدر من المرأة فى القضاء على المرأة . . ففى احدى الليالى السحرية فى باريس ، أقام كراولى صلاة جنسية . . أشعل الأضواء الحمراء ، وتعرت الزوجات . . وتعرى كراولى . . وظهرت على الجدران صورة حوروس الآله الفرعونى الساحر . . وتعالت الصيحات . . وذاب الجميع فى الجميع . . وهرب كراولى إلى الهند فى تلك الليلة . . ونام عاريًا على الجبل . . وفى الصباح أحس بشىء من البرودة . . وعندما صحا من نومه وجد احدى زوجاته إلى جواره . . وكأنها قد نامت إلى جواره طول الليل وسألها ببرود : كم واحدة قتلت ؟ .

فأجابت بنفس البرود : كلهن .

وصرخ فيها يقول : وتريدين منى أن أسكت على هذه الجريمة . اذهبى فأنت طالق . . وأنت ميتة . . وهن جميعًا ينتظرن مقدمك . فاذهبى لما هو أقسى من الموت . . اذهبى إلى ضحاياك !

واختفت الزوجة . .

وكان هذا الرجل كراولى يعلم أنه ليس هو الوحيد فى العالم . فكتب فى مذكراته يقول : فى الدنيا كثيرون لهم قدرات عظيمة . . ولكن التواضع يمنعهم من الكلام ، والذهول يمنعهم من الظهور . . إنهم قد أدركوا أنهم العوبة فى أيدى قوى خفية . . وأخجلهم ذلك . . إنهم لا يعرفون ما الذى يفعلونه . . إنهم مثل فتاة جميلة جدًا تزوجت رجلاً أعمى . . وعاشت معه فى جزيرة . . إنها لا ترى سببًا لأن تغسل وجهها . . ولا أن تفتح فمها بالكلام . . ما الفائدة ؟! إن زوجها ووحيدها ورجلها لا يرى . . فلا معنى لشىء . . هؤلاء الناس وما أكثرهم ، لا ينطقون . فالناس من حولهم قد أصابهم الصمم والعمى . . وشغلتهم الدنيا عن كل شىء آخر . .

ويقول : الوحش هو أشرف الكائنات . . لأنه طبيعى . . لا يكذب . . ولا يلف ولا يدور . . إذا أراد فعل . . وإذا فعل فقد حقق ارادة الله . . أو الإرادة التى

لا يعرفها . . والذى لا يفعل ذلك إنسان ، أى وحش كذاب !

ولكن كراولى فى كل ما كتب لا يصف بالضبط ما هى هذه القدرات الخفية التى فى داخله . فقط يروى الحوادث والنوادر وعلى الناس أن يفكروا بعده فى أى شىء . . يقول أنه كان فى مدينة كلكتا بالهند . . هاجمه خمسة من اللصوص . . ولم يكن معه سلاح . . وحاولوا قتله ولكنه اختفى منهم أو اختفى عنهم . . كيف حدث ذلك ؟ يقول إنه لم يهرب . . ولكنه استطاع فقط أن يؤثر على عقولهم وأن يضع فيها بقعة سوداء . هذه البقعة جعلت كل شىء يبدو أسود . . العالم كله وهو ضمن هذا العالم . . فهم لم يروه ولذلك لم يهاجموه وقد نجا وسط هذا الظلام الذى أغرقهم فيه !

وجاء إلى مصر . . وتزوج فتاة اسمها « وردة المصرية » ولكنه عندما جاء إلى مصر كان قد أطلق على نفسه اسم الأمير شاه خان . . وعلى زوجته الأميرة شاه خان . . وكان يرفض أن يناديه أحد بأى اسم آخر . . حتى حماته عندما أرسلت لابنتها خطابا ووضعت كلمة « الأميرة » بين قوسين مزق الخطاب دون أن يفتحه .

وكان يتردد على المتحف المصرى كل يوم . . ويقف أمام تمثال صغير هناك . . ويقول إن هذا التمثال هو وحده الذى قد وضع فيه الفراعنة سر الكون . . إن هذا التمثال قد سقط من موضعه أكثر من مرة . . وكان من الواجب أن يتساءل أحد : لماذا لم يتحطم ؟ ولكن أحدًا لم يفعل ذلك . . لأن فى هذا التمثال سرًا خطيرًا . . ويقول إنه استطاع أن يقرأ اللوحة الذهبية الموجودة فى بطن التمثال . . ولكن لم يفهم منها شيئًا . . لأن قدراته العقلية ليست لها الشفافية الباهرة القادرة على فهم ألغاز الكون . .

وفى احدى المرات ذهب إلى المتحف المصرى ولاحظ أن التمثال قد تحرك من مكانه بضعة مليمترات . . فحاول أن يعيده إلى مكانه . وفعل ذلك . . ولكن لاحظ أن التمثال قد عاد من تلقاء نفسه إلى مكانه . . وهنا سقط كراولى على الأرض ساجدًا للاله حوروس ومن ورائه « وردة المصرية » .

وفى يوم قالت له وردة المصرية : أريد طفلاً .

وغاب عن وعيه بضع لحظات ليقول لها : ولكنه سيموت قبلك بأيام . .

قالت وردة : لا يهم ولكن أريد لى طفلاً ولو ساعة واحدة .

وغاب عن وعيه بضع لحظات : يقول لك الاله حوروس سيكون لك طفل يعرفك ولا تعرفينه .

قالت : لا أريد طفلاً يقتل أمومتى أعطيه الحياة ويأخذها منى . .

وغاب كراولى عن وعيه ثم عاد يقول : الآله حوروس يقول لك : سيكون لك طفل يشعر بأمومتك وتشعرين ببنوته . . ولكنه يصيبك بالجنون .

قالت : ومتى أصاب بالجنون ؟

وغاب عن وعيه لحظات ، ليقول لها : بعد ذلك بوقت قصير .

قالت : أوافق .

قال : وأمك أيضًا .

قالت : أوافق .

قال : ولا تكون بيننا حياة .

قالت : مادمت سأموت فلا يهم أى شىء بعد ذلك !

قال : سيكون لك الطفل . . إنها إرادة الآله حوروس .

حملت وردة المصرية . وكان طفلها قبيح الشكل . . نصفه حيوان ونصفه إنسان . . رأته وردة المصرية . . وأصابها الجنون وماتت .

ولما عرفت الأم ما أصاب ابنتها أصابها الجنون وماتت . .

وانتقل كراولى بعد ذلك إلى تونس . .

واختار لنفسه اسم بيير مانيه . . وكانت له زوجة تونسية نحيفة جدًا . . لا شىء فيها يدل على أنها أنثى . . إلا أنها لا تكف عن الكلام . . ويكون كلامها عن جمالها . . وإنها ترى الناس من فوق . . فهى طويلة القامة والناس قصار . . ولكن هذه التونسية واسمها عائشة كانت لها ميزة عظيمة . . فهى تشاركه كل المخدرات

التى يتعاطاها . . وبنفس القدر والقدرة . . فهو يدخن الحشيش ويمتص الأفيون ويشم الكوكايين . . وكانت عائشة هذه تتفوق عليه فى كل ذلك . . وكان يقول لها : سوف تكونين أشهر امرأة فى فرنسا . .

وبعد سنوات أصبحت عائشة هذه التى غيرت اسمها أشهر النساء فى باريس . . واختارت لها اسم « نينت » . . وانفصلت عن كراولى ولكنه وعدها بأن يزورها بعد منتصف الليل متى أراد ذلك . . واشترطت عليه أن يدق بابها فقط حتى لا تنزعج لمجيئه المفاجئ . . وكان يفعل ذلك . . فهو يدخل غرفتها دون أن تدرى ويدق الباب من الداخل . . فإذا صرخت وحاولت أن تخفى الرجل الذى يكون إلى جوارها لم تجد الرجل . . وكان كراولى لا يعلق على شىء من ذلك . . وإذا حاولت أن تسأله قائلة : وأين ذهب ؟

ويكون رده : أمام الباب .

وعندما تفتح الباب تجد الرجل نائمًا أمام الباب يحتضن كل الأحذية الموجودة فى البيت !

يقول أديب انجلترا كولن ويلسون : لقد وجدت فى تاريخ الشعوب نماذج كثيرة من طراز كراولى هذا . . ولكن الشعوب لم تتنبه إلى هذه المصابيح النافرة ، أو هذه النيران البدائية ولذلك ضاع منا الكثير الذى كان من الضرورى أن نعرفه . .

ويقول كراولى فى مذكراته : أعرف اننى لن أعيش طويلاً . . فقد أحترقت فى وقت قصير . . وكان فى استطاعتى أن أدل الناس على أشياء كثيرة فى أهرامات مصر وفى ممرات التبت وفى جزر المحيط الهادى . . ولكن القوة الخفية فى داخلى قد اتجهت إلى الجنس والمخدرات . . لقد أهدرتنى ولا أعرف كيف أواجهها ولا أرفع أصبعى معترضًا عليها . . إننى ألعوبة فى يد قوية لا ترحم . . أو لا أعرف حكمتها . . ولا أعرف حتى الفائدة وراء هذا كله !

وعندما هاجمته الصحف فى لندن . . وطالبته بأن يستعرض بعض قواه أمام

عشرات الناس . . لم يعترض . . فكل أصحاب الكرامات استعراضيون بطبعهم . . واختار نموذجًا بسيطًا . . مشى فى الشارع وراء رجل . . وراح يقلد حركاته تمامًا . . ثم وقع على الأرض . . فوقع الرجل . . وتمرغ على الأرض وفعل الرجل ذلك . . ثم انطلق يجرى وفعل الرجل ذلك ـ وفى هذه الحالات جميعًا كان كروالى هو الذى يتحرك خلفه . . والرجل لا يراه . . لم يره . . ولا يدرى به !

وعندما أختفى كراولى ، اختفى الرجل أيضًا !

وكانت له فى بيته غرفة اسمها : غرفة الكوابيس . . وفى هذه الغرفة تقام صلوات خاصة . . فيها الصراخ والموسيقى والقبلات والخمور والمخدرات . . وتنتهى هذه «الصلوات » عادة بأن يموت أحد الموجودين . . وفى معظم الأحيان تكون امرأة . . وتكون أقبح الموجودات شكلاً . . وبعد ذلك يفاجأ الحاضرون بأن كراولى هذا قد تحول إلى كتلة حجرية . . وكانوا يضعون آذانهم على قلبه فلا يجدونه يدق . . وعندما يخرجون من غرفة الكوابيس يجدون هذا الرجل واقفًا بالباب . . وقد ارتدى ملابس البدو . . ويقولون إنه يحدثهم بلغة لا يعرفونها . . ومن الغريب أنه يصر على الحديث بها . ويقال انها العربية . .

ولكن ما هذه القوة الخفية ؟

يجيب : انها السحر :

ـ ما هو السحر .

ـ إنها الإرادة القوية لك . أنت تريد شيئًا وتفرض هذا الشيء على الآخرين . . ويكون ذلك عن طريق قدرتك الخارقة على التأثير والاقناع . .

هذا هو السحر . . وكل ما فعلته فى حياتى هو اقناع الآخرين بما أريد فقط . .

ـ وهل أنت وحيد فى هذه الدنيا ؟

ـ بل نحن أغلبية ساحقة . . وعلى اتصال دائم .

ـ وماذا تصنعون ؟

ـ أكثرنا شعراء والباقون حكام للشعوب !

ويبدو أن ظهور مثل هذا الرجل فى بريطانيا له علاقة بالطابع الخاص للانجليز . فهو صاحب سحر عملى . . ولكنه غير مفيد . .

بينما نجد الايرلنديين أصحاب شفافية وقدرة على قراءة الفكر . .

ونجد الألمان أكثر الناس تقدمًا فى فن التنجيم . .

ونجد الهولنديين أقدر الناس على الرؤية عن بعد ، ومعرفة الأحداث بأشكالها قبل أن تقع .

أما الروس ففيهم قدرات روحية فذة . . فلم يقدم لنا شعب من شعوب العالم مثل هذا العدد من عباقرة الشفافية الروحية : تولستوى ودستويفسكى وسولوفيف وفيدرف وبرديائيف ومدام بلافتسكى ثم : راسبوتين وجورجيف وهما موضوع الفصل القادم ـ أرجو ذلك !

.. من أجله توقف الدماء !

وهو على فراش الموت كتب للأمبراطورة يقول : بعد سنتين تمامًا لن يكون لك وجود ولا زوجك أيضًا . . وبعد خمسة وعشرين عامًا لن يكون فى روسيا نبيل واحد . . أما أنا فسأموت يوم أول يناير سنة ١٩١٧ . .

وقد صدقت نبوءاته . . فبعد سنتين قامت الثورة الروسية وسجن الأمبراطور والأمبراطورة وعشرات غيرهما وأعدموا جميعًا !

وبعد ٢٥ سنة جاءت القوات النازية وزحفت على المدن والقرى وهرب النبلاء والأمراء القدامى من روسيا إلى أوروبا . . !

وفى يوم أول يناير كان راسبوتين قد مات غرقًا فى نهر النيفا عن ٤٥ عامًا !

ولم تكن مزاياه الوحيدة قدرته على أن يتنبأ بالأحداث قبل وقوعها . . ولكن له قدرة أخرى غريبة . . فهو قادر على شفاء المرضى . . شفاء الأمراض التى استعصت على الأطباء . . أما العلاج فهو الصلاة والدعاء . .

وكان يعرف هذه القدرة . . ولكنه لا يعرف مصدرها . أنه يمارسها فقط . . فهذا الرجل فلاح لا يقرأ ولا يكتب . . واتجه إلى الدين بالصدفة . . فقد كان يزور أحد أقاربه فى دير صغير . . وبقى بعض الوقت . . وبهرته العزلة والهدوء . . وهذا الصفاء وهذه القناعة بشىء . . وقرر أن يكون واحدًا من رجال الدين . . واختفى بعيدًا عن قريته وهو فى العشرين من عمره بعض الوقت . وفى ذلك الوقت كان قد تعلم مبادئ

الدين . . وتزوج فتاة تكبره بخمس سنوات . . وأنجبت له طفلاً مات . . وعندما مات هذا الطفل قال أبوه : الحمد لله . . من الصعب أن يكون الإنسان أبًا . . لأنه من الصعب أن يكون ابنا . . وأصعب من هذا كله أن يكون زوجًا لأم لا تكف عن البكاء على طفلها وعلى زوجها وعلى حالها . . ومن الصعب أن يرى الإنسان زوجة تضع كل حياتها فى عينيها . . وتصبها دمعة دمعة حتى الموت !

وماتت الزوجة أيضًا . .

ولكن راسبوتين كان جاهلاً . . ولكن فيه قدرة غريبة خفية على جذب الناس . . واقناعهم . . وهو لا يدرى ما هذا الذى يسحب الناس وراءه ـ على الأصح يسحب النساء وراءه ومعه وأمامه وبين أحضانه فى كل مكان . . فلا هو غنى . . ولا هو رقيق . . ولا هو محب للمرأة . . ولا هو يشعر بأدنى احترام لاحساساتها . . وكان يقول : احتقرها تحترمك . . لأنها لا تعرف معنى الاحترام . . إنها تعرف شيئًا واحدًا : اذلالها . . واذلال المرأة هو تكريم لها . . فالرجل الذى يقسو عليها ترى أنه يهتم بها . . والذى يضيق عليها ترى أنه يغار عليها . . فأحبسها تحصل منها على كل نعيم الدنيا !

وهو الذى قال : الخطيئة . . لا شىء إلا الخطيئة تجعل الإنسان يشعر بنعمة الحياة وصدق الغريزة . . ومن موقع الخطيئة يمكنك أن تكون أكثر الناس امتنانًا للسماء !

ولم تكن « فلسفة » راسبوتين عن قراءة وتأمل . . وإنما عن تجربة وادراك لمعانى الحياة والناس .

وكان من الطبيعى أن يتولد له أعداء مادام ناجحًا . . فهناك أعداء النجاح . . وهناك الخائفون من نجاحه على نجاحهم . . وتكاثر الأعداء من رجال الدين واتهموه فى شرفه . . وفى دينه . . وقالوا إنه يقيم مباذل جماعية . . أو طقوسًا دينية جنسية . . فبعد الصلوات والركوع والسجود يجىء الشراب والرقص على الشموع والذوبان فى

الخمور ويتلاشى الرجال فى احضان النساء وينسون الدين ولا يشعرون إلا بالدنيا . .

ويقول راسبوتين : إنها لحظات صوفية أن ينسى الإنسان ما حوله ومن حوله . . ومن هو ولا يعرف إن كان رجلاً أو امرأة ، إنسانًا أو حيوانًا .

وقرر راسبوتين أن يكون راهبًا نهائيًا . . فسافر إلى اليونان وراح يدور حول جبل أتوس . . ويقول : جئت إليك من روسيا أحمل قلبى على يدى . . وأريد أن أعود بلا قلب !

وكان له ما أراد . . فعاد أكثر صفاء . . وأكثر اصرارًا . . وأقوى جسمًا . . وبلا قلب !

واكتفى بمئات القلوب حواليه . . تدق معه خوفًا وفزعًا ورغبة وجوعًا وعطشًا . .

وجاءت الصدفة ـ وفى حياته كثير من الصدف العجيبة ـ لقد سمعت به احدى النبيلات ولمست قواه الروحية الساحرة . . وراحت تشيع بين نساء البلاط القيصرى أن قواه الروحية لا يقاومها أحد ، تمامًا كقواه الجسمية . . وأن الحياة معه وفى أحضانه هى : الجنة !

وكانت النساء أكثر الجميع دعاية له . . وهو يعلم هذه الحقيقة الصغيرة : إذا كان عندك فكرة تريد لها أن تنتشر فاعطها للمرأة . سوف تنشرها لأنها من السهل أن تصدق أى شىء . . وسوف تقنع الناس بها لأنها لا تهتم بالعلم بقدر اهتمامها بادعاء العلم . وسوف تتحمس لها ، لأن المرأة تتحمس للشىء الذى جربته أكثر من الشىء الذى قرأت عنه أو فكرت فيه . . وامرأة واحدة تكفى جدًا !

وأصبح راسبوتين شهيرًا بأنه « الرجل المقدس » القادر على شفاء النفوس والأجسام : بنظرته بلمسته . . بقبلته ، بصلواته ودعواته . .

وجاءت النساء بالألوف يبكين ويحملن أطفالهن من أجل الشفاء . وكان الراهب المقدس يشفى الجميع . . ويستبقى لنفسه بعض الحسناوات . . ولم يكن يقنع بأربع أو خمس . . كان فى داخله وحشًا لا يرتوى من الشفاة ، ولا يشبع من الخدود . . وكان يسعد الجميع ـ وهى قدرة أخرى هائلة !

وفى احدى الكنائس ارتكب قسيس غلطة . . فقد راح يصف للمؤمنين كيف أن الشيطان ارتدى ملابس أحد الرهبان . . واتخذ له اسمًا : راسبوتين . . وكيف أن راسبوتين يقيم الصلوات الفاجرة ، والمواخير المقدسة ، وكيف يفتك بالعذارى وهن راضيات ، وأن هذا الرجل شر يجب أن تقاومه الكنيسة وأن يعاونها المؤمنون فى ذلك : أيها المؤمنون تعالوا جميعًا على الرجل الذى استحل الحرمات ، واستباح المقدسات !

وذهبت المؤمنات ليلقين نظرة على هذا الشيطان . . ووقعن فى أحضانه من أول نظرة ، وصرن عبيدًا له من ثانى نظرة . . ومن ثالث نظرة لم يعد أحد يذهب إلى الكنيسة !

وتشاء الصدفة أن تلد الأمبراطورة أربع بنات ، وبعد ذلك ولدت طفلاً . . هذا الطفل يحمل عرش أسرة آل رومانوف . . وبذلك فحياته هى الدنيا . . ولكن هذا الطفل ورث عن جدته الملكة فيكتوريا مرضًا خطيرًا : دمه لا يتجلط إذا جرح ، أى أنه إذا نزف دمه يظل يسيل حتى يصاب بالحمى واغماء يؤدى إلى الموت . .

ومن الطبيعى أن يجرح الطفل نفسه وهو يلعب . . وجاء الطبيب . . ونظر إلى الطفل وهز رأسه بما معناه : هذه المرة صاحب السمو سيموت . . مع الأسف !

وتقدمت النبيلة التى رأت راسبوتين وشهدت له بالقداسة والكرامات وقالت : عندى طبيب . . صانع معجزات !

واستدعته الامبراطورة . .

وكان راسبوتين غارقًا فى الخمر والرقص ورفعوه من فوق الجثث العارية . . وغطوه بملابس الرهبان . . وطلب إلى واحدة من الفتيات أن تعاونه على أن يغسل وجهه . . ولما أتت له بالماء الدافئ ألقاه على جسدها . . وصرخ : وهل أغسل وجهى بالماء . . من قال انى حصان أو خنزير . . هاتوا النبيذ !

وأتوا له بالنبيذ . . وغسل وجهه وخرج ودخل القصر الامبراطورى . . وسأل : وأين المريض الذى شفى الآن ؟

وأدخلوه غرفة ولى العهد .

وركعت الامبراطورة عندما رأت أن الدم قد توقف نزيفه . . وهنا صاح راسبوتين : ألم أقل لك يا مولاتى أنه شفى !

بعد ذلك كانت الامبراطورة هى التى تتولى الدعاية والدعوة له فى كل مكان . . واقترب راسبوتين من القصر الامبراطورى . . وقد اهتدى إلى الطريق العميق . . وأصبح يتردد على القصر . . وكانت الامبراطورة تشكو من أوجاع فى جسمها ونفسها وعالجها .

ومرة أخرى جرح ولى العهد . . فقد كان يلعب فى القصر عندما سقط على ركبته فنزف دمه . . وأبرقوا لراسبوتين وكان يبعد عن العاصمة أكثر من ألفى ميل . . وأبرق راسبوتين يقول : لا خوف على صاحب السمو . . أعطوه هذه البرقية . . فاذا لمسها زال عنه المرض !

ولمس الأمير برقية راسبوتين . . وتوقف النزيف !

ولكن بعد ذلك بسنوات اصطدم بزجاج القطار . ونزف دمه . . وأبرقوا إلى راسبوتين . . ولم يشأ أن يرد ببرقية . إنه أراد أن يجعل نفسه شيئاً صعب المنال . . فليس موظفًا فى القصر . . ولا هو مرغم على أن يعالج الأمير . . ثم إن القصر يجب أن يتعذب بعض الشىء . . وأن يهتز عرش آل رومانوف . . ولماذا لا يتعذبون ؟ أنه رجل بلا قلب . . وهذه هى النعمة الكبرى فى حياته . . فلا هو يتألم لأحد ، ولا يبكى على أحد . . فلا عاش أحد . . أنه فقط يريد أن يعيش وأن يعيش وأن يملأ حواسه من كل شىء حتى ينفجر من الحياة . . ويقول : أما هؤلاء المرضى رجال القصر . . هؤلاء الخائفون . الذين يمسك بعضهم البعض فى كراهية دائمة فهم أحق الناس بالموت . . فاذا أراد الإنسان أن يعيش فليبعد عنهم ألوف الأميال . . وهم يريدون أن يجعلونى واحدًا منهم ، ولكن لن أكون . . فقد ولدت لأعيش ولأموت بعد ذلك . . أما هم فقد ولدوا ليمرضوا من الحقد والكراهية والمؤامرات ثم ليموتوا

بعد ذلك ويدفنوا فى قبور فخمة لا يراها أحد . . وإذا رآها لعنها وقال فى سره : هؤلاء اللصوص سرقوا الأكفان من الجيران !

وبعد يومين ذهب راسبوتين لعلاج ولى العهد . . ووجد الأطباء حول سريره . . ووجوههم قد اتفقت فى صمت على : أن الأمير مات . . وأن البقية فى حياة الامبراطورة والامبراطور !

ونظر إليهم راسبوتين : هذا قراركم أنه مات . .

ولم يرد عليه أحد . .

وعاد يقول : لم تقولوها ولكنى أعرفها . .

وجلس إلى جوار المريض . .

ثم نزل إلى الأرض . . وركع وراح يصلى . . ويرفع صوته ويتصبب العرق من وجهه . . ويتغير لونه . . ويصبح أميل إلى الاصفرار . . ويزداد البريق فى عينيه . . حتى لا يقوى أحد على النظر إليه . .

وبعد لحظات نهض راسبوتين . . ولمس ذراع المريض . وصدره ووجهه . . وتوقف الدم تمامًا . . وتكلم الأمير ـ ونادى والدته ـ وهو يسألها : من هذا الرجل ياماما ؟ لقد رأيته فى الحلم أمس ؟ رأيته يعطينى بعض اللحم والتفاح ؟ من هو؟

وتقترب الامبراطورة والدموع فى عينيها : إنه أعظم رجل فى العالم يا ولدى . . إنه رجل من أقدس الرجال . . يجب أن تركع عند قدميه . . وأن تقبل قدمه إذا تفضل ووافق على ذلك . .

ولم يتردد راسبوتين فى أن يعطيها يده لتقبلها . . وركعت وقبلتها . . وجاءت من بعدها الوصيفات والنبيلات وقبلن يدى الرجل المقدس راسبوتين !

ومن الطبيعى أن يكرهه كل الأزواج فكل زوجة لا تتحدث إلا عن هذا الرجل المقدس . . وعن قدراته فى كل الاتجاهات . . ويدور هذا الحوار فى المساحة الضيقة التى قامت وانهدمت فوقها كل سعادات وتعاسات الناس : على السرير .

تقول أية زوجة : لو رأيته كيف يقبل النساء ؟ .

ـ وكيف رأيت ذلك .
ـ لم أره ولكنى سمعت .
ـ وكيف يقبل النساء ؟
ـ إنه يعصرها بذراعيه ويسحقها بصدره . . ثم يعجن شفتيها بين شفتيه . . فلا هو يعضها ولا هو يأكلها . .
ـ وكيف عرفت هذه الأوصاف الدقيقة ؟
ـ أنا ؟ لا أعرف طبعًا . . ولكن زوجة وزير الخارجية هى التى قالت لى ذلك . . قالت إنها انفردت به مرة . . ومرة . . إنها لم تخجل أن تصف بالضبط كيف . . هل أقول لك بالتفصيل ؟ لا داعى أنكم أيها الرجال تحقدون عليه . . لأنه صورة للرجولة الكاملة . . وأنتم صورة فقط . . مناظر . . لا تشعرون بأى واجب نحو زوجاتكم . . لا تفكرون إلا فى حياتكم . . إلا فى المجد . . أما الزوجة . . ومشاعرها فهى شىء لا قيمة له .
ـ أعرف ما سوف تقولين . . فقد سمعته ألف مرة وقبل أن يظهر راسبوتين . .
ـ سمعته ألف مرة . . فماذا كانت النتيجة ؟
ـ لا شىء . . يبدو أن الإنسان إما أن يكون شيئًا اجتماعيًا وإما يكون زوجًا . . ومن الصعب أن يكون الاثنين فى وقت واحد !
ـ ولماذا لا تقولون ذلك لزوجاتكم ؟
ـ كنا نتصور أن الزوجات يعرفن ذلك . .
ـ ولكنك أنت نفسك لم تكن كذلك . . لم تكن هكذا مسلوبًا مأخوذًا مسحوبًا من عنقك وأنفك ، وعقلك وقلبك ، كأى حصان أمام عربجى أو بقرة أمامها جزار . .
ـ وكل الزوجات يقلن ذلك . .
ـ كلهن ؟ مستحيل طبعًا فهناك زوجات سعيدات . . أكثرهن سعيدات . . أنا فقط التعيسة سيئة الحظ .

ـ أنت وحدك ؟

ـ والحل ؟

ـ أنت عليك الحل . .

ـ أنا الذى أقوم بتوريد المشاكل ، أنا الذى أقوم بتصدير الحلول . . أنا الطبيب والمريض والداء والدواء . .

ـ طبعًا أنت . . وهل تظن اننى سأذهب إلى راسبوتين للعلاج . .

ـ آه . . هذا ما تقصدين . .

ـ أنا لا أقصد شيئًا من ذلك . . ولكنى فقط أقول لك ذلك . اننى عرفت كثيرات يفعلن ذلك . . سيدات يحنى المجتمع رأسه لهن . . وهن ينحنين تمامًا عند حذاء راسبوتين . .

ـ وأنت معجبة بهن ؟

ـ لست معجبة ولكنى أعذرهن فقط . .

ـ . . . . . .

. . إلى آخر ما جاء فى مسرحية « الشيطان راسبوتين » للكاتبة الإيطالية الزه كاردوتشى . .

ولم يكن راسبوتين يشتغل بالسياسة . . ولكنه فقط كان يستفيد من سلطته على الامبراطورة . . وكانت لا تعصى له أمرًا . . ولكن الامبراطور كان لا يحب هذا الرجل الذى يدخل كل غرف البيت بلا إذن . . والذى يجلس إلى جوار الامبراطورة بعد أن خرجت من الحمام مباشرة . . وكان يلمس شعرها المبلل بيديه . . وكان يعصر شعرها فى يديه ثم يشرب الماء « الغزير » من يديه ـ ولا أحد يدرى كيف يكون الماء هكذا كثيرًا على الرغم من أن الامبراطورة قد جففت شعرها جيدًا !

ومن الغريب أن الذين ثاروا على راسبوتين من الرهبان كانوا مصابين بالشذوذ الجنسى . . وكان راسبوتين يثير حقدهم عليه . .

حتى الأمير الذى دعاه إلى بيته ووضع له السم فى الطعام . . كان شاذًا . . وكان

يغار منه على زوجته التى أحبته حتى كل قطعة من حذائه السميك . . وقد احتفظت بواحدة من حذائه فى بيتها . . وكانت لا تنام إلا إذا وضعتها فى أحضانها . . لتحلم به إذا نامت . وكانت تحلم سعيدة به !

ولكن السم الذى وضعه فى الطعام لم يكن له أدنى مفعول على المعدة التى تشرب عشرات من زجاجات الفودكا كل ليلة . .

فأطلق عليه الرصاص . . وأصابه . . ثم عاد فأطلق عليه الرصاص مرة أخرى . . ثم حمله وألقاه فى فتحة من الجليد فى أحد أنهار روسيا . . ومات الراهب غرقًا . . وعندما كشفوا عن جثته بعد ذلك لم يجدوا أى أثر للسم . . وبعد شهور أخرجوا جثته وأحرقوها !

ولم تكن هذه أول مرة يرى بريق الرصاص من مسدس قد صوب إليه . . ففى يونيو سنة ١٩١٤ أصابته رصاصة فى ساقه!

وفى يوم ٢ يونيو بالتحديد فى الساعة الثانية والربع مساء وفى نفس اللحظة انطلق الرصاص فى الصرب على أمير نمساوى . . أطلق الرصاص أحد الطلبة الوطنين . . وأدى هذا الرصاص إلى أن النمسا أعلنت الحرب على الصرب . . وبدأت الحرب العالمية الأولى . .

ولو كان راسبوتين فى القصر الامبراطورى فى ذلك الوقت لنصح الامبراطور ألا يعلن الحرب .

وقد صرح بذلك راسبوتين . . ولذلك اعتبروه هو والامبراطورة الألمانية جاسوسين يعملان لحساب ألمانيا ـ تمامًا ـ كما اتهمت مارى أنطوانيت زوجة لويس السادس عشر ـ أيام الثورة الفرنسية ـ بأنها أيضًا جاسوسة تعمل لحساب النمسا !

* * *

أما الرجل « الساحر » الآخر فاسمه جورجيف . . روسى من أصل يونانى وهو معاصر لراسبوتين وقد ولد بعده بعام واحد سنة ١٨٧٣ . ولكن هذا الرجل يؤمن

بوضوح : أن الإنسان نائم طول الوقت . . والنوم كالموت يعزله عن الناس وعن الشعور بهم . . ثم أنه يصحو بعد ذلك . . وهذا الصحو ليس كاملاً . . وإنما هو نصف صحو ونصف نوم . . والإنسان حياته كلها بين ضفتى الصحو والنوم . . ثم هناك لحظات من الصحو التام . . يرى فيها الحقيقة . . وعند رؤيته الحقيقة سوف يدرك أن كل شىء فى الدنيا له معنى . . وأن لا شىء قد خلقه الله بلا معنى . . تمامًا كما أنه لا شىء فى جسمك لا لزوم له . . ولكن إذا عرف الإنسان فى لحظات صحوه هذه شيئًا من الحقيقة ، فسوف يكون قادرًا على صنع المعجزات !

ولكن كيف يحقق الإنسان لحظات الصحو هذه ؟ يجيب جورجيف : عن طريق العمل والعمل . . والعمل الذى يقصده ليس أن تجلس إلى مكتبك وتقرأ وتكتب ، ولا أن تذهب إلى حقلك فتحرث ، وإلى مصنعك تدق الحديد بالحديد . .

ولكن أن يستغرقك عمل يدوى . . يجعلك تتحول إلى آلة . . إلى قطعة تتحرك بلا وعى . . وهذا الأرهاق والاجهاد والاهتزاز العنيف لجسمك هو الذى ينفض عنك تراب الحياة وعرق العمل ودموع الألم . . بعد ذلك يكون الجسم الإنسانى صافيًا . . قادرًا على الاحساس بالحقيقة . . لحظات من الاحساس بالحقيقة . . تمامًا كما ننظر إلى جدار عال . . وفجأة تنفتح طاقة فترى ما وراء الجدار ثم يعود الجدار إلى شكله العادى . . كل ذلك فى لحظات !

وكان جورجيف عندما سافر من روسيا إلى فرنسا يدير « مدرسة » أو كان له اتباع من الذين يهدمون الجسم من أجل بناء الروح ، ويطهرون الحواس بالعمل . .

وكان قادرًا على أن يرى ما وراء الجدران بمجرد النظر إليها . . فيقول : وراء هذا الحائط دولاب . . وفى الدولاب ستة فساتين . .

وكان يقول : فى جيبك ورقة مكتوب فيها كذا وكذا .

أما كيف أصبح راسبوتين هكذا طبيبًا روحيًا ، أو أصبح جورجيف قادرًا على تحويل الأشياء المادية إلى زجاج شفاف يرى ما وراءه ، فكلاهما لا يعرف . . تمامًا كما

أن أحدًا لا يعرف لماذا نظره ستة على ستة . . ومن الممكن أن يكون العالم العظيم ضعيف النظر . . والجاهل قويًا صحيح النظر . . ففى الأدب : طه حسين والمعرى والاعشى وميلتون وهوميروس . . وكلهم لا يرون . . ولكن النور الذى خرج من رءوسهم أضاء للذين لهم عيون ولا يرون مثلهم !

إن هناك كثيرين لا نعرفهم ، لأن أحدًا لا يدرى ، ولا هم يريدون أن يدرى أحد أن عندهم هذه القدرات الغريبة على الرؤية والسماع والتنبؤ والعلاج . . ولا يعرفون كيف يجعلون هذه الموهبة أو هذه « الهبة » أعمق وأنفع للناس . .

ولابد أن الإنسانية ستحتاج إلى وقت أطول وعدد أكبر ليتعاون الجميع على فهم هذا الشىء القريب البعيد القديم الجديد : ذلك الإنسان !

.. وجاءت فتاة أخرى إلى القاهرة واختفت !

طفلة إيطالية فى العاشرة من عمرها جاءت إلى القاهرة . . ونزلت فندق شبرد تحت اسم روسانا كارمللينى بتاريخ ٢٤ فبراير سنة ١٩٣٨ . . ولم يكن هذا هو اسمها الحقيقى . . لقد طردها موسولينى هى وأمها وأباها بتهمة الاشتغال بالسحر الأسود .

ولم يكن سحرًا لا أبيض ولا أسود . وإنما هى طفلة لها خصائص غريبة . . لا تعرف من أين جاءتها . . ولا ما الذى تصنعه بهذه الصفات التى تخيف الناس . . أو تضايق الحكومة مثلاً : عندما ذهبت إلى البنك التجارى فى ميلانو راحت ترفع صوتها بأسماء الناس الواقفين أمامها فى الطابور وأرقام شيكاتهم والمبالغ التى يستحقونها . . وراحت تقول : هذا الشيك مزور . . هذا امضاء مزور . . هذا الرجل قتل أمه وسرق أموالها وجاء ليودعها . . الجريمة تمت أمس صباحًا . . أن اسمها كذا . . وزوجته اسمها : كذا . .

وكان الناس يتلفتون ليروا الفتاة الصغيرة . وكانت وحدها ويلقى البوليس القبض عليها . . ويبعث فى طلب والديها . . وليس عند أبويها ما يقولانه . . فهما مثل كل الناس فى دهشة .

ويجيء قساوسة مدينة ميلانو يسألونه : وهل ظهرت عليها هذه الكرامات وهى صغيرة . . ويقول الأبوان : لا نعرف بالضبط . . ولكن زملاءها فى المدرسة يعرفون هذه الكرامات الغريبة . .

وكان ناظر المدرسة يعتقد أول الأمر أن هذه الطفلة ، تسرق أسئلة الامتحانات . . أو أنها تضع أذنها على غرف المدرسين . . أو إنها على اتصال ببعض السحرة . . أو إنها على اتصال بالعفاريت .

وفى بعض الأحيان حبسوها ، تمامًا كما حبسوا الموسيقار العبقرى موتسارت وهو صغير . . ثم أخذوا يفتحون عليه الباب فجأة ليروا إن كانت هناك بعض العفاريت التى تعاونه على التأليف الموسيقى .

ولم يجدوا هذه العفاريت لا مع الموسيقار ، ولا مع هذه الطفلة الصغيرة : ولكن ظلت الشكوك تلف حولها وتطاردها وتطردها من كل بيت . .

ولكن رغبة الناس فى أن يعرفوا لا حدود لها . . وفى أحد الأيام مرض قسيس من أقارب الفتاة . . وذهبت الفتاة الصغيرة لشفاء القسيس . . وسخر منها الجميع . . ولكن رجل الدين يعلم أن سر الله يضعه فى أى مكان ، فى أى إنسان أو حيوان . فالله فى كل شىء . . ولا أحد يعرف أين يخفى الله حكمته فى الناس أو فى الأشياء . . وجاءت الطفلة . . وقالت : سوف أشفيك بإذن الله !

وكان القسيس نائمًا على السرير يتوجع . . ويتساند على السرير وعلى المقاعد . . وانحنى عند قدميها . . وخلع حذاءها . . وقبل القدمين . . وقال : هذا شىء ممكن إذا أراد الله !

وحاول أبواها أن يمنعاها . . وحاول أهل القسيس . . ولكن أمام إيمان رجل الدين وأمام اللمعان النافذ الغريب فى عينى الفتاة استسلم الجميع .

وأتت الفتاة بورقة من صحيفة وجعلت الورقة على شكل هرم . ووضعتها على رأس القسيس . . ثم راحت تدور حوله . . وتلمسه فى رأسه وفى بطنه . . وترتجف وتتصبب عرقًا . . ثم تضغط برفق على صدره وعلى معدته . .

ثم تقف إلى جواره على السرير . . وتضع يديها الاثنتين فوق الهرم المصنوع من الورق . . وتظل كذلك دقيقة . . ثم دقيقة . . ومضت عشر دقائق والكل يتفرج فى هدوء وفى نفاد صبر . . وجف عرق الفتاة . . وراح رجل الدين يذوب عرقًا . . ثم

إذا به ينهض من فراشه ويعانق الفتاة . . ويطلب إلى الجميع أن يصلوا شكرًا لله . . وأن يتباروا فى تقبيل هذه الفتاة المقدسة . . حتى أبواها أقبلاً على اليدين والقدمين والوجه بالدعوات والدموع !

ولكن حدث مرة واحدة عندما ذهبت هذه الفتاة لشفاء أحد السياسيين فى مدينة نابلى . . وكان السياسى خصمًا لموسولينى غير راض عنه . . وكان موسولينى يأمل فى وفاته القريبة . . ولكن هذه الفتاة قد عاونت على شفائه من مرضه . . هنا فقط غضب الزعيم الإيطالى وطردها . . ونشرت الصحف أن الفتاة وأباها وأمها يعملون فى السحر الأسود ويعبدون أرواح الفراعنة . . وأكبر دليل على ذلك أنهم يصنعون أهرامات من الورق الأبيض يضعونها على رءوس المرضى !

ولم تكن هذه الفتاة قد رأت مصر . . وحتى لو رأت صور الهرم فأى معنى فى ذلك . . إنها صغيرة وهى بصعوبة تعرف القراءة والكتابة . . ثم أن انشغالها بهذه العلاجات الروحية قد صرفها عن المدرسة والدراسة .

وهذا ما أحزن والديها . . ولكن الفتاة مدفوعة بقوة خفية إلى علاج الناس أو البحث عن المرضى لعلاجهم . . بل إنها لا تبحث عنهم ، إنها تحس بهم وهى فى الطريق . . فهى تتجه إلى بيت من البيوت . . وتصعد الطابق الثالث وتدق الباب . . وتدخل إلى الغرفة التى على اليمين لتضع يدها على احشاء سيدة تشكو من المصران أو طفل يشكو من رئتيه . . أو كلب يشكو من ضعف نظره أو سيدة تبحث عن ولدها فتدلها على عنوانه فى مدينة كذا شارع كذا بيت رقم كذا . .

إنها لا تبحث عن شىء ، إن الأشياء هى التى تعترض طريقها وتدلها على نفسها !

وبعد شهور من إقامتها فى مصر عاد الأبوان إلى إيطاليا مرة أخرى وحدهما . . أما ابنتهما فيقال إنها تسلقت الهرم . . ويقال إنها اختفت فوقه ولم تعد . . ويقال إنها ألقت بنفسها من فوق الهرم . . ويقال إنها اختفت بعد أن هبطت من فوق الهرم . .

ويقال إنها عادت إلى البيت . . ولكن حدث شيء غريب : لقد صحا أبواها فى وقت واحد يصرخان . . وأما سبب الصراخ فهو أن أبويها رأيا حلمًا واحدًا أن أبنتهما قد سقطت من فوق الهرم . . وعندما اتجها إلى سريرها . . لم يجداها . .

ولم يسمع بها أحد بعد ذلك . . !

* * *

وليست هذه أول مرة يسمع بها أحد عن « سر » الشكل الهرمى . . أو الهرم . . أو معجزات الفراعنة . . فمن مئات السنين والأساطير تملأ كل الكتب العربية واليونانية القديمة عن سر وسحر الفراعنة . . وعن السحر الفرعونى . . وعن اتصالات الكهنة بالعوالم الأخرى . . وعن كنوز المعرفة التى أخفوها تحت الأرض أو تحت الهرم . .

ولكن أعجب ما حدث فى مدينة براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا كان فى سنة ١٩٥٩ . عندما ذهب أحد العلماء وسجل اكتشافًا علميًا تحت رقم ٣٦٧ وكان عنوان هذا الكشف هو : من هرم خوفو إلى أمواس الحلاقة » .

وقبل هذا الكشف المسجل أعلن أحد العلماء الفرنسيين إنه عندما زار هرم خوفو . . ودخل السرداب وتسلق السلالم . . وذهب إلى غرفة الملك . . وجد شيئًا غريبًا . . وجد الجو مليئًا بالرطوبة . . ووجد فى غرفة الدفن قطة وكلبين . . وكلاهما ميت . . وعلى الرغم من وجود الرطوبة فإن العفن لم ينبعث من أجسام هذه الحيوانات الميتة . . شيء غريب ! حيوانات ماتت فى جو به رطوبة ومع ذلك لا تتعفن ؟!

كأن هذه الحيوانات قد جفت سوائلها وتجمدت تمامًا . . ثم حنطت . . ولذلك لا عفونة . .

ومعنى ذلك أن الشكل الهرمى لابد أن يكون هو السبب . . ولابد أن الفراعنة ـ وكذلك السحرة ـ قد استعملوا الشكل الهرمى والفراغ الهرمى أيضًا لحفظ جثث الموتى . . أو تحنيطها بسرعة !

هذا العالم الفرنسى اسمه بوفيس وقد صدرت له دراسات عن شكل هرم خوفو . . أو الشكل الهرمى وعلاقته بحفظ اللحوم . . وله تجارب على البيض والمخ واللبن . . وقد لاحظ من كل هذه التجارب أن هذه المواد السريعة الفساد إذا وضعت تحت شكل هرمى بضع ساعات أو أيام فإنه يستحيل أن تتعفن !

ولكن المهندس التشيكى كاريل درايال هو الذى سجل العلاقة بين الشكل الهرمى وأمواس الحلاقة . . فهو يؤمن بأن الهرم هو أدق شكل هندسى صنعه الإنسان فى كل العصور . . وقد لاحظ هذا المهندس أن احدى شركات الألبان الفرنسية قد استخدمت الشكل الهرمى فى تحويل اللبن الحليب إلى لبن زبادى . . ولا تزال .

ويقول المهندس درايال إن الجنود فى الحرب العالمية الثانية يعلمون أن أمواس الحلاقة إذا وضعت إلى جوار النافذة فى ضوء القمر حتى الصباح فإنها تصبح « باردة » غير حادة . وأنهم كانوا أثناء الحرب يداعبون بعضهم البعض بوضع الأمواس فى ضوء القمر . . أما تفسير ذلك علميًا فهو أن ضوء القمر إذا استقطبناه فإنه يتذبذب فى اتجاه واحد فقط . .

وهذا هو الذى يجعل الأمواس باردة ـ هكذا يقول فى الوثيقة التى سجلها فى إدارة الكشوف العلمية . .

ويرى أن أمواس الحلاقة إذا وضعت تحت جسم على شكل هرم ، فإن الهرم يؤدى إلى أن تصبح أمواس الحلاقة حادة . . ويتساءل : هل سبب ذلك أن الشكل الهرمى يؤدى إلى تجميع الموجات الكهربية المغناطيسية . . أو الأشعة الكونية ، أو موجات لطاقات أخرى لا نعرفها ؟

إن تجربة المهندس التشيكى تؤكد أنه استخدم الموسى الواحدة خمسين مرة . . وسبب ذلك أنه وضعها أيامًا تحت شكل هرمى . وقد انتشر هذا الاكتشاف فى تشيكوسلوفاكيا . ويقال فى الجيش الروسى إنهم لا يزالون يستخدمون ذلك الهرم أيضًا لسن أمواس الحلاقة !

وقد أصدر الأب موريه كتابًا بعنوان « العلوم السحرية للفراعنة ولغيرهم من السحرة فى أوروبا » . . ويرى المؤلف أننا قد عشنا ألوف السنين فى بيوت لها شكل واحد : غرفة مربعة أو مستطيلة إنها تشبه توابيت الموتى . . ونتحرك فى سيارات وعربات وطائرات مثل الغرف أيضًا . . ولابد أن تعاسة الإنسان من ألوف السنين سببها أنه لم يغير شكل المكان الذى يعمل ويستريح ويعيش ويموت فيه . . ولابد أن شكل المكان من الداخل مسئول تمامًا عن الحالة النفسية والعقلية للإنسان . . ونحن نرى أن شكل العود وشكل القيثارة والبيانو له دخل فى صوت الأوتار المشدود إليها . .

ويلاحظ الأب موريه أن بعض مستشفيات الأمراض العقلية فى العالم قد غيرت أشكال فراغاتها الداخلية . . بل إن مهندسًا أمريكيًا لاحظ أن تغير شكل غرف المرضى أدى إلى شفاء المصابين بأمراض انفصام الشخصية . .

أما الشكل الذى اختاره فهو أنه جعل الفراغ الداخلى للغرفة هرميًا ويقال أن الطبيب الذى اختار هذا المستشفى قد استوحى هذا المعنى من أهرامات الجيزة وأهرامات المكسيك . . وأنه قد شاهد حفلة زواج فى أواسط أفريقيا . . ورأى ساحر القبيلة يضع على رأسه وعاء على شكل هرم . . وإنه إذا مرض أحد من رجاله وضع الوعاء الهرمى على رأسه . . وراح يدق الطبول حوله بشكل خاص . وأن الموجات الصوتية التى ترتد على الشكل الهرمى ويمتصها تنفذ إلى المراكز العصبية للمريض . . ويتم الشفاء !!

وفى بحث نشره د . هرمان كلاوزن إنه لاحظ أن معظم السحرة فى العصور الوسطى فى القبائل البدائية يضعون على رءوسهم قبعات هرمية الشكل . . ولابد أن يكون هناك سبب غير معروف لدينا لهذا الاختيار . .

ويقول أنه ذهب إلى احدى جزر المحيط الهادى فى يوم رأس السنة . . ورأى بعض البدائيين يشربون بناء على دعوة السياح الأمريكان وتساقط بعضهم من شدة

السكر ومن الاسراف فى الرقص والغناء . ولكن عندما جاء ساحر القبيلة فإنه لم يصنع أكثر من أن طلب إلى كل واحد من هؤلاء المرضى أن يفرغ ما فى جوفه . . وبعد ذلك وضع على رأس كل منهم ورقة معدنية صنعها على شكل هرم . . يقولون : وذهب الصداع من رأس البيض والسود معًا !

وهناك نظرية علمية حديثة تقول إن الفراعنة قد صنعوا الهرم على هذا الشكل لأنه يؤدى إلى زيادة المحاصيل . . وتقول أن الهرم كان مغطى بقطعة بيضاء كانت تؤدى انعكاساتها على السحب إلى اسقاط المطر والقضاء على الآفات الزراعية . . ويقال أن الفراعنة أقاموا هذا الهرم لأنه يعاون بشكل سحرى على زيادة النسل . .

وقد نشرت صحيفة « التيمس » البريطانية بتاريخ ١٤ يوليو ينة ١٩٦٩ أن الأجهزة العلمية التى تسجل الأشعة الكونية التى تدخل الهرم ، قد تحدت كل قوانين الطبيعة التى عرفها الإنسان فهناك شيء « فوق العلم » موجود داخل هرم الملك خفرع ـ الهرم الثانى ـ والمفروض علميًا أن الأشرطة التى تسجلها الأجهزة تصبح واحدة تمامًا . . لا خلاف بينها . . ولكن الذى رآه العلماء المصريون والأمريكان يبعث على الذهول . . فهم أمام ظاهرة لا يمكن أن نفسرها علميًا . . أن شيئًا غريبًا فى داخل الهرم يتلاعب بالأشعة الكونية ويضللها ويحير العلماء وأجهزتهم أيضًا!

وعادت صحيفة « التيمس » تقول إن الفراعنة يصرون على أن يكونوا معاصرين لكل حضارة إنسانية . . أو سابقين على كل تقدم علمى وصل إليه الإنسان !

وفى ٢٣ يناير سنة ١٩٧٠ ظهرت فتاة صغيرة من مواليد البرتغال ترتدى الملابس الفرعونية القديمة . . ولا أحد يعرف أين عثرت على هذه الألوان والأقمشة . . هذه الفتاة كانت تتحدث لغة لا يعرفها أحد . . وأخذها أهلها إلى لندن . . والتقت بعدد من العلماء المصريين . وسمعوها تتحدث لغة عربية . بعض كلماتها فرعونية . ولكن الفتاة واسمها « جزيلاً انريكويس » تستطيع أن تقرأ النقوش الفرعونية . . وإن كانت لا تعرف كل معانى الكلمات التى تقرؤها وتصادف فى ذلك الوقت أن أطلق

الأمريكان احدى سفن الفضاء . . ووقفت الفتاة فوق أحد أسطح البيوت فى لشبونة وقالت : هذه السفينة رقم كذا . . وهذا الرقم مكتوب على الجانب الأيسر منها . .

وأهم من ذلك أنها قالت : أجدادى عرفوا ذلك . .

ولما سألوها : ومن هم أجدادك ؟

قالت : المصريون القدماء !

وفى كتاب صدر أخيرًا بعنوان « أسرار الهرم الأكبر » للدكتور أرنست ألمان أحد علماء الفيزياء النظرية . . أنه قرأ قصة فتاة البرتغال . . وأنه رأى صورًا عديدة لها وهى تجتذب المعادن بأصابعها . . وأنه رآها شخصيًا تقرأ النصوص الفرعونية التى لم ترها فى حياتها . . ولكن الشيء العجيب الذى بهره حقًا هو أن هذه الفتاة كانت تنام على سرير . . وفوق السرير خيمة ـ أو ما يشبه الخيمة ـ وهذه الخيمة من قماش فضى . . والخيمة على شكل هرم . من أين أتت بهذه الفكرة ، لا أحد يعرف !

ومن العجيب أن أهل الفتاة كانوا يقسمون أن ابنتهم لم تضع الماء على جسدها سنوات طويلة . . ويقولون أيضًا (؟!) أن جسم الفتاة لم تكن له رائحة العرق المعروفة . . !

وجاءت هذه الفتاة إلى القاهرة واختفت ! !

نصب تذكارى لمجهول .. قتله مجهول لأسباب مجهولة !

مدينة ألمانية صغيرة . . كل شىء فيها هادئ : الناس والحيوانات والأشجار . الكل يمشى أو يجرى أو يتوقف على قاعدة من حديد . لا يهتز ولا يهز أحدًا . . فالناس لا يقولون شيئًا . . فالكل يعرف ما يدور فى رأس الكل . . حتى الأمطار والعواصف تستأذن قبل أن تجىء . . حتى السماء تبعث بالبرق يضىء الطريق للرعد ليوقظ أهل مدينة نورمبرج الهادئة واحدًا واحدًا . . حتى لا ينزعج أحد . . أو حتى يفسد على الناس نعمة الإثارة . . ومتعة المفاجأة . . ولذة الشىء الجديد .

ولهذا عندما جاء ذلك الشاب المجهول إلى هذه المدينة تعلقوا به . إنه حدث هائل . . إنه قنبلة . إنه السماء انطبقت على الأرض . إنه القمر عانق الشمس . . فالليل والنهار واحد متصل . .

ففى ٢٨ مايو سنة ١٨٢٨ تقدم شاب فى السابعة عشرة من عمره يدق باب رجل سباك . ويتقدم منه حتى يكاد يدوس عليه . ويعطيه خطابا . الخطاب موجه لقائد سلاح الفرسان فى المنطقة . ويسأله السباك وهو ينظر إلى ملابسه المتنافرة التى التقت على جسمه لأول مرة ، ولابد أنها ملابس « مساهمة » من أناس كثيرين : ومن أنت ؟

ـ أنا كاسبر .

ـ من هو أبوك ؟

ـ لا أعرف .

ـ من أين ؟

ـ لا أعرف .

ـ وماذا تريد ؟

ـ حصانًا . . فارسًا .

الشاب « كاسبر » فى صحة جيدة جدًا ولكنه لا يعرف من اللغة الألمانية الا بضع كلمات اشهرها : لا أعرف . . وأكثر إنتشارًا على لسانه : حصان . . فارس . فهو يريد أن يكون فارسًا ليركب الحصان . وهو لذلك جاء بهذه الرسالة الى قائد سلاح الفرسان .

ورأى الشاب شمعة موقدة . فمد أصبعه اليها فأحرقته . . فصرخ . . واندهش السباك لهذا السلوك الغريب . . كأن هذا الشاب لا يعرف أن الشمعة تحرقه . أو كأنه رأى الشمعة لأول مرة فى حياته .

ولم يكد الشاب يرى الخبز الأسود حتى التهمه دون إذن . ثم جلس على مقعد ساكنًا ينظر الى لا شيء . . وهو لايرى الدهشة التى غيرت ملامح وجه السباك وزوجته وأولاده . .

وذهب به السباك الى قيادة سلاح الفرسان وقدم لهم هذا الشاب الغريب . . وتعددت الأسئلة . . وواجهها الشاب . . بإجابة موحدة : لا أعرف !

ولاحظوا عليه أنه يمد وجهه إلى الأمام كأنه حريص على أن يشم الطريق . .

وجاء قائد سلاح الفرسان وفتح خطاب الشاب كاسبر . الخطاب يقول : «عزيزى القائد . . أبعث اليك بطفل أرجو أن تجعله أحد جنود صاحب الجلاله . . الامبراطور . . وفى سلاح الفرسان بالذات . فقد كان أبوه ضابطًا وأنا لا أعرف أباه . فقد أتوا به الى يوم ٧ أكتوبر سنة ١٨١٢ وأنا سيدة فقيرة . وعندى أطفال أحوج للعناية والرعاية . ولكنى ربيته كأولادى تمامًا ولم أسمح له بأن يخرج من البيت .

حبسته . هكذا أمرونى وهو لا يعرف أين كان ولا من أنا . لقد جئت به إلى هنا ليلاً . وهو لايعرف كيف يعود . فقد سلكت به طرقًا ملتوية . واذا أراد فلن يستطيع . فليس فى جيبه مليم واحد . ولا فى جيبى واذا لم تستطع أن تجعله جنديًا فابعث به الى أبيه الذى توفى منذ سنوات ! » .

ثم أخرج الشاب من جيبه خطابا آخر . . وألقى به عند قدمى قائد سلاح الفرسان . الخطاب بخط مختلف تمامًا أكثر ثقافة وأناقة . ويقول :

« هذا الشاب اسمه كاسبر هاوزر . أرجو العناية به . وأرجو أن يكون فى سلاح الفرسان عندما يبلغ السابعة عشرة لقد ولد هذا الشاب يوم ٣٠ ابريل سنة ١٨١٢ . وأنا سيدة فقيرة جدًا . ولو كنت أستطيع أن أصنع له شيئًا لأبقيته عندى ضمن أولادى . ولكن أباه مات وزوجى مات . . وما أقسى الحياة لسيدة شريفة ، وحريصة على ذلك . . ولو لم أكن أما ، لأرحتك وأرحته وقتلته . أنهم هكذا أوصونى إذا ضاقت السبل فى وجهى ، فأرجو ألا تضيق فى وجهك فتضيق به . شكرًا ياسيادة القائد . جزاك الله خيرًا عن طفل أصبح شابًا ولا ذنب له فى شىء . ولن تكون دهشتك أكثر من دهشتى . . إذا رأيت شيئًا غريبًا أو عجيبًا . . فكلانا لا يعرف أكثر مما قلت لك » .

وكان لابد أن يقوم قائد الفرسان بتفتيش هذا الشاب . . تفتيش جيوبه وتفتيش عقله وذاكرته . طلب إليه أن يكتب اسمه على ورقة . فكتب اسمه . وحاول أن يستدرجه إلى أن يقول أى شىء . وقال الشىء الوحيد الذى يعرفه : الحصان والفارس ولا أعرف !

قالوا : عبيط . .

وقالوا : بل إنهم منعوه من أن يتعلم لأسباب لا يعرفها أحد .

أما ملامح هذا الشاب فى محاضر البوليس أو الجيش ـ لم يكن هناك فرق بينهما فى ذلك الوقت ـ فهو أنه طويل . ممتلئ بشرته ناعمة . لونه أبيض شاحب . عيناه

واسعتان زرقاوان . ولكنه إذا مشى يبدو كما لو كان كسيحا . وهو ليس كذلك . وإنما فقط كان حبيسًا فى مكان ضيق . تحت الأرض . ولم تكن لديه أية فرصة للمشى . وفى استطاعة هذا الشاب أن يجلس على أى مقعد دون حركة ساعات طويلة .

وأدخلوه فى غرفة لعلهم يعرفون عنه شيئًا أكثر . ولم يصلوا إلى شىء . ووضعوا فى الغرفة سريرًا . ومقعدًا . ترك السرير وجلس على المقعد حتى الصباح . . ولما أطفئوا الشموع فى غرفته لم يعترض . ولكنه إذا تحرك فى الغرفة فى الظلام ، لأى سبب فأنه لا يصطدم بشىء . إنه يرى فى الظلام كأى كلب أو قط .

انتشرت القصة بين أهل نورمبرج . فما الذى لم يقله أحد ؟

ما الذى لم يتخيله أحد ؟ . إن المدينة قد احتشدت . . علت وهبطت . اتسعت وضاقت . التقى أولها بآخرها . انفتحت نوافذها على أبوابها وخرجت الألسنة ، ودارت فى التاريخ القديم والجديد .

وكانت تسلية النساء أن يقارن بين ملامح الشاب وبين ملامح كل غانية أو بنت ليل أو نبيلة أو دوقة . لابد أنه ابن غير شرعى لأحد من النبلاء . . أنها فرصة نادرة لكى تصبح الفضيلة هى المؤهل الوحيد لكل الذين لا صفة لهم ولا وضع ولا مركز ولا دم نبيلاً . لقد جاء هذا الشاب فرفع سعر القيم الأخلاقية ، وحط العروش والتيجان . أنه ابن غير شرعى . ما فى ذلك شك !

وإلا ـ ويتساءل الناس : لماذا يحب الخيول دون بقية الحيوانات الأخرى ؟ لابد أنه رآها فى اسطبلات آبائه . .

وإلا ـ فكيف يفضل أن يجلس على المقعد دون السرير ؟ لابد إنهم لقنوه أنه سوف يجلس على العرش . ويجب أن يتمرن على ذلك . فالعروش ليست مريحة . . أنها من الخشب والذهب . أى من الخشب والمعادن الجافة الباردة . ولكن العروش هى وحدها التى تحمى من يجلس عليها من شر الذين يقفون أمامها وحولها .

وجاء الناس من كل المدن الألمانية يتفرجون ويقارنون ويعودون بمزيد من القصص والخرافات والاتهامات والشائعات . والشاب بدأ يحفظ مفردات أخرى وبسرعة . إذن ليس أبله ولا عبيطًا . إنهم فقط حرموه من التعليم . .

شيء غريب : المدينة كلها عندها أرق . أما هو فينام بعمق . كأنه ولد لينام . أو كأنه استولى على نوم المدينة كلها . وكان الشاب يصحو من النوم فيجد ملابسه وحذاءه قد تغيرت جميعًا . ولا تبدو عليه أية دهشة . ويقولون : طبعًا أنه نبيل ابن نبيل . لقد اعتاد على أن يجد من يوقظه ومن يطعمه ومن يكسوه دون أن يفكر فى ذلك . وهل هو مثلنا يصنع كل شيء لنفسه ؟ !

حتى العلماء ذهبوا ليروا . فقد جلس إليه الفقيه الجنائى فون فويرباخ ساعات طويلة . ولم يشأ أن يقول لأحد ما الذى فكر فيه . ولكن أعلن : بصراحة هذا الشاب هو ابن غير شرعى لأحد النبلاء . وقد أخفاه تحت الأرض لأسباب تتعلق بوراثة العرش فى احدى الامارات الألمانية !

وزاره بعض الأطباء . واكتشف أحد الأطباء أن لديه قدرة على الشم غير عادية . ولابد أن يكون قد اكتسب هذه القدرة أثناء سجنه الطويل . فهو لا يعرف الكلام . ولا يحتاج إلى أن يستخدم يديه أو رجليه . ولابد أن تكون قدرته على الرؤية فى الظلام قد نمت مع قدرته على الشم . وكانوا يخفون الطعام فى أماكن مختلفة من البيت الذى نقلوه إليه . وكان يذهب ويحضر الطعام فى الظلام . ولم يخطئ مرة واحدة !

حاول بعض الأمراء أن يتكلم على مسمع منه لغة أخرى . وكان الشاب يلتفت عند سماع بعض الكلمات . وعاد الأمراء وهم على يقين أنه من أصل مجرى نمساوى . ولابد أنهم استراحوا إلى النتيجة التى وصلوا إليها : أن أبويه من الأسرة المالكة !

وفى يوم ١٧ أكتوبر سنة ١٨٢٩ وجدوا هذا الشاب ساقطًا على الأرض مغمى عليه . ولما أفاق قال : إن رجلاً مجهولاً ضربنى على رأسى !

وحاول البوليس أن يعثرعلى هذا الرجل فلم يجدوا أحدًا . .

وقررت المدينة حماية هذا الشاب فكان يراقبه ليلاً اثنان من رجال البوليس .

وعاود المدينة الهدوء من جديد . وتعبت من حكاية هذا الشاب المجهول . . إنها قصة مملة ليس فيها جديد . إلى أن جاء رجل انجليزى من النبلاء اسمه لورد شانهوب . وأعلن أنه مهتم جدًّا بهذا الشاب . وليس وحده . ففى بريطانيا كثيرون قلقون عليه وعادت المدينة الهادئة إلى اهتمامها بالشاب : كيف اهتم الانجليز به ؟ ولماذا ؟ كيف يجىء نبيل انجليزى إلى هذه المدينة ليسأل عنه ويقيم إلى جواره شهرًا كاملاً ؟ لابد أنه طفل هام جدًا ؟ وهذا يؤكد ابن ملكى . . لا شك فى ذلك .

وفى احدى الليالى سمع عيار نارى فى غرفة الشاب . وبعد ذلك عرفوا أن يده قد اصطدمت خطأ باحدى البنادق المعلقة على الجدار لحمايته . .

وأدى هذا العيار النارى إلى مضاعفة الاهتمامات والتساؤلات .

وفى مايو سنة ١٨٣٣ وفى ظروف غامضة أصيب الفقيه الجنائى فون فويرباخ بالشلل . ثم مات بعد ذلك بأيام .

ويوم ١٤ ديسمبر سنة ١٨٣٣ عاد هذا الشاب إلى البيت والدماء تنزف من صدره . لقد طعنه مجهول بسكين فى جانبه الأيسر . فقد تحدث إليه . ثم أعطاه خطابا . قال له : ضعه فى جيبك الآن . واقرأه فى البيت !

وفى هذه اللحظة طعنه واختفى . .

وحاول البوليس أن يعثر على هذا المجهول . . ولكن لم يفلح . وعاد الفزع يجتاح المدينة . خوفًا على صحة هذا الشاب . . وخوفًا على مصدر الاثارة فى حياة المدينة . وخوفًا أن تفقد المدينة أهميتها فجأة . وخوفًا من أن يموت « المبرر الوحيد » لأن تكون الفضيلة والشرف مع الفقر هى كل مؤهلات الأغلبية الساحقة من سكان المدينة !

وعندما فتشوا جيوب الشاب وجدوا الخطاب . يقول : هذا الشاب بدأ يتعلم وبسرعة . وسوف يخبركم من هو . وسوف تعرفون هذه القدرات الخفية التى يملكها والتى لم تظهر بعد . وحان موعد ظهورها . أنه شمشون جبار ومن نوع خاص . .

ولكن حتى لا تتفجر فيه هذه القدرات ، فقد قررنا ما تعرفونه الآن » !

ومات الشاب كاسبر هاوزر يوم ١٧ ديسمبر سنة ١٨٣٣ .

أما التقرير الذى كتبه رجل الفقه الجنائى فون فويرباخ فلم يشأ أن ينشر إلا بعد وفاته . ويقال أنه تلقى مبلغًا كبيرًا من المال حتى لا ينشر هذا التقرير ولكن بعد وفاته طبع هذا التقرير . وهو يقطع بأن الطفل هو ابن دوقة بادن . وإنه على يقين من ذلك . وصادرته ولايه بادن ،وكذلك الولايات والامارات الألمانية والنمساوية والمجرية . . فأدى ذلك إلى انتشاره . .

ويقال أن الفقيه فويرباخ قد مات مسمومًا . .

وعاد الرجل السباك يعترف بأن هذا الشاب عندما جاءه يسأل عن قائد سلاح الفرسان لم يرافقه إلى بيت القائد . وإنما أشار إليه أن يمشى إليه وأن يسأل الناس عنه . . وسار السباك وراء الطفل الذى اعتمد على أنفه واتجه إلى بيت القائد دون أن يسأل أحدًا من الناس . وكان البيت فى أطراف المدينة !

أما البوليس فقد أعلن أنه يوم طعن هذا الشاب بسكين لم يجدوا آثار أقدام أحد من الناس سواه . أما الذى طعنه فلم يجدوا له أثرًا أو شبيها بين كل سكان المدينة . .

أما قائد سلاح الفرسان فقد اعترف بشىء غريب . قال إنه الآن يستطيع أن يقول الحقيقة . وقد خشى على الناس منه ، وخشى على نفسه أيضًا من أن يتهمه الناس بالجنون . . فقد كانت لهذا الشاب خاصة عجيبة . . كانوا يرددون على مسامعه أسماء بعض الناس وكان يصرخ عند سماع الأسماء . . ومن الغريب أن كل إنسان صرخ عند سماعه مات فى نفس اللحظة . . أو بعد ذلك بقليل . فعل ذلك سبع مرات فى يومين . . بل إن قائد سلاح الفرسان كان يداعبه ويقول له : وما رأيك فى جوستاف الصغير .

وصرخ الشاب عند سماع هذا الاسم . . ولكن القائد ضحك قائلاً : هذه المرة أخطأت فجوستاف هذا هو الاسم الذى اقترحته لحفيدى الذى سوف يولد بعد أيام . .

وولد الحفيد ميتًا فى نفس اليوم !

وقال قائد سلاح الفرسان فى التقرير المكتوب المحفوظ فى السجلات العسكرية لمدينة نورنبرج الألمانية : « ولا أعرف كيف قررت أن أقلب هذه الكارثة على رأسه . . فقلت له : وما رأيك فى كاسبر هاوزر» . .

« والذى قررته شىء فظيع : لقد ظل الشاب يصرخ ويرفع أنفه إلى أعلى . ويدق صدره . وجانبه الأيسر . . ومن العجيب أنه فى اليوم التالى قد طعن فى قلبه وتوفى بعد ذلك بأيام » .

ومن الصدف الغريبة أننى تلقيت من د . أحمد عبد العال أنه كان يقتنى الكلاب السوداء . وهو يتفاءل باللون الأسود من الكلاب والقطط مثل الانجليز . . فقد أمضى وقتًا طويلاً يدرس فى انجلترا . . وأن أحد هذه الكلاب إذا عوى عند الفجر فأن شيئًا مؤلمًا لابد أن يحدث ، عوى الكلب أمام غرفة والدته فمرضت وماتت فى أسبوع . عوى أمام غرفة والده فمات بعد ذلك بيومين . . تشاءم من الكلب فبعث به إلى اخته فى الاسكندرية . انزعجت الأخت من عواء الكلب . . وروت كيف أنها وجدته يعوى عند سرير طفلها الصغير . ومات الطفل . ولما حبسته عند البواب انزعج البواب أيضًا . وقرر البواب أن يعيده إلى السيدة فى نفس اليوم ولكن البواب قد قتله المصعد فى حادثة مشهورة .

وتلقيت أيضًا من زميل صحفى أنه كان يربى سلحفاة . وقد لاحظ شيئًا أزعجه . فقد كانت السلحفاة تزحف إليه ثم تضرب رأسها مرتين وثلاثًا بصورة واضحة فى رجل المكتب . وبعد كل مرة يموت له أحد : ماتت والدته واحدى قريباته ووالده !

واعترف أحد الأطباء أنه عندما كشف على جثة كاسبر هاوزر لاحظ أن الجثة تضىء فى الليل . . وأنه لم يصدق عينيه . . وأنه اضطر إلى أنه يؤخر دفن الجثة بضعة أيام ليتأكد من ذلك . . وأنه سارع بتغطيتها تمامًا حتى لا يراها أحد من الناس . . وربما كان هذا الشاب من سكان الكواكب الأخرى !

ومن يزر مدينة نورنبرخ يجد فيها نصبًا تذكاريًا بين الأشجار الكثيفة . ويجد عليه هذه العبارة اللاتينية : مدفون هنا شخص مجهول ظهر لأسباب مجهولة ، وقتله شخص مجهول لأسباب مجهولة » !

إن هذا الشاب ضحية . ثمرة جريمة . أو حتى لا تقع جريمة . أو هو عقبة فى طريق المجد . أو قنبلة فظيعة . لقد أقامت المدينة الهادئة هذا النصب التذكارى حزنًا عليه ، وامتنانًا له : لأنه أنعش روحهم وأنقذها من بلادة الهدوء ومرض الملل ولعنة التواضع . .

ثم أن هذا النصب التذكارى ليس إلا أصبعا من رخام يشير إلى السماء : إلى الحقيقة الكبرى المجهولة لكل الناس !

دائمًا . . .
تختفى الصور من البرواز !

أبو الحظ والمرح واللهو واللعب هو الملل . . فهو الذى دفع الإنسان إلى أن يفعل شيئًا آخر . . إلى أن يواجه التثاؤب بشىء جديد . . وليس من قبيل الصدفة أن يكون نوح عليه السلام هو أول من عصر النبيذ . . فبعد رحلته الأليمة والعالم كله يغرق من حوله وابنه أيضًا كان من الضرورى أن يشعر بالملل والقرف وأن يذوب الملل والضيق فى طعم النبيذ . .

ولذلك لم يكن بحارة السفينة المعروفة باسم « العناية الإلّهية » مبالغين عندما أطلقوا على واحد منهم اسم : نوح . . فهو وحده القادر على أن ينجو بهم من محيط الملل والحنين إلى الأهل ، وذلك عن طريق الألعاب والحيل التى يقوم بها على ظهر السفينة . . أنه لم يتعلم القراءة والكتابة . . ولا حتى يفهم مبادئ الدين . . ولكنه هو شخصيًا لا يعرف كيف يقول ما يقول . . أو كيف يقول : أن الذى يقف ورائى الآن هو فلان وقد ارتدى قميصًا أحمر أو أخضر . أو وضع فى يده مسدسًا . . والمسدس ليس محشوا بالبارود ! ولا يعرف كيف يضع أنفه فى الطعام فيقول : ليس فيه ملح . . أو كثير الملح . . أو به سم . . لا تأكلوه !

حدث ذلك أكثر من مرة عندما توقفت السفينة فى جزر أزورس . . وصرخ فيهم نوح : أبعدوا عن هذا الطعام أنه مسموم ! .

ولم يصدقوه . . وقدموا هذا الطعام لكلب فى الطريق . . ولم تمض دقائق حتى بدأ الكلب يتلوى . . ثم مات !

كيف يعرف ذلك ؟ أنه لا يعرف . . ولا أحد أيضًا !

ولكن اللغز الأكبر حدث يوم ٤ ديسمبر سنة ١٨٧٢ ، كانت السفينة التجارية «العناية الإلهية » في طريقها من أمريكا إلى جبل طارق . . وعلى مدى ٦٠٠ كيلومتر قابلت سفينة أخرى اسمها « مريم المقدسة » ومن بعيد صرخ نوح : عجيبة ! عجيبة! هذه السفينة ليس بها بحار واحد ، ولا واحد . ولا قبطان . . وزوجة القبطان غير موجودة . وابنه أيضًا . . ابنه عمره سنتان !

وكانت الباخرة « مريم المقدسة » تبعد عنهم حوالى عشرين كيلومترًا . . وتلفت البحارة يتساءلون : هل نغامر ونقترب منها ؟

وكان رأى القبطان : لابد أن يكون نوح على حق . . اقتربوا!

واقتربوا أكثر . . ونزل زورق صغير به بعض البحارة . . وتسلقوا السفينة « مريم المقدسة » . . ولم يجدوا أحدًا بها . . ولكن السفينة ماضية فى طريقها الملاحى المعروف . . الذى تلعب بها الأمواج . . والأشرعة يملؤها الهواء . . والخشب يئن تحت أقدامهم وبسبب ضغط الموج وارتعاشة الأشرعة . . لا أحد . . وغرفة القبطان خالية تمامًا . . ولكن على مكتب القبطان بقايا طعام . ولا أثر بعد ذلك لأى شىء .

أما حمولة السفينة فهى ١٧٠٠ برميل من الكحول غير القابل للشرب . . والكحول موضوع فى مكان أمين . . بعيدًا عن أى خطر . وكل البراميل محكمة . . فيما عدًا برميلا واحدا مفتوحا . . ولابد أن رجال الجمارك فى أحد الموانئ قد فتحوه ليعرفوا . . وهذا طبيعى .

وفى احدى الغرف الصغيرة يوجد صندوق مجوهرات . . وبعض الملابس النسائية . . ويوجد أيضًا على السرير سيف ثمين .

وبنظرة سريعة يمكن أن يقال أن كل شىء تم بسرعة . . لقد خرج البحارة

والركاب والقبطان بسرعة . . لا شيء يدل على أن معركة وقعت . . أو أن أحدًا قتل أحدًا . . ولا حتى على سرقة . . ولكن الجميع تركوا السفينة فى ظروف غير مفهومة!

والشيء الذى أسعد قبطان وبحارة « العناية الإلٓهية » أن هذه السفينة تعتبر غنيمة . . فقد وجدوها فى المياه الدولية . . وهى من حق أى إنسان يجدها . . إنها تمامًا كالسفن الغارقة . . إذن هذه السفينة من حق الجميع بكل ما فيها من حمولة . . وأهم من ذلك أن السفينة نفسها سليمة . .

ووصلت السفينة « مريم المقدسة » إلى الموانئ البريطانية .

وهنا كان لابد أن يوجهوا القانون البحرى الذى ينص على أن السفن « الغارقة » فى المياه الدولية مستباحة لكل الناس . . ولكن هذه السفينة لم تكن غارقة . . أنها سليمة تمامًا . . ولكن رجالها قد تركوها . . أو أرغموا على تركها . . أو قتلوا . . وحمولة هذه السفينة قدرت فى ذلك الوقت بخمسين ألفا من الجنيهات . . وهو مبلغ ضخم .

وأمرت المحكمة بأن ينزل إلى البحر عدد من الغواصين ليفحصوا قاع السفينة . . وعادوا ليقولوا : إنها سليمة .

ولكن المدعى العام الانجليزى أعلن أن الذى حدث : جريمة قتل ثم قرصنة بعد ذلك !

إن بحارة « العناية الإلٓهية » قتلوا بحارة السفينة الأخرى . . ثم استولوا على السفينة . . وهناك أدلة على ذلك . . فهناك بقع على ظهر السفينة . . لابد أنها كانت دمًا . . ثم جاء ملح البحر وأزال الدم . . ثم أن السيف نفسه عليه بقع قد أزيلت بالفعل .

لما قيل له : كيف يرتكب البحارة كل هذه الجرائم ثم يقفون بين يدى القضاة بهذا الهدوء ؟

وكان رده : اننا نرى مثل ذلك كثيرًا بين الممثلين وبين محترفى الاجرام .

ولما قالوا له : أن نوحا يستطيع أن يعرف ما الذى فى جيبك .

صرخ المدعى العام : وتعملون بالسحر الأسود أيضًا . . أن هذه قضية أخرى !

وعاد المدعى العام يقول : اننى لا أستطيع أن أفهم كيف أن سفينة بهذه الحمولة تركت وحدها دون أحد . . كيف تتمكن من السير وحدها فى نفس الخط الملاحى . . كيف لم تخطئ . . كيف لم تعصف بها الرياح . . أن جريمة قد وقعت . . واننى أطالب بأعناق الجميع . . أن تفسيرى للموقف هو أن البحارة قد سكروا . وقتلوا القبطان وزوجته وابنه . . وحطموا المجاديف وأخذوها معهم فى زورق النجاة وتركوا السفينة واختفوا .

وكان الرد على المدعى العام : لو كانت هناك نقطة دم فى السيف لكان من الأفضل القاؤه فى البحر . . ولو كانت النية عند البحارة أن يسرقوا السفينة لباعوا حمولتها من الكحول . . ثم استولوا على المجوهرات . . ثم فكروا ودبروا قبل أن يأتوا بالسفينة إلى الموانئ البريطانية بهذه السرعة!

ولم تشأ المحكمة أن تصدر قرارها بشأن هذه السفينة . . وإنما اكتفت بأن منحت البحارة مكافأة مالية قدرها ١٧٠٠ جنيه أى ما يعادل خمس ثمن السفينة وحمولتها لحظة العثور عليها !

وعادت السفينة إلى صاحبها الأمريكى وأصبح لها قبطان جديد وبحارة آخرون .

هذه السفينة تعتبر أشهر سفينة « منحوسة » فى التاريخ . فهى تزن ٢٨٢ طنًا . . وطولها ١٠٣ أقدام وعرضها ٢٥ قدمًا . . وكان اسمها « الأمازون » . وبعد ٤٨ ساعة من تدشينها مات أول قبطان لها .

وعين لها قبطان ثان . . وفى أولى رحلاتها عبر المحيط اصطدمت بحاجز صخرى . . واصلحت . . ثم شبت النار فيها . . وفصل قبطانها الثانى الذى مات بعد ذلك بيومين . .

وأصلحت السفينة . . واصطدمت باحدى عابرات المحيط . وقتل قبطانها . .

وعين لها واحد جديد . . وعندما عادت إلى كندا تحطمت تمامًا . .

واشترى السفينة اثنان من التجار الأمريكان . . أفلسا تمامًا بعد ذلك . . وعندما عادت السفينة إلى الشواطئ الأمريكية أعلنت احدى شركات التأمينات أنها سليمة وصالحة للملاحة . . ورفض بعض البحارة أن يعمل بها . . لأنها منحوسة !

وجاء قبطان جديد يملك نصفها . . وكانت ترافقه زوجته دائمًا وابنه الوحيد . . وهو شيء مألوف فى ذلك الوقت . . وفى ذلك الوقت غيرت السفينة اسمها إلى «مريم المقدسة » واختفى هذا القبطان وزوجته وابنه وكل البحارة فى هذه الظروف التى لا يعرفها أحد !

وفى سنة ١٨٨٤ أصبح معروفًا فى العالم كله أن هذه السفينة ليست إلا كارثة عائمة . . كارثة على الذين يعملون فيها أو يسافرون عليها . . أو يفكرون فى ذلك . . وفى احدى الليالى طلب القبطان من البحارة أن يستعدوا لحدث جليل . . أعلن القبطان : يجب أن نتعاون جميعًا على ذهاب هذا النحس . . على القضاء على هذه السفينة المسكونة بالشر . . مهما كلفنا ذلك ! ما رأيكم ؟ قالوا : مهما كان الثمن !

وطلب اليهم القبطان أن يرتدوا أحسن ملابسهم . . وأن يعدوا زورق النجاة . . وأن يشربوا . . وأن يغنوا ويرقصوا . . ثم فتحوا أشرعة السفينة واتجهوا بها نحو صخور مرجانية عالية بارزة كأنها أنياب وحش . . ودخلت السفينة بين هذه الأنياب فى اللحظة التى شبت فيها النيران . . وانفجرت . . ومات القبطان . . وجرح اثنان من رجاله . . ودخل اثنان آخران مستشفى الأمراض العقلية . . واحد من هؤلاء البحارة كان يصرخ ويقول : أنا لم أقتل القبطان . . أنا أعرف من هو ؟

وكانت هذه أول مرة يعرف فيها أحد من الناس أن اسمها كاترين . . بل إن الذى اكتشف أن اسمها بالفعل كان كاترين هو أحد رجال القانون البحرى بعد ذلك بأربعين عامًا !

وقد حصل طالب أمريكى على الدكتوراه فى القانون البحرى الجنائى موضوعه

«جريمة السفينة مريم المقدسة » . وقد عاد هذا الطالب إلى كل الوثائق والدوسيهات الخاصة بالملاحة فى ذلك الوقت ولكل الموانئ التى توقفت عندها . . وانتهى طالب الدكتوراه إلى : أن بحارة السفينة وقبطانها قد تركوا السفينة بسرعة . . وربما كان سبب ذلك إنهم خافوا أن تنفجر شحنة الكحول . . ثم أنهم ركبوا زورق النجاة بمنتهى العناية . . كما أن القبطان قد حمل معه الساعة والبوصلة و « دفتر أحوال » السفينة . . وكان عنده أمل كبير فى النجاة .

وفى سنة ١٩٠٠ ظهرت قصة فى انجلترا تتخيل ما حدث للسفينة « مريم المقدسة» لأديب اسمه تشارلز هنت . . لقد تمثل أن وحشًا بحريًا قد مد رأسه إلى داخل السفينة والتقط بحارتها واحدًا واحداً . . وعندما ابتلعهم اختفى . . وترك السفينة كما هى . . وهناك آثار طفيفة تدل على أنه أدخل رأسه من احدى النوافذ . . أو أدخل أحد أطرافه . . وتصيدهم واحدًا واحدًا . . ولابد أنه بدأ بالقبطان وابنه ثم زوجته وبقية البحارة !

وفى سنة ١٩٥٥ انشغل العالم كله « بالأطباق الطائرة » التى ظهرت فى كل مكان . . والتى كانت لها أشكال اسطوانية ودائرية وبيضاوية . . والتى شوهدت تقترب من الأرض وتخطف الرجال والأطفال . . وتترك بقعا على الأرض . . والتى تفسد الموجات اللاسلكية والتى تعترض الطائرات . . وفى ذلك الوقت قيل أن بعض سكان الكواكب الأخرى قد اقتربوا من الأرض ـ لأى سبب . . لابد أنهم يحذرون سكان الأرض من اللعب بالقنابل الذرية . . أو لعل سكان الكواكب الأخرى يتنزهون بين الكواكب . . أو يبحثون عن شىء لا نعرفه . .

وفى ذلك الوقت من سنة ١٩٥٥ قيل أنه لا يبعد أن يكون أحد الأطباق الطائرة قد هبط على وجه المحيط والتقط ركاب هذه السفينة . . ليجروا عليهم بعض التجارب . . كما نفعل نحن مع الأرانب والفئران . . ومن يدرى ربما كانت الكرة الأرضية كلها ـ وهى شىء تافه بالنسبة للكون ـ حظيرة حيوانات عاقلة . . وهى موضع نظر وبحث وملاحظة دقيقة من كائنات أخرى أكثر تطورًا !

* * *

وفى نيويورك متحف صغير فى شارع « وول ستريت » رقم ٥٤ . هذا المتحف يضم نموذجًا صغيرًا للسفينة « مريم المقدسة » . المتحف قد أقامته شركة التأمينات المتبادلة . . وفى المتحف نموذج بالحجم الطبيعى لغرفة القبطان كما كانت يوم صعد إليها بحارة « العناية الإلّهية » . وقد تخيل فنان أمريكى صورة للبحار نوح وبعث بها إلى المتحف . . ولكن هذه اللوحة اختفت . . ثم عاد فرسم له صورة أخرى فاختفت . . فقرر أن يرسم اللوحة على الحائط . . وأن يجعل ألوانها صارخة . . وأن يحيطها ببرواز خشبى . . وأن يغطيها بلوح زجاجى . . وعندما أنفتح هذا المتحف وقف الناس ينظرون إلى البرواز واللوح الزجاجى ويتساءلون : وما هى الحكمة فى أن يكون هناك برواز وزجاج بلا صورة !

لقد تلاشت صورة نوح من فوق الحائط . . ولكن البرواز والزجاج ودهشة الناس ما تزال هناك !

من هو .. الذى يحرك التوابيت !؟

هناك نوع من الناس يحب الكلام عن الموت ، والناس ـ عادة ـ يكرهون الموت والكلام عنه . . ولكن لابد أن هذا النوع من الناس يريد أن يهون من شأن الموت . . لأنه قد اقترب منه ، فهو يريد أن يجعل الأيام التى قبل الموت شبيهة بالأيام التى بعده . . أى أنه يريد أن يستعد لمرحلة العبور من هذه الحياة إلى « تلك » الحياة الأخرى . .

فليس كلامه عن الموت إلا نوعًا من الحديث الداخلى ـ الحوار النفسى . . كأنه يريد أن يقول : ولا يهمنى الموت . . سوف أتحدث عنه طول الوقت . . كأننى مت بالفعل .

أو أن يكون السبب هو اثارة العطف حوله . . فهو يريد أن يجعل أولاده ـ مثلاً ـ يستشعرون الحياة من بعده . . يريدهم أن يشعروا من الآن كيف تكون أيامهم من بعده . . وهى فرصة لكى يسمع منهم : الشر بعيد . . ربنا يطول عمرك . . أنت ما تزال فى السبعين . . أن فلانا مات فى التسعين . . وفلانا مات بعد المائة مع أنه كان مصابًا بعشرين مرضًا . .

ربما تكون هذة هى الرغبة الدفينة فى أن يسمع مثل هذا الأب كلمة شكر . . كلمة امتنان . . صحيح أن أحدًا لم يتبرع بها . . ولكنه هو الذى مد يده وطلبها من أولاده . . وفى مثل هذه السن لا يناقش الإنسان كثيرًا أن كان الكلام الحلو الذى

يسمعه قد صدر تلقائيًا من أفواه أبنائه أو أقاربه أو أنه هو الذى استدرجه إلى شبكة العطف عليه . .

إلا هذا الرجل الطيب فى مدينة نابلى الإيطالية . كان يتحدث عن الموت . وكان فى الخامسة والعشرين من عمره . وكان قوى الجسم . . جميلاً . ذكيًا . ولم يكن أكبر الأبناء ولا أصغرهم . . وإنما أوسطهم . . فلو كان أكبر الأبناء لقال لنا علماء النفس : إن الابن الأكبر حريص على أن يثير شفقة الأم لعلها تهتم به من جديد كما كانت تهتم به أيام كان الابن الوحيد . . ولكن اهتمامها تحول إلى بقية الأخوة . . ولذلك لابد أن يفعل شيئًا من أجل أن يعيد نفسه إلى صدرها من جديد . . ولكن صدر الأم لم يكن مرتعًا لواحد . . فأخوته سبعة : أربعة بنين وثلاث بنات . كما أنه ليس آخر العنقود . . الابن المدلل الذى من حقه أن يأوى إلى صدر أمه فلا ينازعه أحد . .

وكان دائم الكلام عن الموت . وتوقع له كل الناس أن يتجه إلى الدير . ولكنه ذهب إلى البار . . يعمل فى أحد البارات . يسقى الناس ويشرب معهم . ولم يتوقف كلامه عن الموت . وكان إذا جلس فإنه يفضل أن يفعل كل شىء مرة واحدة . أى لايقوم إذا جلس . وإذا نام وجد صعوبة فى أن ينهض . وإذا وقف فضل أن يظل واقفًا . ينام واقفًا إلا إذا اضطر إلى ذلك . شىء غريب . إن أمه كانت تشده ليقوم ، وتشده لينام ، وتشده لينهض . فقط كان هذا هو العيب الوحيد فى فرانشسكو جريبالدى . ولم يكن عيبًا وإنما هى « حالة غريبة » لا أحد يستطيع أن يفسرها . رجال الدين يقولون إنه رجل أمين . وزملاؤه فى العمل يقولون إنه عامل مجتهد منظم ونظيف . أخوته يرونه فى غاية الحنان والشهامة . أمه تقول إنه أحب أولادها إليها . أبوه يتمنى أن يزوجه بسرعة ويرى صورته فيه . . . . إنه ـ إذن ـ شخص بكل المقاييس الإنسانية عاقل ومعقول .

وتوفى فرانشسيكو يوم ٢٣ مارس سنة ١٩٤٢ . شاب عادى مات موتة عادية . ولكن حزن الناس كان عليه كبيرًا . لأنه مات شابًا . وفى حادث سيارة . ولم تكن غلطته . وكان فرانشسكو قد تقدم لخطبة احدى الفتيات . وكان من المتوقع أن يتم

الزواج فى مدى ستة شهور . وقرر أهل الفتاة أن يدفنوه فى مقابرهم . ودفن . ولم تجف الدموع على شبابه . وعندما ماتت خطيبته فى حادث سيارة أيضًا ، دفنوها معه. وقال الناس : هى التى ألقت بنفسها تحت السيارة لتلحق بخطيبها هناك . واختلفت التفسيرات . ولكن الفتاة ماتت ودفنت معه . .

وبدأ الناس يتكلمون فى همس . ومات الكلام هو أيضًا لأنه كان بلا معنى واضح . فقد قال الحانوتى إنه وجد تابوت فرانشسكو مقلوبًا . مع أنه قد وضعه فى مكان خاص . وأسنده ببضعة أحجار ثقيلة . أليس هذا غريبًا ؟ ولم يجد أحد من الناس ذلك غريبًا . فالناس لا يحبون الكلام عن القبور والتوابيت . . إنهم يكرهون كل ما يتعلق بما وراء هذه الحياة . إنهم لا يتعجلون هذه النهاية .

وتوفى واحد من أسرة الفتاة ودفنوه فى نفس المقبرة . وعندما فتحوا المقبرة وجدوا تابوت الفتاة وخطيبها متجاورين . . متلاصقين . . ومقلوبين أيضًا . ولم يجدوا آثار أقدام فى داخل المقبرة أو حولها . . ولم يفهموا ما معنى تحرك هذه التوابيت . . فهى فارغة . . لا ذهب فيها ولا فضة ولا يوجد أى سبب لأن ينبشها أحد من الناس . .

ونشرت الصحف والمجلات الإيطالية هذا الحدث « الريفى» على أنه من الأشياء الغريبة التى تحدث للناس بعد الموت. . وتساءل بعض العلماء: هل هى مواد كيمياوية . . هل هى مخلفات عضوية تصبح طاقة تحرك التوابيت فى القبور ؟ هل بعض الموتى لم يموتوا حقيقة ودفنوا أحياء ؟ أن ألفرد نوبل مخترع الديناميت قد أوصى بألا يدفن بعد وفاته مباشرة، ولكن بعد فترة طويلة لكى يتأكد كل الناس أنه قد مات. ونفذت وصيته . ولكن كيف يتحرك الموتى داخل التابوت وينقلونه من مكانه ثم يعودون إليه؟!كيف يقوى الميت على تحريك تابوت لا يقدر عليه إلا عشرة أقوياء؟!

إذن هو شىء غريب . .

وفى ذلك الوقت صدر كتاب فى أمريكا يضىء هذا الحادث الغريب . الكتاب اسمه « كنيسة السيد المسيح والتوابيت القلقة فى جزيرة باربادوس » . فمنذ ١٧٠ عامًا أقامت أسرة تشيز الأمريكية مقبرة فى احدى جزر باربادوس . المقبرة من الحجارة

والأسمنت . أما مدخل المقبرة فيسدونه بقطعة من الرخام الأزرق . هذه القطعة زنتها طن ونصف طن . ولذلك إذا حركوها استعانوا بعشرة أو أكثر من الزنوج .

والمقبرة تعلو على الأرض مترين وتنخفض عن الأرض مترًا وعرضها متران وطولها ستة أمتار . فالأسرة غنية . وأفرادها كثيرون . وفى يوليو سنة ١٨٠٧ استقبلت المقبرة أول زوارها . أنها سيدة كبيرة فى السن . وفى سنة ١٨٠٨ دفنت بعدها طفلة عمرها سنتان . وبعدها بسنتين دفنت فتاة عمرها عشرون عامًا . انتحرت . فقد كان أبوها رجلاً قاسيًا . وفضلت الفتاة أن تموت على أن تعيش معه أو على مرأى منه . وكان أبوها شخصًا كريها عند سكان الجزيرة . أنه ذلك الطراز من الناس الذى يأخذ ولا يعطى . والناس من حوله يتمنون له الموت كل يوم يسمعون فيه أنه ما يزال حيًا .

وبدأ الزنوج يهمسون فى خوف . فقد لاحظوا أن توابيت الموتى قد انتقلت من مكانها . . تناثرت وتباعدت . مع أنهم قد وضعوها متجاورة . واتهم أصحاب المقبرة عددًا من الزنوج بانتهاك حرمات الموتى . مع أن فتح باب المقبرة ليس سهلاً . ولا تحريك التوابيت سهلاً . ثم انه لا معنى لأن يفعلوا ذلك . ولكن كراهية الناس للسود ليست موقفًا منطقيًا . ولذلك ألصقت بهم تهمة تحريك التوابيت فى الليل لغير سبب معقول إلا الاستخفاف بالبيض من الأحياء ومن الموتى .

ويوم ٢٥ سبتمبر سنة ١٥ ١٨ فتحوا المقبرة فوجدوا أن التوابيت قد وضعت كلها متراصة ، بعضها فوق بعض . وأضيئت الشموع ، ولم يجدوا فى داخل المقبرة آثار أقدام لأحد من الناس . ولا أمام المقبرة .

وأهم من ذلك أن المقبرة كانت مغطاة بالأسمنت . وأن اقفالها كان محكمًا فكيف دخل الزنوج هذه المقبرة دون أن يحركوا الحجر الذى يسد مدخلها . ودون أن يزيلوا الأسمنت أو الطلاء الخارجى . هذا مستحيل . وكان هذا كافيًا لأن يتحرك كل سكان الجزر المجاورة ليروا المعجزة . وأن تتحرك الكنيسة . . وأن يجىء راعى كنيسة السيد المسيح ليشاهد بنفسه . وليضع الطلاء بنفسه . . وليدخل المقبرة بنفسه . .

وليعود إليها فى اليوم التالى . ويسجل كل ذلك فى كتاب ينتهى بعبارة واحدة هى : والله أعلم !

وقالوا فى تفسير هذه « الأشياء الغريبة » أن هذه البلاد بركانية . وأن هزات أرضية سريعة وقصيرة تحدث من حين إلى حين . وهذا صحيح . ومن الممكن أن تؤدى هذه الهزات الأرضية إلى زحزحة التوابيت . . ممكن . ولكن هل تستطيع هذه الهزات أن تضع ثلاثة توابيت بعضها فوق بعض ؟ . هل تستطيع هذه الهزات الأرضية أن تضع تابوتًا واحدًا وراء الحجرة التى تسد مدخل المقبرة . ثم تضع بقية التوابيت يومًا بعد يوم الواحد فوق الآخر وبذلك يستحيل على أى إنسان أن يدخل المقبرة ؟

وقيل أيضًا أن هناك مياها جوفية . وأن هذه المياه من الممكن إذا دخلت المقبرة أن تجعل التوابيت تطفو . ولنفرض أن هذا حدث . دخلت المياه وطفت التوابيت ، فتحركت من أماكنها ولكن كيف وضعت هكذا الواحد فوق الآخر وبمنتهى الدقة ؟

وفى ١٧ يوليو سنة ١٨١٩ قرر الحاكم البريطانى واسمه لورد كومومير أن يرى ذلك بنفسه . أنه لا يحب الخرافات . ولا يحب أن يشاركه فى حكم الشعب مثل هذا الوهم أو الخوف اللامنطقى . أين نحن ـ هكذا يتساءل . اننا فى القرن التاسع عشر ـ هو الذى يجيب . وكيف يصدق إنسان فى هذا القرن مثل هذه الخزعبلات ـ هو الذى يستطرد فى الكلام . .

ولذلك قرر أن يذهب بنفسه . وطلب الأسمنت والجير الأبيض . وبيديه أعاد طلاء المقبرة . وأحكم أغلاقها بيده . ووقع باسمه فى كل الفتحات التى يحتمل أن يتسلل منها اللصوص أو الزنوج أو رجال الكنيسة أو السحرة . . أو أى مخلوق !

وكان قد دخل المقبرة ومعه العمدة ورجال الشرطة وبعض البحارة والقساوسة . ورسموا شكل المقبرة من الداخل . ورسموا ترتيب التوابيت ثم أتوا بعشرين رجلاً أغلقوا المقبرة . ولم تتوقف وفود الناس من كل الجزر عن أن تجىء وتتفرج على هذا المقبرة الغريبة . وكان الزنوج أكثر الناس خوفًا . إنهم لا يعرفون ما سوف يحدث بعد

ذلك . يحدث لهم أو لغيرهم بعد أن جاء الحاكم ورجاله وراقبوا ودققوا فى كل شىء !

وبعد أسبوعين وقف الناس وحاكمهم أمام المقبرة . هل حدث أى تغير من الخارج ؟ لا شىء . لا أحد اقترب من هذه المقبرة . الأسمنت فى مكانه . الجير ازداد لونه بياضًا . توقيعات الحاكم كما هى . وتلفت إلى كل من حوله : الآن نستطيع أن نبدأ العمل .

وجاء رجال آخرون . وأزالوا الأسمنت . ومسحوا الجير . وحركوا الصخرة الثقيلة . وأضاءوا الشموع ودخلوا المقبرة ووجدوا التوابيت قد ألصقت بالجدران . وقد وقف كل تابوت رأسيًا وليس بالعرض كما كان !

وقرر الحاكم نقل هذه التوابيت إلى مقابر أخرى . وترك هذه المقبرة مهجورة . ومنذ ذلك الوقت والمقبرة مفتوحة للهواء والشمس .

ومن الغريب أن كل كلاب الجزيرة إذا قاربت الوفاة فأنها تذهب إلى هذه المقبرة لتموت . ويحدث كثيرًا أن يذهب كلبان أو ثلاثة أو أربعة فى وقت واحد . لتموت . حتى كلاب الجزر الأخرى تسبح فى المحيط ، وتلقى بنفسها على أرض الجزيرة . ثم تتجه إلى هذه المقبرة دون معرفة سابقة . . وهناك تموت !

شىء من ذلك قد حدث فى احدى جزر جمهورية استونيا السوفيتية . . فقد كان الفلاحون عندما يربطون خيولهم فى الأسوار الحديدية للمقابر فإن هذه الخيول تصرخ . وتمزق الحبال . بل إن بعضها كان يموت من شدة الخوف . وفى يونيو سنة ١٨٤٤ لاحظ أهالى جزيرة أوزيل أن المقبرة القريبة من السور الحديدى تتحرك أحجارها . وتتحرك التوابيت فى داخلها . . وأن أهل الجزيرة يرون بعض المشاعل أو سحب الدخان أو نوعًا أفريقيا من العطور تخرج من تحت التراب . وكان الناس يفزعون من الاقتراب من هذه المقابر . .

ومن الغريب أن كل القطط فى هذه الجزيرة كانت إذا قاربت الوفاة تذهب إلى المقبرة ، وهناك تأوى بعض الوقت . . لتسكن إلى الأبد . . وتكاثرت القطط . بل إن بعض الباحثين يؤكد أن القطط والفئران كانت تتجاور معًا دون أن تلتفت القطط إلى الفئران . . وينتظر الجميع نفس النهاية فى هدوء مخيف !

شيء مكتوب على بيض الدجاج ؟!

ما الذى يراه بعض الناس فى قطرات الدم إذا تساقطت من طائر ذبيح . . ما الذى يرونه فى ريش الدجاج إذا تكوم بعضه فوق بعض . . ما الذى يرونه فى عظام الديوك إذا جاء ثعلب وراح يقلب فيها ثم تركها فى مكانها . . ما الذى يقوله البرق وهو يشوى السحب فوق رءوسنا . . ما الذى يقرأونه فى شكل السحب عند الغروب وهى دامية على الأفق . . ما الذى يجدونه فى بقايا البن والشاى فى الفنجان . . ما الذى يسمعونه عندما تهب العواصف وتنفذ من ثقب المفتاح .

ما هى العلاقة بين اسمك ويوم مولدك وساعة مولدك . . ما هى العلاقة بين نجاح تلميذ فى الامتحان واتجاه الطيور إلى الشمال فى اللحظة التى يخرج فيها من بيته . . ما معنى أن يجد الإنسان قرشًا فى اللحظة التى يبحث عن قرش فى جيبه ليعطيه إلى فقير . ونجاحه فى الحصول على وظيفة فى نفس اليوم ـ وكان ذلك أمرًا صعبًا ! ما معنى الذى يفعله الساحر فى القبيلة الأفريقية أو الهندية الأمريكية عندما يفتح بطن أوزة ، ويخرج مصارينها ويلقى بها على الأرض . . ما هذا الذى يجده فى شكل هذه الأمعاء . . ما علاقة شكل الأمعاء بقيام معركة يموت فيها ثلاثة من المتفرجين على هذا الساحر . . أو ميلاد توأمين لسيدة تبعد عن مكان الأحشاء الملقاة على الأرض ثلاثين مترًا ونصف المتر .

إن « دائرة معارف الفنون الظنية » المطبوعة فى باريس فى سنة ١٩٧١ وفى ١٨٥٠ صفحة وتباع بعشرين جنيهًا فى القاهرة ، تكشف لنا أن هناك ألف طريقة لمعرفة أشياء غريبةعن الأفراد والشعوب وعن هذا العالم كله . وفى مقدمة هذه الدائرة يقول الأستاذ جليبير ديران : « إن هذه الفنون الظنية قديمة جدًا . بل إننا لا نعرف متى بدأت ولا كيف بدأت . ولا من كان أول من سمع همسًا فى الريح ، ولا رأى صورًا على وجه الماء ، ولا رأى معارك فى إناء به قليل من الزيت . . لا نعرف . ولكن الذى نحن على يقين منه : أن الإنسان فى حاجة دائمة إلى أن يعرف يومه وغده وبعد غده . . هذه الحاجة هى أم الاختراع . ولكن الذى لا يزال يحير العلماء هو : كيف يعرف بعض الناس كل هذه الأشياء العجيبة . . كيف ؟ » .

ففى الصين القديمة كانوا يعرفون الغيب من النظر فى المرايا . .

وفى فارس القديمة كانوا يعرفون الغيب من شكل الحجارة إذا ألقيت على الأرض وهو ما نسميه بالودع .

والفينيقيون كانوا يقرءون المستقبل من شكل الزهور وهى تتمايل على الشجر .

والانجليز القدامى كانوا ينظرون إلى قمم الأشجار . . من شكل الأوراق وهى تتمايل فوق الشجرة تحت الريح . .

والمصريون الفراعنة كانوا يفسرون الأحلام . .

والهنود الحمر كانوا ينظرون إلى الأرض وقد تشققت تحت أقدامهم فيعرفون متى تهبط الأمطار ، ومتى يجىء الجراد ، ومتى تهاجمهم الذئاب . . ومن الذى سوف يموت . .

والاستراليون القدامى يعرفون مستقبلهم من الشكل الذى تتخذه عظام الحيوانات إذا ألقيت على الأرض . وجاء بعض الحيوانات وراحت تقلب فيها وتحركها يمينًا وشمالاً . ثم تعافها بعد ذلك . . أن الشكل النهائى هو الذى له معنى عندهم .

وفى بلاد التبت يوقدون النيران . . ثم ينظرون إلى النار ويرون فيها أشكالاً وصورًا وحوادث سوف تقع لهم . .

وفى أواسط أفريقيا يمسكون الطائر أو الحيوان ويذبحونه ويتركونه على الأرض يرسم بدمه مستقبل القبيلة ـ ومن العجيب جدًا أن ما يرونه يحدث .

إن حادثًا مشهورًا جدًا نشرته « المجلة الجغرافية » العالمية عن كاتبة أمريكية قابلها أحد العرافين فى الغابة . وألقى عند قدميها ببعض العظام . ثم قال لها : إنها سوف تعود الليلة إلى بلدها لأن زوجها قد مات فى حادث سيارة !

وكانت هذه الكاتبة فى زيارة لتنزانيا . وزوجها فى نيويورك . وفى الليل وجدت برقية تطلب إليها العودة لأن زوجها قد صدمته احدى السيارات فى نيويورك وأن وفاته مؤكدة !

ولك أن تتساءل علي مهلك : أين نيويورك وأين السيارة وأين زوجها وأين هذه الحادثة التى تبعد عن هذا الرجل البدائى أكثر من ١٥ ألف ميل . . أين هذا كله فى هذه العظام التى ألقى بها على الأرض ؟

وكانت عند الأغريق عرافة مشهورة اسمها بيثيا فى ضاحية دلفى . . وكانوا يسألونها : ماذا نعمل ؟ متى نحارب . . متى نتزوج . . متى نخرج للتجارة ؟ وكانت ترد عليهم بعبارات غامضة فى معظم الأحيان . .

وفى احدى المرات زارها قائد اغريقى يريد أن يخرج لقتال ملك فارس قورش .

سألها : هل أخرج لمحاربة الملك الفارسى . .

وأجابت بيثيا : إذا خرجت فسوف تسقط دولة عظمى وذهب الملك الأغريقى لمحاربة الملك الفارسى وهزمه الفارسى وعاد الملك الأغريقى غاضبًا . وعاتب العرافة .

فقالت له : ولكنى قلت لك الحقيقة !

وسألها : ولكنه هزمنى . وسقطت دولتنا العظمى .

فأجابت : هذا صحيح . . ولكنك لم تسألنى ما هى الدولة العظمى التى سوف تسقط !

وعند الصين كتابهم المشهور « أى تشانج » . وفى هذا الكتاب تنبؤات حتى

للأجيال القادمة . ولكن هذا الكتاب غامض . لأن عباراته رمزية . ولكن بمجهود قليل تستطيع أن ترى فيه مستقبل الإنسانية . فهذا الكتاب . تنبأ بكل المصائب التى هدمت الحضارة الإنسانية فى آسيا وفى أوروبا أيضًا . . ومن بين عبارات هذا الكتاب تجد شيئًا كهذا : الحوت الأصفر سوف يأكل الأسماك الصغيرة الحمراء . ولن يبقى بعد ذلك إلا الذيول من التجار . أما الأمراء فلهم نفس النهاية . .

ويفسرون مثل هذه العبارة فيجدون إنها تنطبق على ظروف الصين التاريخية .

وفى القرن الماضى توقع العلماء أن مثل هذه « العلوم » سوف تنقرض . فالإنسان لم يعد يؤمن بأن هناك أشياء غائبة عنه ـ أى تغيب عن عينيه أو أذنيه . . فكل شىء حاضر أمامه . وكل شىء ينتظر الإنسان أن يراه وأن يلمسه وأن يزنه وأن يضيف إليه أو يقضى عليه . . فالإنسان ليس له إلا ما يحضر أمامه . أما الذى يغيب عنه فلا وجود له .

ولكن طلع القرن العشرون وانتعشت معه صناعة الصحف والمجلات . وفى كل الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية فى العالم كله صفحات : حظك هذا الأسبوع . . وبختك من السماء . . وماذا تقول لك النجوم . . اسأل الكواكب عن فلوسك وقلبك وجيبك .

وكلما اضطربت أعصاب الناس وعقولهم وقلوبهم والقيم الإنسانية والمبادئ الأخلاقية أمامهم وبينهم وبسببهم تطلع الإنسان إلى أعلى : إلى القوى الكبرى لعلها تأخذ بيده . . أو لعلها تنير له . . أو تطلع إلى « القوة الكبرى » الوحيدة . . ولكن لأن الإنسان ضعيف النظر ، قاصر السمع ، ولأنه محدود . . أو لأنه كما قال عمرو ابن العاص وهو ينظر إلى الناس وقد ركبوا السفن فى البحر فقال : « إنهم دود على عود» . لهذا كله نجد الإنسان عاجزًا أمام الذى لا يعرفه . . أمام المجهول الذى يسيره ويدفعه إلى حيث لا يرى ولا يدرى ولن يرى ولن يدرى . . كلما اضطربت الحياة ، ازدادت حاجة الإنسان إلى حائط يشد ظهره إليه ، إلى عكازه يتوكأ عليها ، إلى نفحة سحرية تعطيه الأمان والأمل . .

وأكثر الناس توترًا هم أكثر الناس حاجة إلى أن يعرفوا ويتعرفوا . . إلى العرافين والمنجمين والفلكيين والسحرة ومفسرى الأحلام وقراء الكف والفنجان واستحضار أرواح الموتى وقراءة الأفكار والتأثير الهائل فى الناس . ولذلك امتلأ بلاط الملوك والقواد فى كل العصور ، بهؤلاء الذين يسعفون أصحاب الهموم الكبرى بأخبار المستقبل . .

وفى التاريخ القديم لا يوجد ملك ليس إلى جواره واحد يقلب فى الأرض وفى النجوم ويقول : مولاى على بركة الله اذهب واقتل أعداءك . . على بركة الله سوف تلد زوجتك ولدًا يكون خير من يخلفك على عرشك !

ولا نهاية لأسماء هؤلاء الذين يعرفون أو يتعرفون أو يزعمون شيئًا من ذلك .

هتلر مثلاً . كان له عراف مشهور جدًا . استطاع أن يسيطر لا على هتلر وحده ، ولكن على ألمانيا كلها . على رجال السياسة والجيش والاقتصاد . هذا الرجل اسمه أريك يان هانوس وكان يقول إنه من أصل دنمركى . وقد بلغ هذا الرجل أقصى ما يستطيع فى سنة ١٩٣٠ . وفى هذه السنة أصدر صحيفة . وكانت هذه الصحيفة واسعة الانتشار . وكان الناس يسيرون حياتهم بمقتضاها . وكانت لهذا الرجل نبوءات مؤكدة . ففى سنة ١٩٤١ توقع أن ثلاثة من أكبر بنوك ألمانيا سوف تغلق أبوابها . . وبعدها بوقت قصير . أغلقت أبواب هذه البنوك الثلاثة .

ومن أشهر نبوءاته فى سنة ١٩٣٢ أنه أعلن أن الدماء سوف تسيل بالقرب من مدينة هامبورج . وفى أول يوليو من هذا العام اصطدم النازيون بالشيوعيين فى معركة استغرقت عشر ساعات قتل فيها ١٩ وجرح ٢٨٥ . .

وكانت له قصور فى أماكن كثيرة . وكانت له باخرة فخمة فى احدى بحيرات برلين . وكان يتقاضى عن الجلسة الواحدة ما يعادل مائتى جنيه . وكان يتزاحم على بابه أصحاب الملايين وأصحاب النفوذ السياسى والعسكرى .

وهو الذى قال لهتلر أن ابنة أخته سوف تخونه . وقد كان هتلر يحب ابنة أخته . ولذلك أطلق عليها الرصاص وقتلها . وتوارت جثتها حيث لا أحد يعرف ذلك .

وهو الذى تنبأ بأن هتلر سوف يتزوج فى آخر دقيقة من عمره . وتزوج هتلر أيفا براون تحت أنقاض قصر المستشارية فى برلين عندما هاجمه الروس .

وفى الأوراق التى تركها هانوسن كتب بيده : إذا صحت نبوءتى هذه المرة فسوف يجىء شخص فى الليل اسمه أرنست شتورم ويحملنى إلى نهايتى . وإذا صحت نبوءتى هذه المرة فسوف أموت رميًا بالرصاص وأدفن تحت أشجار لا أعرف مكانها بالضبط الآن !

ومن العجيب أن الذى جاءه فى الليل ضابط بهذا الاسم واعتقله وأعدمه بعد ذلك !

وفى ذلك الوقت كانت هناك عرافة فرنسية مشهورة اسمها مدام توبوى . هذه السيدة كانت تهاجم هتلر كلما استطاعت ذلك . وهى التى قابلت الجنرال الروسى كوخاشفسكى وطلبت إليه ضرورة التعاون مع الفرنسيين ضد النازية . وكان ذلك فى سنة ١٩٣٦ . . وعندما عادت مدام توبوى إلى باريس قالت : رأيت الدم على وجه هذا الرجل . . وكلما أغمضت عينى ثم نظرت إليه وجدته قتيلاً !

وبعدها بوقت قصير . أعدمه ستالين !

وفى أمريكا سيدة اسمها مسز ديكسون . . وهى التى تنبأت بفوز كنيدى فى انتخابات الرياسة سنة ١٩٦٠ .

وهى التى تنبأت أيضًا بأن كنيدى سوف يموت فى الشارع فى أقصى الجنوب !

وتقول « دائرة معارف الفنون الظنية » إن الفرنسيين قد بهرهم رجل عاش فى جزيرة مورشيوس فى منتصف القرن الـ ١٨ . هذا الرجل كانت له قدرة غريبة . . فهو يقف على شاطئ المحيط وينظر إلى الأفق . . ويقول : أرى ست سفن . . اثنتان قادمتان من الجنوب . . وهما سفينتا ركاب . . واثنتان من الشمال وهما سفينتا شحن . . واثنتان من الغرب وهما سفينتا صيد . . وسوف تصل هذه السفن إلينا بعد يومين تقريبًا ! !

وبعد يومين تصل السفن كلها . . ومن الجهات التى حددها . وكان هذا الرجل

يقول : لن تصل سفينتان فقد تعطلتا . . سوف تصلان بعد أربعة أيام . .

وعندما يسألون هذه السفن يعرفون إنها تعطلت !

هذا الرجل اسمه توتينو . . وقد نشرت « المجلة البحرية » البريطانية معظم حوادث أو توقعات هذا الرجل فى سنة ١٨٣٤ . . وقدمت هذه التوقعات بقولها : كل هذا الذى سوف تنشره قد استأذنت فيه البحرية الفرنسية . . وهى جميعًا وقائع ثابتة . . فلم يخطئ هذا الرجل مرة واحدة . .

وقالت مجلة « البحرية البريطانية » مرة واحدة أخطأ هذا الرجل . . وأعترف بذلك عندما قال : لا أعرف إن كانت هذه سفينة شحن أم سفينة صيد . . شىء غريب . . هذه أول مرة يحدث لى شىء من ذلك . . لا يمكن أن تكون هذه سفينة صيد فعلى ظهرها أكثر من ستين رجلاً . . ولا يمكن أن تكون هذه سفينة شحن فعلى ظهرها فقط تسعة أشخاص !

وبعد أربعة أيام دخلت مياه جزيرة موريشيوس سفينتان احداهما سفينة شحن تجر وراءها سفينة صيد كادت أن تغرق . . أما عدد البحارة فى السفينتين فهم بالضبط كما قال ٦٩ بحارًا . . وكانت أمواج المحيط وعواصفه تدفع السفينتين معًا ، وتديرهما يمينًا وشمالاً !

* * *

وقد بعث الحاكم الفرنسى لجزيرة موريشيوس بتقرير طويل عن هذا الرجل الغريب . . وأكد لحكومته أن كل نبوءاته صادقة . . وفى سنة ١٧٨٢ سافر هذا الرجل إلى فرنسا . . ولكن الدولة لم تعرف كيف تستفيد منه . . ولا تعرف كيف يمكن أن يكون هناك أناس كثيرون مثله . . فقد طلبوا إليه أن يدلهم على سر هذه القدرة وأن يلقنها لغيره من الناس . . ولكنه لم يستطع وقال : ومعه حق ـ اننى أشبه إنسانًا طويلاً جدًا . . أنا طويل لأسباب لا أعرفها . . وأنا لا أعرف كيف أرى السفن بهذا الوضوح . .

وأعطته الدولة معاشًا سنويًا . . وعندما كتب مذكراته ظلت هذه المذكرات فى أرشيف البحرية الفرنسية إلى أن نشرتها البحرية البريطانية بعد ذلك !

ولعل أشهر هؤلاء « العرافين » فى كل العصور رجل فرنسى اسمه نوستر إدموس - اسمه الأصلى ميشيل دى نوتردام . . هذا الرجل تنبأ بكل الأحداث الكبرى فى تاريخ العالم . . يقال إنه تنبأ بهزيمة نابليون فى روسيا . وتنبأ بالحرب السبعينية . . والحربين العالميتين الأولى والثانية . .

وقد حرص الفرنسيون والإنجليز فى الحرب العالمية الثانية أن يعيدوا نشر مؤلفات نوستر ادموس التى تؤكد أن الحلفاء سوف يهزمون هتلر . .

ونوستر إدموس قد نظم نبوءاته على شكل ألف رباعية . . هذه الرباعيات مكتوبة باللاتينية وفيها كلمات عبرية ويونانية . . ولذلك كان من الصعب تفسيرها . . فقد خاف من الحكام ولذلك جعلها غامضة . . وإن كان المتخصصون قد استطاعوا أن يفكوا رموزها فجاءت صادقة مذهلة . .

وإن كانت بعض عباراته تحمل أكثر من معنى . . مثلاً عندما قال : النسر يذهب إلى الشرق ويعود جريحًا مهزومًا . . قالوا : إن النسر هو نابليون . وقالوا بعد ذلك إنه كارل الثانى عشر ملك السويد الذى حاول غزو روسيا وهزمه بطرس الأكبر . . وقالوا هتلر الذى هاجم روسيا وعاد مكسورًا !

مع أن « النسر » هو رمز لكل من بروسيا والنمسا وأسبانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا والمكسيك وألمانيا وبولندا وفنلندا ! !

والأسد الذى يتكرر كثيرًا فى رباعياته ليس رمزًا لبريطانيا وحدها إنه رمز هولندا والسويد وإيران والحبشة !

ولكن فيما عدا هذه السطور الغامضة فإن نبوءات نوسترادموس لم تخطئ مرة واحدة . .

بل إن كتابًا صدر فى العام الماضى فى أمريكا للدكتور ألمر إشتاينر يقول فيه : إن

نوستر ادموس هو أول من قال إن الأمريكان سوف يهبطون على القمر . . وحدد ذلك باليوم والسنة . وانه لم يقل الأمريكان . . وإنما قال أناس أصلهم من أوربا ويعيشون فى الدنيا الجديدة . . وإنهم سيبنون بيوتًا غريبة على حافة المحيط تخرج منها النيران إلى القمر . . وتهبط هناك وتعود !

هذا الرجل نوستر ادموس ولد فى فرنسا سنة ١٥٠٣ . .

وربما كان نوستر ادموس هذا هو أول من اخترع الريجيم فى الطعام . فقد كان له نظام معين فى الأكل والشرب والنوم . . فهو يشرب كوب اللبن صباحًا . . ويأكل الفاكهة ظهرًا . . ويشرب اللبن ليلاً . . وينام مع الغروب ويصحو فى ساعة مبكرة جدًا . . وينظر إلى السماء . . إلى السحب فى السماء ساعة لا ينطق ولا يتحرك . . ثم يضع رأسه بين كفيه ساعة . . ويعود يتمدد على الفراش ساعة . . ثم ينهض ليقول للناس حوله . . رأيت أنك إذا ذهبت إلى المدينة الفلانية قبل نهاية الشهر فسوف تموت . . وإذا ذهبت إليها اليوم فسوف ترى إنسانًا عزيزًا عليك قد مات . . لا تذهب . . ابعث بزوجتك فنهاية حياتها هِناك !

وتذهب الزوجة وتموت فى نفس اليوم !

ويقول لفلاح فى الطريق : هذه البقرة لك . . بعها اليوم . . فسوف تموت غدًا . . بعها بسرعة !

ويبيعها الفلاح وتموت البقرة فى الموعد الذى حدده !

ومن نبوءاته التى أفزعت أوربا كلها : أن ملكًا من ملوك الشمال سوف يموت فى قفص من ذهب فى منتصف سنة ١٥٥٩ . . وقد اشترك الملك هنرى الثانى فى مبارزة مع ضابط اسمه مونتجمرى وكان الملك يرتدى بدلة ذهبية ودرعًا ذهبيًا . . وجاء مونتجمرى وأنفذ سيفه إلى حيث عينا الملك . . ودخل السيف العين والرأس ومات الملك فى ملابسه الذهبية !

ونبوءات توستر أدموس لم تنشر إلا فى ١٥٦٦ . . ولكن هذا الرجل يعتبره مؤرخو « العرافة » أو « التنجيم » فريدًا فى كل العصور .

ولما كان نوستر أدموس على فراش الموت سأله بعض أصدقائه وأقاربه : ولكن كيف تعرف ذلك حقيقة . . أنك تقول أشياء كثيرة لا نصدقها . فتقول أنك تقرأ السحب . . وتقول أنك تقرأ الماء . . وتدعى أنك تشم الأحداث . . وكثيرًا ما قلت أنك ترى ذلك فى نومك . . فما هى الحقيقة !

ويتقلب نوستر أدموس على فراشه ويقول : الميت لا يكذب . وأنا لا أكذب ولا وقت عندى لذلك . . اننى أقرأ ذلك على بيض الدجاج يومًا بيوم ! فكل بيضة مكتوب عليها أحداث اليوم . . والعام . . ما سيحدث للناس هنا ، وللناس فى كل مكان !

ويحدث كل ما يتوقعه ولا يفهم الناس حقيقة ما يقول : ولكن الأيام والسنوات والقرون تؤكد صحة الذى رآه ولم يره أحد غيره ! !

من فتحة فى قناع
على وجه أعمى !

كل حراس سجن الباستيل قد ارتدوا ملابس جديدة . مدير السجن قد وضع كل نياشينه على صدره . ووراءه كبير الحراس يمسك باقة من الورد . الموسيقى استعدت لتعزف السلام الملكى . الجميع ينتظرون سجينا غير عادى .

وفى الساعة المحددة جاءت الخيول تعلن مقدم السجين .

وجاءت العربة وفيها السجين . ومن ورائها خيول أخرى تشدد الحراسة عليه . وانفتح باب العربة . ونزل عدد آخر من الحراس . واصطفوا صفين . ونزل السجين . أنه رجل فى العشرين . ملابسه عادية . ولكنها نظيفة . وقد التف قناع من الحرير الأسود حول رأسه .

وتقدم مدير السجن بالورود . وهز السجين رأسه . واختفى السجين . ودهشة الجميع لم تختف . وكانت قد أعدت له غرفة مزدوجة الأبواب . وأغلق الباب عليه .

وكان ذلك يوم الخميس ١٨ سبتمبر سنة ١٦٩٨ ، وظل هذا السجين فى هذه الغرفة ٣٤ عامًا . ولعل هذا السجين المجهول هو الوحيد الذى هز أركان السجن ، أركان الهوان والعذاب الممل ، وظل حديث السجناء وقتًا طويلاً بعد وفاته . ولم ينافسه فى هذه الأثارة أحد سوى الماركيز دى صاد ، الأديب الشاعر الثورى الشاذ الذى نسبت إليه « الصادية » ـ أى لذة تعذيب الغير بالضرب أو الحرق قبل وأثناء وبعد العملية الجنسية ! .

هذا السجين المجهول قد أثار خيال الأدباء . فالأديب الفرنسى الكسندر ديماس قد حكى قصته فى رواية اسمها « ذو القناع الحديدى » . ولم يكن للسجين قناع من حديد . وانتشرت هذه التسمية فى كل العصور بعد ذلك . وبرنارد شو عندما سئل مرة : ماهو اللغز الذى تتمنى أن تجد له حلاً ؟ فأجاب : لغز الرجل ذى القناع الحديدى !

أما لماذا وضعوا القناع على وجه ، فلم يكن ذلك شيئًا غير مألوف فى القرن الثامن عشر أو التاسع عشر . ففى سجون انجلترا كانوا يضعون الخوذات الحديدية أو الخشبية على رءوس السجناء امعانا فى تعذيبهم . وعزلهم عن الناس . وحتى لا يعرفهم أحد . ليكون السجين مجهولاً لدى الجميع . ويصبح كأنه شبح . يروح ويجىء دون أن يدرى أحد من هو . دون أن يرى ملامحه أو يرى تعبه ويأسه وضيقه وغضبه . أى أنهم يريدون اعدام مشاعره . وبذلك يكون هو أكثر من سجين . وباحساسه سجين مرة أخرى وهكذا يتأكد لدى السجناء الآخرين أن هذا السجين : لا شىء . . لا أحد . . لا اسم له . . لا جسم له . . أو يشار إليه بأنه : ذلك الشخص . . ذلك القناع . . ذلك الذى لا نعرفه . . لا ندرى به . .

وأحيانًا كانوا يعذبون السجين بأن يغيروا اسمه . . ويطلقون عليه اسم سيدة . . أو اسم حيوان . . ويطلبون إليه إذا تكلم أن يفعل مثل الحيوان الذى اختاروه له . . أو اسم شىء يرتديه : جزمة . . بنطلون . . جاكيت . .

ومن الغريب أن هذا السجين المجهول كانوا يعاملونه بالاحترام العظيم . . الكل ينحنى له . ويقدم له أحسن الطعام . وهذه هى المخالفة الوحيدة فى هذا السجن الذى أقيم قبل ذلك بثلاثة قرون . فالتعليمات : احترموا « هذا » الـ . . . . جدًا !

فكانوا يحترمون من لا يرون ولا يعرفون . ولا يرون شيئًا من الامتنان أو الامتعاض على وجه هذا الرجل المجهول . .

أما الرسائل التى كان يبعث بها مدير سجن الباستيل ، ردًا على تساؤلات وزارة

الداخلية أو القصر الملكى فكانت تقول : إن « الذى » أرسلتموه فى صحة جيدة ويأكل بشهية مفتوحة .

وظل هذا السجين المجهول بلا محاكمة طول حياته .

ومن الغريب أيضًا أن فى أرشيف السجن رسائل من الملك ومن رجال البلاط والوزراء تنصح هذا السجين بحسن السير والسلوك . ويطلبون إليه أن يكون مهذبًا . وأن يرعى الله فى كل صغيرة وكبيرة !! .

ولو شاء هذا السجين أن يخالف تعليمات القصر هذه فكيف يفعل ذلك . لا يكون مهذبًا فى السجن الذى هو داخل السجن ؟ أنه لا يستطيع أن يغمز بعين أو يخرج لسانه لأحد . أنه لا يستطيع أن يقول آه . . . ولا أن يقول : نعم أو يقول : لا . . ولكن رسائل القصر تتوالى وتطلب نفس الشىء . وليس على مدير السجن إلا أن يقرأ هذه الرسائل على السجين . ويتلقى هزة من رأسه دليلاً على أنه سوف يفعل ذلك !

وتقضى التعليمات أيضًا بألا يتحدث إلى أحد من الحراس . ولا كلمة . وإذا كان لابد أن تكون هناك مناقشة ، ففى حدود ضيقة . كأن يطلب نوعًا معينًا من الطعام . وعلى الحراس ألا يردوا عليه بكلمة . وإنما عليهم أن ينفذوا الأوامر . ثم ينصرفوا بعد ذلك !

ولم يحدث أن طلب هذا السجين شيئًا واحدًا .

وقد حار المؤرخون فى كل العصور بعد ذلك وأثناء ذلك ، يحاولون أن يعرفوا من هو الرجل وراء القناع الحديدى الأسود . ورشحوا أسماء كثيرة . ولكن لم يتأكدوا من أى واحد منها .

وكان ذلك فى عصر الملك لويس الرابع عشر ملك فرنسا . وهو الملك الذى عرف باسم « شمس الملوك » والذى قال العبارة المشهورة : أنا الدولة والدولة أنا !

وكان متمسكًا بحرفية هذه العبارة تمامًا ، حتى مات بعد أن ظل ملكًا ٧٢ عامًا . وضرب بذلك رقمًا قياسيًا فى كل التاريخ !

وكان « ملكًا جدًا » ـ كما يقول المؤرخون . وكان حريصًا على أن يؤكد أن كل شىء يعمله أو يقرره هو شىء شعبى . أو هى رغبة الرعية . فمثلاً إذا ذهب إلى دورة المياه دخل معه ٣٣ رجلاً . وجلس الملك ليستريح . وفى هذه الأثناء يقوم كل واحد من هؤلاء الرجال بعمل محدد . معروف . وإذا أراد أن يأخذ حمامًا ساخنًا . جاء أربعون رجلاً . وكل واحد يعرف بالضبط المساحة المخصصة له من جسم الملك لكى ينظفها أو يدلكها . . أما فم الملك فكان هو الذى يتولى تنظيفه !

وكان من عادة الملك أن يطلب إلى هؤلاء الرجال أن يقفوا طابورًا ويسألهم واحدًا بعد واحد : ما هى مهمتك ؟

فيقال :

ـ بطن القدم يا مولاى .

ـ وأنت ؟

ـ ظهر القدم يا مولاى .

ـ وأنت ؟

ـ كعب القدم يا مولاى .

ـ وأنت ؟

ـ مقدمة البطن يا مولاى .

ـ امش يا كلب يا ابن الـ . . . . ليس هذا بالضبط ؟

ـ بل أسفل البطن !

ـ وأنت ؟

ـ فوق أسفل البطن بقليل يا مولاى .

ـ وأنت ؟

ـ فوق ذلك بقليل يا مولاى . .

ثم يلتفت الملك إلى آخر فى الطابور :

ـ وأنت أيها العجوز .

أسفل الظهر يا مولاى . .

ـ إذن إلى العمل أيها الكلاب !

ـ سمعا وطاعة يا مولاى !

وعندما أصدر الملك لويس الرابع عشر أمره بسجن هذا الرجل المجهول ، جمع رجال حاشيته وقال لهم :

ـ من الذى ألبسه حذاءه .

يقول واحد منهم : أنا .

ـ ومن الذى وضع القناع على وجهه .

ـ أنا .

ـ ومن الذى أراد له السجن مع عظيم الاحترام والعناية التامة بصحته .

ـ أنتم يا مولانا !

وعندما ذهب هذا السجين إلى الباستيل لم يكن له اسم معروف ! .

وفى عهد لويس السادس عشر ، حاول بعض المؤرخين أن يعرفوا من هذا السجين المجهول . ولكن أرشيف السجن وسجلات القصر لا تساعد أحدًا على ذلك . فهو مجهول الاسم ومجهول الذنب أيضًا .

وفى أوائل الثورة الفرنسية اتجه عدد من المؤرخين إلى السجن ليعرفوا عن قرب . واستجوبوا مدير السجن والحراس وطبيب السجن ولكنهم لم يهتدوا إلى شىء واضح . .

ويوم ١٩ نوفمبر سنة ١٧٠٣ توفى هذا المجهول . فقد جاء من حيث لا يدرى أحد ، ولسبب لا يدريه أحد ، واختفى من حيث لا يدرى به أحد أيضًا !

وفى سجلات كنيسة القديس بولس التى دفن فيها هذا المجهول وجدوا هذه السطور : جاء رجل عمره ٤٥ عامًا . طويل أشقر . ودفن هنا بحضور كل

القساوسة ومدير السجن . ووضع الجميع زهورًا على قبره . بعد صلاة طويلة على روحه . وليس له اسم !

وفى عهد نابليون عثر المورخون على رسائل فى مكتبة وزارة الداخلية بشأن هذا السجين . هذه الرسائل استغرقت حوالى ٣٤ عامًا . الرسائل من القصر الملكى ومن إدارة السجن . وكلها تتحدث عنه وعن صحته . .

من بين الرسائل واحدة تقول : جلالة الملك أرسله اليكم . على أن يلقى عناية فائقة . ويجب ألا يعرف أحد عنه شيئًا . ولا هو يعرف شيئًا عن اسمه أو مولده . أو من أين جاء . وقدموا له أحسن الطعام .

ومن تقارير السجن أن أحد الحراس حاول أن يسأل السجين أن كان الطعام قد أعجبه . فهز السجين رأسه . وسأله الحارس أن كان النبيذ قد أعجبه فهز السجين رأسه أن نعم . وسأله الحارس : أن كان الجو باردًا فى غرفته فهز رأسه بما معناه لا .

ورسالة من السجن وجدوها تقول : أن السجين حاول فى احدى المرات أن ينظر فى الأوراق الموجودة أمام مدير السجن . فانزعج مدير السجن ونهض على الفور يسأل السجين : هل قرأت شيئًا من هذه الأوراق .

فرد السجين المجهول بقوله : سيدى المحترم اننى لم أتعلم القراءة !

ولا توجد فى سجلات السجن أو وزارة الداخلية ما يدل على أن السجين المجهول حاول أن يهرب !

وحاول المؤرخون فى ذلك الوقت أن يعرفوا من هو هذا السجين الحقيقى : هل هو ابن غير شرعى للملك . . هل هو ابن غير شرعى لكبير وزرائه الكاردينال مازاران . . هل هو ابن غير شرعى للملك تشارلز ملك انجلترا ؟

ولا يمكن أن يكون واحدًا من هؤلاء فلم يكن من عادة الملوك والنبلاء فى ذلك الوقت أن يخفوا غرامياتهم . . أو يخجلوا من « السيدة الأخرى » فى حياة أى واحد

منهم . . أو يقتلوا ثمرات الحب المحرم . . بل كانوا يتباهون بالجانب اللذيذ من السرير ـ كما كانوا يسمون هذه العلاقات فى ذلك الوقت !

حتى الأديب الكسندر ديماس فى روايته تصور أن السجين المجهول هو توأم الملك لويس الرابع عشر ، وأن الملك لم يشأ أن يقتل واحدًا من النبلاء !

ولكن أحد المؤرخين قد اهتدى إلى أن هذا الشخص المجهول كان عشيقًا لاحدى النبيلات واسمها مدام برانفيلير . . هذه السيدة كانت من أشهر غانيات أو فاجرات العصر. فقد كان لها أكثر من عشرين عشيقًا . من بينهم اثنان من اخوتها ، وابنها البالغ من العمر ١٥ عامًا . وابن الطاهى الذى لم يتجاوز الثانية عشرة ، وأحد المدرسين، وأحد القساوسة . وكانت هذه السيدة تقتل ضحاياها بأن تضع لهم السم فى العسل . وقد وضعت ذلك السم لأبيها ولأولادها ولأولاد أخوتها . . وزوجها الذى كان راضيًا عن كل شىء . . وقد أصيب هذا الزوج بشلل . ويوم قرر الملك لويس الرابع عشر اعدام هذه السيدة ، ذهب زوجها محمولاً على أحد المقاعد ليرى رأسها وهو يسقط تحت سيف الجلاد !

ويقال أن هذا السجين المجهول هو آخر عشاقها . ولكن لماذا لم تقتله ؟ لماذا لم يعذبه أحد . . أن القانون فى ذلك الوقت كان يمنع تعذيب النبلاء . وكانت هذه السيدة نبيلة . ولكن الملك لويس الرابع عشر قد زعزع القانون لكى يعدمها وأعدامها . . ويقال أن هذا العشيق المجهول قد أدخله الملك السجن . ولكن لماذا ؟ لا أحد يعرف وجاء المؤرخون بعد ذلك وأثبتوا أن آخر عشاق هذه السيدة قد أعدم قبل ذلك . فليس هو هذا السجين ذا القناع الأسود .

انتهت القصة المثيرة الغريبة العجيبة . .

* * *

ولكن المعنى الذى أريده هو أوسع وأعمق من ذلك جدًا . فليس هذا السجين المعتقل فى داخل أكثر من سجن إلا رمزًا على حياة الإنسان العادى . أى إنسان . فى

أى وقت . فى أى عصر . اننا جميعًا سجناء قدراتنا المحدودة . سجناء أجسامنا ورغباتنا ومخاوفنا . وآمالنا . وأحلامنا . وشقائنا . وإيماننا وكفرنا .

إن هذه المعانى سجون غير منظورة . ولكنها سجون . تمسكنا . وتحدنا . وتحددنا . ولذلك لا نرى بعيدًا . ولا ندرك أبعد من قضبان السجن .

وليست العلوم الحديثة كلها ـ التكنولوجيا ـ إلا تطويرًا لحواسنا : الميكروسكوب والتلسكوب والمراصد ، كلها لكى ترى العين أبعد وأعمق وأدق وأوسع وأوضح مما نستطيع[1] . .

وليست السيارات والطيارات والصواريخ إلا تطويرًا للقدمين والساقين ، لكى يصبح الإنسان قادرًا على أن يمشى أبعد من هذه المدينة وهذه القارة وهذا الكوكب . .

ولكن قدرات الإنسان جميعًا محدودة وهو يحاول أن يوسعها . . وسوف تظل محدودة دائمًا . .

وقديمًا صور لنا الفيلسوف اليونانى أفلاطون : ما الذى نستطيع أن نراه أو نفهمه من هذا العالم . . فتخيل أن هناك كهفًا وأن لهذا الكهف فتحة . . وأن أناسًا جلسوا فى داخل الكهف وظهورهم إلى فتحة الكهف . ثم أنهم مقيدون . ويرون على جدار الكهف ظلال الناس أو الحيوانات أو الأشياء التى خارج الكهف . ولكنهم لا يستطيعون أن يستديروا ليروا ما هو خارج الكهف . إلى هذه الدرجة معلوماتهم محدودة . وقدراتهم مقيدة !

وفى رواية الأديب الفرنسى هنرى باربيس التى اسمها «الجحيم » نجد بطلها يحاول أن يعرف ما الذى يجرى فى الغرفة المجاورة له من ثقب فى أعلى الجدار . . إنه يسمع فقط ويتخيل ولكن لا يرى بوضوح . معلوماته محدودة . وقدراته محدودة أيضًا ـ وكل إنسان كذلك !

---

(١) راجع مقدمة كتابى « يسقط الحائط الرابع » . .

وفى « رحلات جليفر » التى كتبها القسيس سويفت يذهب إلى بلاد غريبة : الأذكياء فيها خيول ، والأغبياء فيها هم الناس . ولكن ذكاء الخيول محبوس فى حيوانيتهم . . وغباء الإنسان ينطلق فى إنسانيته . . فالذكاء سجين ، والغباء طليق.

ومن الصعب أن يعرف الإنسان شيئًا . لأنه لا إنسان ذكيًا . ولا ذكاء بلا قيود وسدود وحدود ! .

وفى مسرحية « الكراسى » للأديب الفرنسى يونسكو . . المسرحية غير مفهومة . أو جعلها المؤلف كذلك . وطلب الينا نحن وأبطالها أن ننتظر حتى نهاية المسرحية عندما يجىء شخص يشرح لنا ذلك . وننتظر جميعًا . ويجىء شخص مجهول ليشرح . . ونفاجأ بأن هذا الشخص أخرس .

فالذى لا يعرف قادر على الكلام !

والذى يعرف عاجز عن الكلام !

وفى احدى قصص أديب المانيا الفائز بجائزة نوبل هذا العام هينريش بيل يحكى أن رجلاً عصب عينيه وسد أذنيه أو تظاهر بذلك ليعرف ما يقوله العلماء فى أحد معاملهم السرية . وعاد الرجل الذى تظاهر بأنه أعمى ليرى أكثر ، وأطرش ليسمع أوضح . ثم قال : عرفت أن الإنسان أصله صرصار !

لقد عرف . ولكن ما الذى عرفه ؟ ما الذى فهمه مما سمع . وما الذى فهمناه مما قال ؟ !

وموسى عليه السلام كان عاجزًا عن التعبير . كان صاحب رسالة . ولكنه معقود اللسان . وجاء أخوه يشرح لليهود ما الذى يريده أخوه أن يقول . . ويقال إن لسان موسى كان قد احترق وهو طفل كما يقول القرآن الكريم . ويقال إن موسى كان لا يعرف اللغة العبرية لغة قومه ، لأنه عاش فى بلاط فرعون ، وكان فى حاجة الى مترجم . وهذا هو المعنى . فالذى عنده ما يقوله لا يعرف كيف يقوله . والذى ليس رسولا ولا عنده شىء قادر على أن يقول !

إن فى التوراة كتابا يوجع القلب ـ أقصد سفر النبى أيوب . فقد كان الرجل طيبًا

ساذجًا . وكان لة سبعة أبناء وثلاث بنات و٣٠٠٠ جمل و ٥٠٠ حمار و ٧٠٠ فدان . وحياة سعيدة هانئة . ويقال أن الله نظر إلى أيوب ورأى فيه نموذجًا للرجل الطيب . ولكن إبليس قال : إنه طيب يشكرك لأنك أعطيته .

قال الله : سوف يفعل ذلك دائمًا .

قال الشيطان : خذ كل هذه النعمة وسوف ترى ما يفعل الفقر والعذاب بأطيب القلوب .

وزالت الحيوانات والأرض ومات الأولاد ونهشته الأمراض وتعذب أيوب . ولكنه صبر طويلاً . وكان صبره دليلاً على الصبر الذى لا يقوى عليه أحد . كان مضرب الأمثال . وكان ذلك الصبر هزيمة لإبليس . وأعاد الله إلى أيوب كل ما فقده من أبناء وحيوانات وأرض . وعاش أيوب بعد ذلك تسعين عامًا !

ولكن أيوب لم يعرف لماذا صدر عليه هذا القرار بالحرمان . ولا ما هى الحكمة . وإلا ما هو المعنى . ولا أنه أصبح عبرة فى كل العصور . فالذى عاش وجرب ، لا يعرف المعنى وراء ذلك ولا فوق ذلك ولا بعد ذلك .

ونحن فى هذا العالم أيوب . لا نعرف لماذا نحن هنا ؟ لماذا لم نكن هناك ؟ ولماذا كل ما يجرى علينا ؟ ولماذا ينتهى بنا كل شيء ؟ وما معنى هذا الذى كان ولم يعد له وجود ، ولا ما معنى ألا يكون أحد بعد ذلك ؟

إن العقل الإنسانى محدود . ولكنه يحاول أن يشق هدومه ، وأن يحطم قيوده . وأن يعرف ما وراء هذه الحدود . . ما وراء هذا السور . . أنه يحاول كما يحاول الأعمى أن ينظر من ثقب فى قناع أسود على وجهه !

ولكن عددًا قليلاً من الناس عندهم هذه القدرة الخارقة . . أن يروا أبعد ، أن يروا المستقبل . . أن يروا الأشباح والأرواح . . أن يروا بأيدهم وبأصابع أقدامهم . . أن يروا بلا عيون . . نحن لا نعرف ولا هم يعرفون .

وإذا كنا لا نستطيع أن نرى إلا ماهو أمامنا ملموسًا فإن هناك أناسًا يرون ما

لانرى . ويلمسون ما لا نقدر على لمسه . . أن يروا المعانى . أن يروا الشياطين . . وأن يتحدثوا إليها . . وأن يسخروها لهم أو ضد الآخرين . . لقد حدث هذا فى كل العصور القديمة والحديثة ، فى البلاد المؤمنة والبلاد التى لا تؤمن بدين ولا إله . . ولكن العلم علمها ألا ترفض شيئًا لأنه غير مفهوم . وإنما تعلمت أن الحقيقة كبيرة ، وأن أحدًا لم يبلغ منها إلا القليل . وأن للحقيقة ألف ألف باب . . وأننا لم نعرف إلا بابا أو نافذة فقط . . ونحن لا نعرف إلا شكلاً واحدًا من أشكال هذه الأبواب . . ولا نعرف شكل الأبواب الأخرى !

ولكن هذه القدرات الخارقة عند بعض الناس تدل على أن فى داخل العقل الإنسانى والإحساس الإنسانى قوى لا نعرفها . وأن للإنسان قدرات تظهر من حين إلى حين . . وأننا يجب أن نعرف مصدر هذه القوة لنفهمها . ولنحاول أن نكشفها وأن نكشف عنها فى أجسام وعقول الآخرين . .

إن الذى نعرفه من أى شىء قليل جدًا . ولذلك يجب أن نعرف أكثر . ولن نعرف أكثر ، إلا إذا تساءلنا أكثر . ولن نتساءل إذا لم نندهش لما نرى . فلا علم بغير دهشة . . والذين يقولون : إن الحقيقة لا تدخل إلا من هذا الباب ، يجهلون الحقيقة . ويجهلون حقيقة هامة جدًا : إنهم لم يتعلموا شيئًا ، فنحن فى عصر انفتحت فيه أبواب غريبة فى الفضاء الخارجى . . ومن هذه الأبواب خرجت أصوات وموجات تؤكد أن كائنات أعقل تعيش هناك . . وأن كائنات أعقل كانت تعيش هنا . وأن هناك عالمًا آخر وأن هناك صلات مؤكدة بهؤلاء الذين هناك ، فليس من العقل أن نلغى العقل لمجرد أن نريح أنفسنا . فالذين اعتادوا الراحة ، لم يعرفوا . والذين أراحتهم عقولهم ، ألغوها!

كتب للمؤلف

(أ) ترجمة ذاتية :

١ ـ في صالون العقاد كانت لنا أيام
٢ ـ عاشوا في حياتي
٣ ـ إلا قليلا
٤ ـ طلع البدر علينا
٥ ـ البقية في حياتي
٦ ـ نحن أولاد الغجر
٧ ـ من نفسي
٨ ـ حتى أنت يا أنا
٩ ـ أضواء وضوضاء
١٠ ـ كل شيء نسبي

(ب) دراسات سياسية :

١ ـ الحائط والدموع
٢ ـ وجع في قلب اسرائيل
٣ ـ الصابرا (الجيل الجديد في اسرائيل)
٤ ـ عبد الناصر ـ المفترى عليه والمفترى علينا
٥ ـ في السياسة (٣ أجزاء)
٦ ـ الدين والديناميت
٧ ـ لا حرب في أكتوبر ولا سلام
٨ ـ السيدة الأولى
٩ ـ التاريخ أنياب وأظافر
١٠ ـ الخالدون مائة ـ اعظمهم محمد (صلى الله عليه وسلم)
١١ ـ لعنة الفراعنة
١٢ ـ على رقاب العباد
١٣ ـ ديانات أخرى
١٤ ـ وكانت الصحة هي الثمن
١٥ ـ الغرباء
١٦ ـ الخبز والقبلات

(جـ) قصص :

١ ـ عزيزي فلان
٢ ـ هي وغيرها
٣ ـ بقايا كل شيء
٤ ـ يا من كنت حبيبي
٥ ـ قلوب صغيرة
٦ ـ شارع التنهدات
٧ ـ فوق الركبة
٨ ـ هذه الصغيرة (وقصص أخرى)
٩ ـ عريس فاطمة
١٠ ـ يوم بيوم
١١ ـ إنها الاشياء الصغيرة

(د) نقد أدبي :

١ ـ يسقط الحائط الرابع

٢ ـ وداعا أيها الملل
٣ ـ كرسى على الشمال
٤ ـ ساعات بلا عقارب
٥ ـ مع الآخرين
٦ ـ شىء من الفكر
٧ ـ لو كنت أيوب
٨ ـ يعيش .. يعيش ..
٩ ـ الوجودية
١٠ ـ عذاب كل يوم
١١ ـ طريق العذاب
١٢ ـ وحدى .. ومع الآخرين
١٣ ـ مالا تعلمون
١٤ ـ لحظات مسروقة
١٥ ـ كتاب عن كتب
١٦ ـ أنتم الناس ايها الشعراء
١٧ ـ أيها الموت .. لحظة من فضلك
١٨ ـ أوراق على شجر
١٩ ـ فى تلك السنة
٢٠ ـ دراسات فى الأدب الامريكى
٢١ ـ دراسات فى الأدب الالمانى
٢٢ ـ دراسات فى الأدب الايطالى
٢٣ ـ فلاسفة وجوديون
٢٤ ـ فلاسفة العدم

(هـ) رحلات :

١ ـ حول العالم فى ٢٠٠ يوم
٢ ـ بلاد الله خلق الله
٣ ـ غريب فى بلاد غريبة
٤ ـ اليمن ذلك المجهول
٥ ـ أنت فى اليابان وبلاد أخرى
٦ ـ اطيب تحياتى من موسكو
٧ ـ أعجب الرحلات فى التاريخ

(و) مسرحيات كوميدية :

١ ـ مدرسة الحب
٢ ـ حلمك يا شيخ علام
٣ ـ مين قتل مين
٤ ـ جمعية كل واشكر
٥ ـ الأحياء المجاورة
٦ ـ سلطان زمانه
٧ ـ حقنة بنج
٨ ـ العبقرى
٩ ـ الكلام لك يا جارة

(ز) مسرحيات مترجمة :

* للأديب السويسرى فريد ريش ديرنمات :

١ ـ رومولوس العظيم
٢ ـ زيارة السيدة العجوز
٣ ـ زواج السيد مسيسى
٤ ـ الشهاب
٥ ـ هى وعشاقها
٦ ـ أمير الأراضى البور

٧ ـ مشعلو النيران

* للأديب الفرنسى جان جيرودو :

٨ ـ من أجل سواد عينيها

* للأديب الامريكى آرثر ميللر :

٩ ـ بعد السقوط

* للأديب الامريكى تنسى وليامز :

١٠ ـ فوق الكهف

* للأديب الامريكى يوجين أونيل :

١١ ـ الامبراطور جونس

* للأديب الفرنسى يوجين ليونسكو:

١٢ ـ تعب كلها الحياة

* للأديب الفرنسى اداموف :

١٣ ـ الباب والشباك

* للأديب الاسبانى أرابال

١٤ ـ ملح على جرح

(ح) دراسات نفسية :

١ ـ الحنان أقوى

٢ ـ من أول نظرة

٣ ـ طريق العذاب

٤ ـ الوان من الحب

٥ ـ شباب .. شباب

٦ ـ مذكرات شاب غاضب

٧ ـ مذكرات شابة غاضبة

٨ ـ جسمك لا يكذب

٩ ـ اثنين .. اثنين

١٠ ـ الذين هاجروا

١١ ـ غرباء فى كل عصر

١٢ ـ أظافرها الطويلة

١٣ ـ هموم هذا الزمان

١٤ ـ الحب الذى بيننا

١٥ ـ عذاب كل يوم

١٦ ـ قل لى يا أستاذ

(ط) دراسات علمية :

١ ـ الذين هبطوا من السماء

٢ ـ الذين عادوا إلى السماء

٣ ـ القوى الخفية

٤ ـ أرواح وأشباح

٥ ـ لعنة الفراعنة

رقم الايداع : ١٩٨٩/٨٦٨٩
الترقيم الدولى : ٤ ـ ٣٤٠ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

هذا الكتاب

ما الذى يجعل إنساناً قادراً على أن يقرأ أفكارك.. ما الذى يجعله قادرًا على أن ينظر إلى شىء فيتحطم.. ما الذى يجعلك تقول إذا ذهبت إلى مدينة لأول مرة، إنك رأيت هذه الأماكن قبل ذلك ـ وما تقوله صحيح ولكن لماذا ؟

ما الذى يجعل سيدة تقرأ الصحف بأصابع قدميها.. كيف يعرف البدو فى مصر وفى السعودية أنه يوجد ماء حلو أو مالح بمجرد أن يدقوا الأرض بعصا خشبية..

ما هذا الذى يراه الناس ويحسون له بالخوف والضيق.. ثم يقولون أن هذه البيوت «مسكونة».. ومن الذى يسكنها؟ ولماذا يسكنها ؟ ولماذا هو شبح لإنسان كان مظلوماً أو كان قتيلاً؟ لماذا ؟.

كيف يستطيع رواد الفضاء أن ينقلوا إحساساتهم بعضهم إلى بعض بلا مواصلات سلكية أو لاسلكية.. كيف يدربون على نقل أفكارهم ومعلوماتهم من عقل إلى عقل، خوفا من أجهزة «التصنت» الإلكترونية. وقد نجحوا فى ذلك !

ما هذا العقل الإنسانى العجيب الغريب.. إننا لا نعرف إلا القليل جداً عن عقولنا..

إن الإنسان لا يستطيع أن يرى عينيه بعينيه.. وكذلك العقل لم يستطع بعد أن يعرف قدرات العقل الخارقة الخفية..

إننا على عتبة سلم لا نهائى للحقيقة.. وأول درجة فى هذا السلم : أن العقل الإنسانى محدود وأنه ملىء بالأسرار والألغاز !



القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨٠٧٧١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)

